

حاييم الزعفراني

يهود الأندلس والمغرب

2

ترجمة

أحمد شحلان

مرسم

MARSAM

حاييم الزعفراني

يهود الأندلس والمغرب

هذا الكتاب هو جماع كل ما كتبه المؤلف في كتبه السابقة وأبحاثه، بل فيه فقرات وفصول كاملة من بعضها. فيه مجريات يهودية الشرق والغرب الإسلاميين، تاريخا وتعبدا ومصيرا. فيه نظر في قانون أهل الذمة وتأويله والعمل به وما ناله اليهود من مكانة سامية في المجتمع الإسلامي. فيه ما بلغته المعارف اليهودية في هذا الحيز الشاسع الذي ليس فيه حدود غير حدود الإيمان، بأي دين سماوي كان. فيه رحلة مع أعلام اليهود الذين اتخذوا لهم من علم العرب والمسلمين، في القيروان والأندلس والمدن الزاهرة في هذه الديار، مسلكا في التفكير، ومنهجا في البحث والتأويل. فيه رحلة التاجرة والعالم والإنسان في المشارق والمغارب، مَحفوظَ النفس والمال، موفور الحرمة والكرامة، مشمول العطف ومستقلا في شرعه وقانونه وخصوصياته. فيه صور من الثقافة التي تجمع أبناء الوطن الواحد، وصور من الفكر التي تصطبغ بمقتضيات الشرع وخصوصية المعتقد. فيه أنواع من المعارف تداخل فيها ماهو إنساني شامل بما هو مغربي خاص في إسلامه، وأخص في يهوديته. فيه تتبع دقيق لتطور المجتمع اليهودي المغربي في البنى الاجتماعية والقانون العام والخاص وما جد في الشريعة بفعل هجرة يهود الأندلس وشبه الجزيرة الإيبيرية. فيه فنون من القول الفصيح والعامي والملحون و"القصيدة" و"لگريحة" و"الأندلسي" و"اصْنَايِعْ"... فيه كثير من أثر الغزالي في بحيا بن بقودا، وأثر ابن رشد في ابن ميمون. فيه فعل التصوف والسحر وسر الحرف وتقاليب الفقيه وجداويل الحبر. فيه ثورة فقه أحفاد "المهجَّرين" على تصلب تشاريع "البلديين". فيه وبالأساس وفي كل فقرة من فقراته، تكامل المجتمع المغربي في كليته، وتضامن المغرب في كليته. فيه الإشادة بأمجاد المغرب، تاريخا ومعاناة وحاضرا. فيه إشادة بأفعال ملوك المغرب وحنوهم على رعاياهم اليهود... في هذا الكتاب الناس والتاريخ وفضل العلم وأفضال الحضارة الإسلامية مشرقا ومغربا.

ردمك: 9981-149-31-4

الثمن: 80 درهم / 90 ف ف

يهود الأندلس والمغرب

2



حاييم الزعفراني

يهود الأندلس والمغرب
2

ترجمة
أحمد شحلان



طبع الكتاب بدعم من مصلحة التعاون والنشاط الثقافي
للسفارة الفرنسية بالمغرب

Livre édité avec le concours du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France au Maroc

حاييم الزعفراني
يهود الأندلس والمغرب
ترجمة: أحمد شحلان
الناشر: مرسم الرباط
الإخراج والتصفيف: كوادريكرومي
الطباعة: مطبعة النجاح الجديدة
الإيداع: 2000/1844
ردمك: 4-31 -149-9981

Haïm Zafrani
Juifs d'Andalousie et du Maghreb.
Paris : Maisonneuve et Larose, 1996
ISBN : 2-7068-1204-4

الجزء الثاني

الفصل الخامس

المجتمع اليهودي المغربي

مدخل تمهيدي

خصصنا الجزء الأول من هذا الكتاب، للحديث عن هذا الكيان الذي يطلق عليه الغرب الإسلامي، وبالتحديد، الأندلس والمغرب، اللذين يشكلان وحدة لا يمكن فصل أجزائها. وأمعنا النظر في المواطن التي وقع فيها التواصل اليهودي - الإسلامي، فكرا وثقافة، وذلك إلى حدود التاريخ المشؤوم، تاريخ الطرد والتهجير من شبه الجزيرة الإيبيرية سنة 1492 .

لقد مهدت لنا دراسة المجال التشريعي، (أنظر فقرة الفتاوى الجماعية والفردية فيما سبق) بشكل من الأشكال، لننتقل إلى الجزء الثاني من هذا العمل. فالأدبيات التشريعية المتمثلة في الفتاوى الجماعية (التاقانوت)، أو الفتاوى الفردية (الرسبونسا)، على الخصوص، تعتبر بطبيعة الحال، جنسا من الأجناس الأدبية، ونمطا من أنماط التعبير الفكري. إنها مصدرنا المفضل فيما يخص التوثيق لما ندعوه مجال التشريع الاجتماعي - الاقتصادي والديني .

إذن سيكون الجزء الثاني من هذا العمل، مخصصا ليهودية ما بعد التهجير من شبه الجزيرة الإيبيرية، ولفترة الاستقرار في أرض المغرب الذي أصبح الأرض الجديدة لأولئك المهجَّرين. كما سيكون موضوعا للحديث عن مؤسسات الطوائف اليهودية، وعن أنشطتها الاقتصادية، وكذا عن مختلف تجليات ومظاهر متخيلها في اللحظات الأكثر تعلقا بالوجود والإيمان الديني. وسننظر أيضا تبعا لذلك، في كل ما أينعه عطاء هو من

ثـــمـرات الـعـــالـم الأنـدلـســي - المغـربــي، بل مـن ثمـرات مخــزون ســامـي مشــترك، ينتمي إلى عـصـر اجتمـاعي سياسـي يشــمـل مجمــوع الـعـالـم العربي الإسـلامي، الذي عاش فـيـه الشـتـات اليهـودي المدعـو: الشـرقـي - السـفـردي، (السـفـردي = أنـدلسـي)، زهـاء ألـفـي سـنـة.

وسـنـخـتـم بالحديث عن الظروف التي أدت إلــى صدع كـيــان المجـتـمـع اليهودي فـي المغرب، وكــذا بالحديث عن ذاكـرته الجماعيـة ووعيه التاريخي اللذين لم تخب جذوتهما أبدا.

المجتمع اليهودي

الأهالي وأماكن استقرارهم مجموعات عرقية ولغوية واجتماعية - ثقافية

بغض النظر عن التحولات الحديثة المتتابعة في فترة الاحتلال أو الحماية الفرنسية والإسبانية. والتي لا تهم مع ذلك إلا جزءا يسيرا من السكان. فإننا وجدنا نفسنا منذ حوالي عشرين سنة. وهي الفترة التي اشتغلنا فيها بدراسة منطقة الغرب الإسلامي. أمام ثلاثة تيارات كبرى اجتماعية ثقافية. تتطابق في مجملها مع ثلاث مجموعات عرقية ولغوية. وتختلف فيما بينها اختلافا بينا وهي: الطوائف العربية اللسان. والأمازيغية اللسان. وطائفة اتخذت لها اللغة الإسبانية أداة للاستعمال. وكان عدد اليهود عندها يفوق 000 250 نسمة.

ويكوّن اليهود المنتمون للطائفة الناطقة بالإسبانية جزءا من المنحدرين من أصل "الميكوراشيم". وهم اليهود المهجرون من الأندلس والبرتغال. وقد استقروا بصفة عامة في الشمال. وهي المنطقة التي كانت خاضعة للأسبان. أو في أماكن أخرى على سواحل المحيط أو الداخل. وانتشر هؤلاء في هذه المناطق على إثر تنقلاتهم خلال عهود قديمة. وقد احتفظوا باللغة القشتالية القديمة "اللادينو" واستعملوها أداة للتخاطب والمعرفة والتعليم التقليدي.ونجد هؤلاء في طنجة وتطوان وأصيلا والقصر الكبير وشفشاون ومليلية. وكذلك بفاس والبيضاء والرباط وسلا ومراكش وغيرها. (1)

---

1 عندما ظهر الاتحاد الإسرائيلي في مدن شمال المغرب كان يطلق على اللهجة اليهودية الإسبانية : لادينو . وقد استدعى هذا الاتحاد يهوديا من الصويرة يسمى بن هاكي (تصغير إسحق) ليترجم النصوص العبرانية المكتوبة باللغة الإسبانية . ومنذ ذلك الوقت أصبح يطلق على اللهجة الإسبانية اليهودية تهكما : حاكاتية .(أخبرنا بذلك السيد إسرائيل بن ناروش).

ومن بين الطوائف الناطقة بالعربية، أحفاد المهجرين من الأندلس والبرتغال الذين تعربوا، وعدد كبير من يهود محليين. لم يجد التاريخ لحد الآن، جوابا شافيا يساعد على معرفة بدايات استقرارهم بالمغرب، ولا على معرفة أصولهم العرقية. ومازال تاريخهم حتى الساعة، يعد ضربا من الأساطير. (انظر ما سبق).

وتنتشر هذه االطوائف المعربة في مجموع البلاد، جبالا وسهولا. ورغم أنهم يتكلمون لغتين، وأحيانا ثلاثا، فإنهم يستعملون، بالإضافة إلى لهجاتهم الخاصة، اللهجات المحلية الأخرى، والدارجة اليهودية - العربية أو الدارجة اليهودية - الإسبانية. وكان لليهود الناطقين بالأمازيغية من كانوا يقطنون بلاد "الشلوح" و"تمازيغت" في الأطلس وسوس، بالإضافة إلى لهجتهم المستعملة وفلكلورهم الذي لا يقل عن ذاك الذي كان لجيرانهم المسلمين، آداب شفوية تقليدية ودينية، لم يشك في وجودها المؤرخون واللسانيون، يهودا وغير يهود. لكن للأسف، لم يبق منها إلا بقايا تمكنا من الحصول عليها أثناء بحثنا، ومنها على الخصوص، "هگدت البصح"(قصة ليلة الفصح)، وهي نص لم يسبق نشره، عثرنا عليه بتنغير تدغا، في الأطلس الكبير، بشكليه الشفهي والكتابي، وقمنا بدراسته، لسانيا وأدبيا وتاريخيا، بتعاون مع السيدة Pernet - Galand ثم نشرناه في كتاب من جزأين سنة 1970 .

وكان اليهود، بصفة عامة، في تدغة (تنغير) ونواحي تزنيت (وجّان أسكا) وورزازات (إميني) ودمنات (آيت بولهي) وأُفران بالأطلس المتوسط، وإليغ وغيرها، مزدوجي اللغة، يتكلمون الأمازيغية والعربية، باستثناء أقلية لم تكن تتكلم إلا الأمازيغية. فكوّن هؤلاء اليهود قديما، مناطق صغيرة تعرف بـ "الملاح" في أماكن أقاموا بها طوال ألف أو ألفي سنة .

و ظلت كل الطوائف اليهودية المغربية تستعمل اللغة العبرية أساسا في الشعائر والتعليم التقليدي، مهما كانت اللهجة التي تستعملها (1).

الهجرات الداخلية

سنتعرض بادئ ذي بدء، إلى تنقلات اليهود المغاربة الكبرى داخل حدود البلاد، كما سنتعرض أيضا إلى تنقلاتهم المنتظمة والمتكررة نحو الخارج، وسنرى أنهم فعلا كانوا يغادرون مسقط رأسهم بدون أدنى صعوبة، فيتوجهون نحو الشرق أو أوربا أو إلى الأمريكيتين .

وكان اليهود يَعْبرون المغرب من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، من تطوان إلى تارودانت ومن سجلماسة إلى مكناس وسلا، دون عناء يذكر، بالرغم من صعوبة المواصلات وانعدام الأمن التام، خصوصا بالنسبة للذمي اليهودي الذي تترقبه المخاطر وهو يسلك طرق الرحلة التي كانت تتحول إلى مهلكة، أثناء فترات التسيب، كلما تغيرت السلطة أو اُشعلت نار السيبة .

وكانت عهود بعض الملوك المعروفين ببأسهم، تتميز بالدعة والطمأنينة، مثال ذلك عهد المولى إسماعيل (1672 - 1727)، الذي تحدث المؤرخون المسلمون عن الأمن في عهده قائلين: "إن المرأة واليهودي يستطيعان أن يذهبا من وجدة إلى واد نون، دون أن يسألهما أي كان عن وجهتهما... ولم يكن أي أثر في المغرب كله للص أو قاطع طريق".(2)

1-أنظر للمزيد من التفصيل :

Haïm Zafrani," Langues juives du Maroc", dans R.O.M.M., (Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée), n°4, 1967, p .97/104, et Littératures populaires, p.11/35.

2-أنظر، R. Le Tourneau,Fès, p. 84. وكان مصدره في هذا الباب استقصاء الناصري.

ولدينا أيضا في هذا الصدد شهادة استقيناها من مصادر ربِّيَّة مغربية هذا نصها:" طوال حياة عاهلنا ...كان الأمن الشامل يعم كل أقاليم المغرب. وكنا نسافر ونتنقل من فاس إلى مناطق تبعد بحوالي عشرين يوما فأكثر مشيا. بقوافلنا المحملة بالثمين من السلع. وكنا نلتقي في طريقنا بجماعات كبيرة من الأغراب. ولم يكن يقدر أي منهم على التلفظ ببنت شفة. بل بمجرد تنهيدة. لأن رهبته [أي الملك] عمت كل الناس (گوييم) = [غير اليهود]. وكان الخوف منه قد تمكن من قلوبهم. وكان يسهر ليل نهار على قضايا الناس... غير أنه. لعظيم خطايانا. أصابته علة المرض مع استهلال شهر نيسان (من نفس السنة 1727).(1)

كانت الهجرة الداخلية نتيجة لأسباب متعددة. وتزودنا "التقنوت" (الفتاوى الجماعية) و"الرسبونسا" (الفتاوى الفردية) عنها بمعلومات قيمة في هذا الموضوع وفي مواضيع أخرى.

من ذلك أن ثائري مدينة من المدن. كانوا يرغمون في كثير من الأحيان على ترك مدينتهم بأمر ملكي. وكانت هذه العملية ترحيلا حقيقيا للسكان. وبناء على ما نعلم. لم يكن اليهود وحدهم هم الضحايا. بل على العكس من ذلك. كان العقاب يوجه لجماعة الثائرين المسلمين الذين ثاروا على الخزن . ولم يكن ترحيل اليهود الإجباري. من المناطق التي اتخذت فيها هذه الإجراءات القهرية. يكتسي طابعا عنصريا. بل كان في بعض الأحيان يرفق بامتيازات خاصة. ويخول للمهجرين الذميين بعض الحظوة لم تكن لهم من قبل. ونذكر في هذا الصدد. ترحيل طوائف زاوية الدلاء إلى مكناس وفاس في عهد مولاي رشيد (1668). واجتذاب سكان أگادير نحو الصويرة أيام مولاي محمد بن عبد الله حوالي 1765.

1-أنظر Les juifs du Maroc ... Taqqanot et Responsa, p.211, note 1.

ويحدث في فترات الأوبئة والمجاعات. وهي آفات ترتبط عامة بالجفاف. أن يتقاطر الأفراد والجماعات. من الجهات القريبة أو البعيدة على مناطق أقل ضررا. بحثا عن الغوث عند إخوانهم الأسعد حظا أو الأكثر غنى . وهذه أمثلة مما احتفظت به بعض الوثائق التي اعتمدناها :

"غادر بعض اليهود مكناس سنة 1738 هربا من المجاعة التي حلت بها إذ ذاك. واتجهوا بحثا عما يقيم أودهم إلى دكالة أولا. ثم ضربوا بعيدا نحو الجنوب حتى وصلوا درعة". (مشباط I ، 24)

"واتجه يهود مدينة بني سنوس إلى وجدة ليقيموا بها مدة المجاعة التي سبقت موت السلطان". كما جاء في فتوى مؤرخة بـ 1731.

"عم الجوع والعوز مدينة صفرو المحاصرة سنة 1745. مما اضطر موسى بن حمو إلى مغادرة المدينة التي لم يعد له بها ما يسد الرمق. واتجه إلى فاس. غير أن زوجته رفضت مرافقته. محتجة بالشرط المتداول المثبت في عقد الزواج القائل : "لا يمكن للزوج أن يُغَير مكان إقامته دون موافقة زوجته".

ويعد التوجه إلى المزارات أيضا. سببا من الأسباب الرئيسية للتنقل عبر المغرب. إذ كانت عائلات بأكملها تتحمل الأسفار الطويلة المهلكة في بعض الأحيان. وفاء بنذر قطعته على نفسها ولم ترد أن يفوت وقته المحدد له. والوقت عامة هو الهيلولا (انظر فيما يأتي). ويكون الوفاءُ بالنذر زيارةَ قبر ولي من الأولياء. ربما يقع مدفنه في أماكن ليس من السهل الوصول إليها. وكان المسافرون غالبا ما يتنكرون في ثياب المسلمين. حيث يتعمم الرجال وتتحجب النساء. كما جاء في الحكايات التي كانت ترويها لي جدتي عن رحلاتها الطويلة التي كانت تقطع فيها الطريق من الصويرة إلى مسكلا (عين الحجر) في الجنوب. لزيارة قبر الولي الربي نسيم .

وكانت "يشفوت" (مدارس). بعض المناطق ذات الرواء الروحي لدى يهود المغرب. وجهة يولي الطلبة وجههم شطرها من النواحي المجاورة. وأحيانا من مناطق جد بعيدة. ليتلقوا تعليما تلموديا وهالاخيا (شرعيا). ينتهي بالحصول على إجازة (سميخة). بعدها يرجعون إلى ملاح مسقط رأسهم ليقوموا بالمهام الربية المختلفة. وأحيانا يطيب لهم المقام في مستقرهم الجديد. فتلتحق بهم عائلاهم التي تنفصم نهائيا عم موطنها الأصلي.

وعلى هذا المنوال كان الناس ينتقلون من مدينة إلى أخرى ليتعلموا مهنة من المهن. فقد جاء في وثيقة مؤرخة بـ :1701 "أن المسمى مخلوف بن يوسف بن عطية الفيلالي. التزم بأن يضع ابنَه في خدمة داود بن يعقوب بطبول الفاسي. مدة أحد عشر شهرا. مقابل الحصول على أجر مقداره 15 أوقية. وأن يتكفل بطبول بتلقين الابن أسرار مهنته ".

ويتنقل الشخص أيضا بسبب فض نزاع من النزاعات أمام محكمة مدينة كبيرة. أو ليستفتي علَما من الأحبار في الأمور العائلية. أو لأمور أدنى من هذا وذاك. وقد يرحل أحيانا دون سبب يذكر. (لم تكن النصوص واضحة في هذا الموضوع. ومن أمثلة هذا الترحال ما جاء في مجموع"مشباط" (I. 36). ونصه : التحقت عائلة ذات أصول إشبيلية. من دبدو. وهي ذات ممتلكات كثيرة (دور ومساكن وحقول وكروم). بفاس سنة 1752. وذلك لفض نزاع يتعلق بإرث". ويبدو أنها استقرت بفاس نهائيا.

وجاء في فتوى مؤرخة بـ1728 أن : "أحد يهود تطوان. وهو ابن أخ المسمى يعقوب بوزي الفاسي. توجه إلى تارودانت. وتزوج هناك ورزق طفلة..."

وهاجرت عائلة كوهين الصقلي حوالي سنة 1619 من دبدو لتستقر بدار بن مشعل.

وورد في فتوى مؤرخة بـ 1746 :"أن زوجين هاجرا إلى صفرو، بعد أن تزوجا بإحدى قرى تافيلالت، موطنهما الأصلي. وبعدها رغب الزوج في العودة إلى مسقط رأسه مع زوجته. غير أن هذه الأخيرة رفضت الرجوع معه.... فحكمت محكمة فاس لصالح الزوجة، بدعوى قلة السكان اليهود بقرى تافيلالت (هكذا)، وفرضت على الزوج الإقامة بصفرو أو فاس، وإلا وجب عليه أن يؤدي مبلغ الصداق المضروب في عقد الزواج"

ونقرأ في فتوى قضائية مؤرخة بـ 1727 ما يأتي : " يصرح المسمى موسى بن إسحاق بن حيون، من مدينة سجلماسة، بأن ظروف العيش دفعته وزوجته إلى أراضي الغرب، وبعد أن عاشا مدة بهذه المدينة (فاس)، رجعت زوجته إلى مسقط رأسها، وتعذر على زوجها اللحاق بها بسبب مخاطر الطريق. إنّا نسمح له بأن يتزوج امرأة أخرى بهذه المدينة (فاس).

وعليه يمكن أن نفسر حركية السكان اليهود الهائلة أساسا، انطلاقا من اعتبارات اجتماعية اقتصادية، وتبعا لنظم الأنشطة المهنية والحاجيات التجارية والصناعية. فقد كان الصناع المتنقلون والباعة المتجولون الذين كانوا يوزعون السلع المستوردة والمصنوعة بمعامل المدن المغربية الكبرى، ووكلاء التجار الذين كانوا يجمعون لشركائهم الممولين، المنتجات المحلية، من حبوب وشمع وزيت ولوز وصمغ وزرنيخ وغيرها، والفلاحون الملاكون، أو مطلق الدائنين الذين حصلوا على أراضي فلاحية رهونا، سواء أولئك الذين يستخدمون من يفلح حقولهم وبساتينهم، أو أولئك الذين يخدمونها بأنفسهم، يسافرون دوريا إلى أماكن جد بعيدة عن مقر سكناهم داخل المدن أو بملاح البادية. وكانوا يتوغلون في بعض

الأحـيان فـي مـناطـق أقل أمنا، داخل حـدود القـبائل المتـمردة الثـائرة عـلى سلطة المخـزن المركـزية. وكـان هؤلاء التـجـار المتـجولون والمـتنقلون علـى اخـتلافـهم، معـرضين في غالـب الأحيـان، إلى حوادث مـزعجـة، هي في أفضل الحـالات أعمال نهب وسـرقة. وقد تنتـهي هذه التنقلات بفاجـعة مـثل الاغتـيـالات والاختـفـاء الذي لا يترك وراءه أثرا. كـمـا تدل على ذلك الأصداء التي نجــدها فـي الفتاوى وأحكام المحاكم المتعلقة بأوضاع النساء "العگنوت"، أي النـسـاء اللائي مـا زلن في عـصـمـة زوج غـائب، ويحـرم عليهن أن يتزوجن ما دام الدليل على موت الزوج لم يقم.

ونعرف حال "السـواقة" و"الدوازة" وتنقلاتهم الموسمية، فـقد كان الصناع المتجولون والباعة والسواقـة المتنقلون، يغادرون قراهم غداة عيد الفصح، ولا يعودون إلا عشية رأس السـنة، ثم يأخـذون عصا الترحال بعد عيـد الأسابيع، ليعودوا عـشية عيـد الفصح، محـملين بمختلف السلع، شعيرا وفواكه جافة وعسلا وسمنا وغيرها ...مع قليل من المال .

وتخبرنا، من جهة أخرى، فتوى شرعية يعود تاريخها إلى بداية القرن الثامن عشر، أن التجار اليهود كانوا يستعملـون أيضا الطريق البحري في تنقلاتهم بين مدن الساحل المغربي، وهكذا:"كان إسحاق مندس يستعمل الباخرة عادة، في تنقله من أكادير إلى سلا... وفي رحلته إلى أوربا".

وتزودنا الفـتاوى التي تعـرضت لمصـير " العگنوت " والإقـرارت التي تجـمعت لدى المحـاكم، والمثبـتة في نصـوصنا التي أخـذناها شفـاها من الشهـود وبلغتهـم مباشـرة، وهم على العموم من المسلـمين، بمعلومات قـيمـة عن تنقل اليـهود في البـوادي المغربـية، وعن الأخطار التي كـانت تهددهم أثناء تجـوالهم. كما تزودنا بأخبـار المساعدات التي كان يقـدمها لهم في بعض الأحيان، حاموهم وأصدقاؤهم المسلمون في فترات الخطر.

وهذه وثيقة موقعة بفاس، ومؤرخة بـ 1732-1733، يثبت منطوقها الدليل على موت مسافرين يهوديين، وذلك لتتمكن زوجاتهما "العكنوت"، من التحلل من الروابط الزوجية، وتستطيعان الزواج ثانية. ومضمون هذه الوثيقة هو : "توغل داود بن كمين وابنه يعقوب في بلاد لحياينة وغياثة، مجازفين بحياتهما، بعد أن دعتهما حاجة أعمالهما إلى ذلك، وقد اغتالهما قطاع الطريق من قبيلة غياثة، بعد أن دافعا دفاع الأبطال على نفسيهما ..."

وفي هذا الصدد وجد المسمى موسى بن أبراهام الكرساني أو الكورساني، أثناء إحدى الغزوات، في أحد المسلمين، مدافعا دافع عنه بالعبارات الآتية : "إن اليهودي موسى واحد من أهلنا، وليس له أن يخاف من أي كان، ولن يحل به مكروه، وإن من يحمل يده في وجهه كمن يصيب أحداق عيوننا ".

كما تشير فتوى أخرى تعود إلى نفس الفترة، وتتحدث عن نفس الموضوع (وضع العكنوت)، إلى وجود مساكن يهودية في المناطق الشمالية بالمغرب، في بني سناسن وقُدارا وفي الجبل، وكان سكان هذه الجهات يتوجهون إلى تلمسان ومليلية وتطوان للتقاضي في ما يحدث بينهم من خلافات أمام محاكم الأحبار .

ويحمل لنا نص متأخر العهد، مؤرخ بنهاية 1842، وهو مكتوب بعامية لا تختلف أدنى اختلاف عن اللهجة العربية الحالية التي يتحدث بها يهود جنوب المغرب، شهادة موسى بن يوسف وموسى بن مردخاي، التي تثبت الموت الفاجع لمسعود بن مناحم ريبيو، أثناء رحلة كان يقوم بها في المغرب الشرقي، عند بني وراين، إذ قضت القافلة التي كان يسافر فيها

المعني بسبب العطش. ونقل نبأ الحادثة مسلمان نجيا من الموت. ورواه للشاهدين المذكورين. وبناء على أقوالهما سمح لأرملة الفقيد بالزواج ثانية.

توزيع الطوائف اليهودية جغرافيا

وفرت لنا دراسة قضية الهجرات اليهودية داخل المملكة الشريفة. بعض المعلومات عن التوزيع الجغرافي للملاحات (مفرد ملاح) داخل الحدود المغربية. ويظهر من هذه المعلومات. أنه كان هناك تمازج بين المسيحية واليهودية والوثنية في مغرب ما قبل الإسلام. إذ يحكي أخباريو القرن الرابع عشر. أن إدريس الأول وجد أمامه. عندما فتح المغرب. قبائل مسيحية ويهودية ووثنية. وقد ترك إدريس الثاني اليهود يستقرون داخل أسوار فاس القديم. وظلوا هناك إلى أن أسس المرينيون الملاح الحالي. ملاح فاس الجديد. ويقع في المنطقة الواقعة بين القرويين وباب الكيزة. تلك التي مازالت إلى اليوم. تسمى "فُنْدق ليهودي". وكان بين يهود فاس أشهر علماء وأدباء القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر. مثل الربي إسحاق الفاسي. المزداد بقلعة بني حماد سنة 1013. و كان على رأس "يشفه" (مدرسة) في فاس .وما زال بالمدينة القديمة منزل نصف متهدم يكلل حافتَه العليا ثلاثة عشر ناقوسا نحاسيا. ويقال إنه كان سَكَن ابن ميمون مدة إقامته بهذه المدينة .

وكانت مدينة مراكش عندما أسسها يوسف بن تاشفين المرابطي سنة 1062 . ممنوعة على اليهود الذين كانوا يسكنون مدينة أغمات. الواقعة في الجنوب الشرقي على بعد نحو 40 كلم من مراكش. وكان سمح لهم بقضاء اليوم بمراكش للحصول على ما به تقوم تجارتهم .

وفي أغمات هذه القريبة من مراكش، كتب زكرياء بن يهودا الأغماتي، سنة 1190، شرحا لفصول من التلمود وهي : "بابا قاما" "بابا مصيعا" "بابا بترا".

ودعا السلطان أحمد المنصور الذهبي السعدي (1578 - 1603)، يهود أغمات للإقامة في مراكش. ويظهر أن تاريخ تأسيس الملاح الحالي المجاور لقصر السلطان، قصر البديع، يعود إلى تلك الفترة. وقد ظلت عاصمة الجنوب طيلة قرون، منارا تشع منه العلوم اليهودية لتمتد إلى مناطق سوس والأطلس ومدن ساحل الجنوب الأطلنتكي .

ومن نافلة القول أن نذكر أنه كان على عهد العصر الذهبي الأندلسي، حيث كانت الأندلس والمغرب يرتبطان ارتباطا وثيقا، مدارس عليا (يشفوت)، رعتها الطوائف المغربية في فاس وسلا وسجلماسة ودرعة وغيرها، وكان على رأسها أعلام ذاع صيتهم في العالم اليهودي إذ ذاك.

وعاشت بسجلماسة، التي أسسها بنو واصل في القرن التاسع، طائفة يهودية كبرى. وكانت هذه المدينة مشهورة بتجارتها مع بلدان ساحل النيجر ووسط إفريقيا ومع مصر والهند. وكان لليهود فيها النصيب الأوفر في المبادلات التجارية ونقل الأموال. وكان أحبارها على اتصال دائم مع إخوانهم بالقيروان وبغداد. ومن الذين درسوا في بغداد طالب من سجلماسة، كان يقرأ في" يشفت" صموئيل بن علي، كما كان الربي سلمون بن يهودا گؤون الفاسي، رأس " يشفه" بفلسطين ما بين 1025 - 1051.(1)

1-أنظر في موضوع الاقتصاد والفكر اليهودي في سجلماسة في القرون XIII-X .
Nehemya Levtzion et Yosef Tobi, (The Jews of Sijilmassa and the Sahara Trade) et (The Siddur (Book of Prayers) of Rabbi Shelomo Ben Nathan Sijilmassa, a Preliminary Study: (hébreu), dans Communautés juives des marges sahariennes du Maghreb, édité par Michel Abitbol, Institut Ben Tzvi, Jérusalem 1982, respectivement p .253-263 et 407-426;
أنظر كذلك Haïm Zafrani, Kabbale ...p .176-177

وكان بوادي درعة سلسلة من القرى سكنتها مجموعات يهودية هامة منذ تاريخ طويل. ومن يهود هذه كتب شخص يدعى دوناش. إلى الراب الفاسي (إسحاق الفاسي) يستفتيه في أمور شرعية. كما أن ابن ميمون في"رسالة إلى يهود اليمن " أورد أخبارا أفادت إفادات مهمة عن موسى الدرعي المشهور. الذي تنبأ بالخلص المسيح. وفي الرسالة أيضا ذكر أسماء أعيان درعيين استقروا بالفسطاط بمصر. وذكر ياقوت الحموي في معجمه (أوائل القرن الثالث عشر). أن معظم تجار درعة كانوا يهودا.

وهناك وثائق أخرى مختلفة جديرة بأن تزيد الموضوع الكثير من الوضوح. إذ وضع يعقوب ابنصور. الفقيه الذي عاش في نهاية القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر. كتابه الفقهي المعنون بـ "عت سوفر" (قلم الكاتب). وضمنه قائمة ربية مؤرخة بـ 1728. أُحصي فيها 26 موقعا مع ذكر الأنهار أو المياه الجارية في كل من هذه الأماكن. و كان ذكر هذه ضروريا في تحرير عقود الزواج (كتوبوت) أو الطلاق(گيت).

واعتمد لوي ماسينيون Massignon كثيرا هذا المسرد. في مؤلفه Nomenclature des mellahs au temps de Léon l'Africain et Marmol. وذلك عندما استعمل النتائج التي توصل إليها Slousch (1). أو عندما كان يرجع إلى Tableau méthodique des Mellahs لـ Charles de Foucauld. وأعاد H. Z. Hirschberg أيضا النظر في هذه القائمة. في مؤلفه" تاريخ يهود إفريقيا الشمالية". فنجح في حل رموز كثير من معتاصها والتحقق منه. بالإضافة إلى ذلك. لمح إلى النقص الذي يشوبها والخلل الذي يعتريها. وهذا عمل وضع بين يدي الباحثين وثيقة أخرى يمكن الاعتماد عليها. (أنظر الخريطة والقائمة).

1-Archives Marocaines VI. 1905/6

وهذه أسماء المواقع التي أقام بها اليهود. مرتبة بالشكل الذي جاءت به في مسرد : 1728 فاس. مراكش. تلمسان. أكمري (عين أكمري. وزان). ترودانت. سلا. تافيلالت. غرسلوين غريس. دمنات. آيت عتاب. أزاغي. القصر الكبير. تفزا (إفزا). دبدو. آيت كفرا. مكناس. أمزمين. وجدة. تازة. بوتات (أوتات لحدج). بويحيا. بني عياط (بني عياد). تطوان. صفرو. أزرو.

والمعلومات الواردة في عديد من الكُتيبات والموجزات. تكمل مسرد الأماكن التي أقام بها اليهود في المغرب. بل الأكثر أهمية. هو ما يمكن استنباطه من البحث المنهجي والنظر في الكتابات الربية المغربية التي ما زالت بين أيدينا. وما نحصل عليه بالتقصي الدقيق في الوثائق الشرعية المتوفرة. خصوصا "التقنوت" و"الرسبونسا" التي تعكس صورة صادقة لحياة الأفراد والجماعات يوما بيوم. والتي تعكس أيضا ظروف معيشة هؤلاء وصدى تطلعاتهم وتقلبات أحوالهم.في أي مكان من الأماكن التي كانوا يترددون عليها.(1)

وهناك مصدر آخر للمعلومات. لا مجال للشك في أهميته. وكثيرا ما يهمل. إنه مقدمات المؤلفات وشهادات العلماء التي تنوه بمؤلف من المؤلفات وتجيز نشره (سمخوت). ويتجلى هذا المصدر أيضا وبالأساس.في قوائم أسماء الأشخاص والطوائف ممن يسهم في تمويل طبع مؤلف من المؤلفات (المساندون). ويحرص معظم المؤلفين على تدوين هذه القوائم بكثير من العناية. فيذكرون أسماء المتبرعين في مكان مكان. وكان هؤلاء المتبرعون أيضا يحرصون كل الحرص على تسجيل أسمائهم في هذا

---

1 - أنظر في مفهوم الملاح مقالنا في l'Encyclopédie de l'Islam. Nouvelle édition. fasc. 103-104(VI. 278/9). حول "الملاح". وأخذنا فيه بعين الاعتبار آخر ما توصلت إليه البحوث تتميما لمقالة G.Colin الذي نشرها في الطبعة السابقة .

النوع من اللوائح. ولم يكن هذا التسجيل عبثا. وإنما كان باعثه نوع من الافتتان أو لحاجة دينية أو لغير ذلك. إذا كان الشغل الشاغل لهؤلاء. أن يروا أسماءهم بارزة في حاشية كتاب عبري. يعتبر دوما ذا قداسة. لينالوا به حظهم من البركة والتقديس اللذين يرتبطان في هذه الأوساط. بأي عمل مكتوب ربي. يعتقدون أنه أوحي به إلى صاحبه من السماء.

وقد قمنا بجرد لعدد كبير من الوثائق التي تدخل تحت هذا الصنف في أبحاثنا. وهي وثائق نستطيع أن نستخرج منها معلومات غزيرة عن التوزيع الجغرافي للمجموعات اليهودية داخل حدود المغرب. وعلى تخومه الجزائرية الصحراوية.

ونكتفي هنا بعرض عيّنات نستطيع بواسطتها التعرف على الانتشار الهائل (للملاح). خصوصا. ذلك الذي يقع في مناطق لم يُعرف عنها الكثير. مثل أودية الأطلس والمغرب الشرقي. والمناطق المتاخمة للصحراء. حيث اختفت الآن أو هاجرت إلى إسرائيل أو تشتت في أماكن أخرى. مجموعات يهودية كانت تعيش هنا منذ قرون. إن لم يكن منذ ألف أو ألفي سنة .

و نستخرج من مقدمة أحد مؤلفات المواعظ (مصنف مواعظ لكل المناسبات). وعنوانه "يوسف حين"(فضل يوسف) الذي طبع في تونس سنة 1915. لمؤلفه يوسف بن داود ناحامياس. وهو ربي نال احتراما كبيرا عند يهود مراكش والجنوب الغربي. قائمةً نكتفي فيها بذكر أسماء الطوائف التي ساهمت في طبع الكتاب دون ذكر الأفراد. والطوائف هي : تلوات. مزكيتا. تمنكولت. أكيدز (أكدز). واسليم. دادس / تدغا (تودغا). فركلا. تافيلالت. الكيرفا. كي - اكلان. أولاد حسين. مزكيدا.

إرارا، بوزملّ، كلاكلا، تزويني لمعضيض، زريكات، قصر السوق، تعلالين، كرما (كورما)، تولال، تيت نعالي، أوتات آيت زديك، القصيبا، بودنيب، بوعنان، بسار (كولومب بشار)، بني ونيف،(أنيف)، عين الصفرا، المسري (المشرع)، بوروتا، دمنات، بني ملال، قصيبة تادلة، بوزعد (أبو الجعد)، مزاب، زتات (سطات).

ويسرد أيضا شلوم بن نسيم أبيصرور، وهو معاصر لسابقه، وأصله من أقا، في مؤلفه الذي يضم مراثي وعظية وأخبارا مستقاة من التوراة، المعنون بـ"نتبوت شلوم" (سبل السلام)، المطبوع بالبيضاء سنة 1953، قائمةً بأسماء مساهمين كانوا يسكنون الأماكن الآتية: درعة، تمسلا، اخلوف، لعروميات، بني صبيح، امزرو، ترودانت، أقا (يشير المؤلف إلى أنها مسقط رأسه)، أوفران، تزنيت، اگدير ... وغيرها.

وتجدر الإشارة إلى أنه من طبيعة مكونات أسماء المواقع، أن تتعرض لكثير من التغيير، ومسألة التحقق منها محفوفة بكثير من الصعوبات، لاختلاف خطوط المؤلفين، وانعدام الشكل، وانعدام الحرف المقابل اللازم لكتابة الحروف العربية بالخط العبري، أما التعرف على المواقع المذكورة في قوائمنا، فهو أسهل نسبيا، إذ يمكن أن نعثر على هذه الأسماء في خرائط مشلان العادية (المغرب 170-171)، وعلى خرائط المغرب 200000، وفي مسرد المواقع المغربية الألف بائي الذي أصدرته مصلحة الشغل بالمغرب سنة.1936، كما توجد أيضا مدونات مسالك القوافل التي خلفها لنا بعض من اهتم بذلك، مثل وصف الطريق من فاس إلى تافيلالت المسمى "طريق السلطان".

مملكة تمكروت اليهودية

روى لنا حبر طاعن في السن، هاجر من جنوب المغرب، ممن استخبرناهم، كثيرا من الأخبار المتعلقة بطوائف بني صبيح التي ينتمي إليها محدثنا، وهي: كتامة وكلاوة وتافنوت وتمكروت. وحدثنا الربي يعقوب بن حمو، الذي استخبرناه أيضا، قائلا إن تمكروت كانت بلاد "سلطان ليهود" شموئل بن يوسف الذي قتل في معركة مع المسلمين في أحد أيام تاسع آب. ويُذَكرنا في هذا الصدد بأسطورة تعرف "بقصة إبراهيم البردعي". وقد اشتهرت قصة "المملكة اليهودية" حتى عند المسلمين الذين تناقلوا أخبارها تواترا. وهناك صغيرة مهمة تستحق الذكر، إذ أضاف محدثي قائلا : كان يوم الموسم (السوق الاسبوعي) بهذه المنطقة، يصادف يوم السبت، وكأن ذلك اختير اختيارا حتى يمنع اليهود من نشاطهم الاعتيادي، بل لمنعهم من التنقل في ذلك اليوم. وقد أورد هذا الخبرَ عديد من الذين تحدثوا عن هذه الفترة، مثل J.M. Toledano و P. Flamand وغيرهما .

وتُحكى روايات أخرى عن مملكات لليهود في تامنتيت وتامبوكتو وكذا مملكة ابن مشعل .كما تحكى بعض الأساطير عن أماكن وجود قبائل [أسباط] بني إسرائيل الضائعة في تخوم الصحراء وفي إيليغ التي تقع في جنوب المغرب .(1)

أسماء الأعلام اليهودية المغربية

أسماء وألقاب يهود الغرب الإسلامي

تعكس أسماء وألقاب يهود الغرب الإسلامي حقيقة المكان والزمان اللذين كانا مستقرا لهؤلاء، فهذه تُذكِّر بمواطن إقامتهم وتاريخهم وأصولهم القريبة والبعيدة، وتشهد على تجذرهم العميق في

1- أنظر من بين الذين أشاروا إلى هذا H.Z. Hirschberg, op. cit., vol. II : p. 27-29.

أرض المغرب. وعلى حياة التوافق والانسجام بين سكان اختلفت أصولهم وأعرافهم ولغاتهم ومشاغلهم وهمومهم وتكوينهم الذهني والاجتماعي - الثقافي ومنظورهم العقلي ورؤاهم لطبيعة هذا البلد.

إن الأسماء تتحدث عن مصير الجماعات وحياة الفرد العادية وعلاقاته مع إخوانه في الدين ومع الطوائف الدينية الأخرى. كما تتحدث أيضا عن هجرات اليهود وتنقلاتهم القريبة والبعيدة. وترسم كذلك مسالك تنقلاتهم الكبرى داخل مجتمعات محيط البحر الأبيض المتوسط وغيرها .

قوة الاسم وسحره

يحتل اسم الفرد مكانة رئيسية في الحياة اليهودية في المغرب. فهو مدرج في لفائف نسب العائلات الكبرى. وفي دفاتر أحبار الختان أو ومن يتطوع لفعل ذلك. حيث تثبت أسماء الأطفال الذكور الذين ختنوا. وتثبت الأسماء أيضا في القوائم التي تحررها السلطات الربية عند كتابة عقد زواج أو طلاق. وفي السجلات التي تسجل فيها أسماء "الشهداء" والذين وافاهم الأجل بشكل طبيعي أو بسبب حادثة ما. وغير ذلك.

وقد وضعت أنا نفسي قوائم بأسماء أعلام. أثناء مراجعاتي للوثائق القانونية وكتابات أخرى. مما كنت أراجعه إعدادا لدراساتي وبحوثي المتعلقة بالجوانب الفكرية ليهود الغرب الإسلامي. وخصوصا وثائق "التقنوت" (مراسيم الأحبار الجماعية) والرسبونسا (فتاوى ومراسيم المحاكم الربية). وتعد أيضا أسماء مُوَقعي هذه الوثائق أو مراسليهم أو أسماء المتنازعين أو الشهود أو أسماء أولئك الذين لهم علاقات بالمحاكم. والذين جاء ذكرهم عرضا في هذه النصوص. مصدرا جد ثمين

للمعلومات الخاصة بأصول وطريقة تكوين وتركيب الأسماء والكُنَى والألقاب والأنباز اليهودية، التي اختفت منها سلسلة كاملة حاليا، واتخذت منها أسماء أخرى صيغا أجنبية .

وهكذا تتجلى في الوثائق التي تزخر بالأسماء الأعلام، ومنها ما هو معروف الآن ومنها ما لم ينشر بعد .واستطعنا الإطلاع عليه، الأهميةُ القصوى التي يوليها اليهودي المغربي للاسم الذي يحمله، وللدور الرئيسي الذي يلعبه هذا الاسم في حياته وفي مهامه الدينية والاجتماعية/الاقتصادية التي ينهض بها.

ويحتمل أن يكون الشعور بقوة "الاسم" قد أتى مما لاسم الجلالة من قوة وسلطان، وكذلك من سيل الألفاظ الدائرة في موضوع المعارف المتعلقة بالملائكة والجن، كما جاء ذلك في التقاليد الربية والأدبيات الصوفية والقبالية، وتستعمل القبالة التطبيقية، وتقترب هذه من العلوم السحرية، أسماء الملائكة وتراكيبها وتقاليبها الدقيقة والمختلفة، في كتابة الأدعية والاحجبة والتعاويذ، للتوقي من الشر والعين الشريرة، وإبعاد الخطر الداهم، ولجلب عناية العوالم الأخرى، وعناية أصحاب السلطان، في هذه الأرض، ولا يتردد الشخص في الاستنجاد بالأسماء النجسة، أسماء كائنات العالم السفلي، عالم الظلمات وعالم الشياطين، تلك التي يزعم المشتغلون بهذا الأمر، أنها أصبحت خاضعة لقواهم، حيث يتواصلون معها كلما رددوا أقوالا غريبة خصت لهذا الفعل.

ويعتبر الاسم عنصرا أساسيا في تكوين هوية الإنسان، ورسم مكوناته الحرفية المختلفة رسما صحيحا ودقيقا (الاسم والكنية واللقب) أمر لابد منه في المناسبات الكبرى في حياة الفرد، مثل الولادة،

أو بالأحرى عند الختان. وفي الزواج والطلاق. أو في حالة المرض الخطير أو في لحظات الوفاة.

ومن الأكيد أن الطفل الذكر يدخل عهد إبراهيم. (عهد الختان). يوم ختن الغرلة مبدأ. غير أنه يدخله في أبهة الاحتفال عندما يسمى اسمه الذي سيرافقه طوال حياته. ويُختار للبنت أيضا اسم من الأسماء. غير أن ذلك يتم في حفل متواضع. إن لم نقل في حفل لا ضرورة له. كما كانوا يعتقدون. ولاختيار الاسم قواعد تختلف تبعا للظروف والاحتفاء بالمناسبات التاريخية أو المحلية. وتبعا لأصول الطائفة التي ينتسب إليها المسمى. فالتقاليد المتبعة عند اليهود البلديين تختلف عن تلك التي يحرص عليها كل الحرص اليهود "الميكوراشيم" (المهجرين) ممن تعود أصولهم إلى الأندلس والبرتغال.

ويُدرج اسم العروسين واسما أبويهما بالتتابع. في عقد الزواج (الكتوبة). وتُدرَج بعض العائلات في العقد شجرةَ نسب العشيرة والقبيلة إلى أن تبلغ اللقب الأعلى الأكثر شهرة أو الأكثر احتراما. مما له امتداد في القرون السابقة. عند بعض العائلات من ذوي النسب والحسب المعروفة بـ "ميوحصيم" (ذوي النسب العريق). ولهذا المصطلح معنى العراقة ونبل المحتد. كما يتضمن الإشارة إلى المرجعية الأرستقراطية لبعض العائلات ذات الحسب والنسب والفضيلة والعلم. وهي عادة العائلات الكبرى.

ويتميز تحرير عقد طلاق المرأة (الـ"كَتُّ") بكثير من الحيطة والحرص. سواء تعلق الأمر بجوانبه المادية أو نص تحريره. وخصوصا في كتابة أسماء الأشخاص والأماكن. كتابة سليمة دقيقة. ولقد سبق أن رأينا الأهمية التاريخية والموقعية التي تستفاد من وثيقة مثل هذه. حيث يسجل إجباريا. اسم المدينة واسم مجرى الماء الأقرب إليها.

ويلجأ المرء إلى تغيير الاسم في حالات المرض الخطير. وذلك حسب طقوس جد معينة.

ولنتذكر أيضا البعد الصوفي الذي تكتسيه هذه العملية. في الآداب التوراتية. وما تُوصل إليه من قدرة على المكاشفة والارتقاء الروحي الذي يصير للمعني. بل السعي إلى الحلول كما في حالة الآباء الأوائل: إبراهيم ويعقوب. وذلك بإدخال حرف "الهاء" الموجود في رسم (اسم الله الجليل.الله) في اسم الأول : أبرام الذي يصير "أبرهام". وبتغيير اسم الثاني ["يعقوب"]الذي يعني الأخير فيصبح "إسرائيل". ذلك أن اسم "يعقوب" يفيد أيضا العَقِب والمكيدة. في حين أن اسم "إسرائيل" يعني القوة والنبل المكتسبين باقتران اسم "إِسْرَ" بـ "إِلْ"= الله.

وتتجلى الوظيفة الدينية للاسم في لحظة الوفاة. ويمتد تأثيرها إلى عالم ما بعد الموت. ويبقى اسم المؤمن مرتبطا به حتى في "الدار الأخرى". ومن هنا جاءت أهمية هذا القسم من الشعائر المتعلقة باسم المتوفى. وما يرافقها من طقوس "هشكبه" (صلاة على روح الموتى) أثناء الدفن. ومن هنا جاءت أيضا أهمية قراءة المقاطع المبدوءة بحروف اسم المتوفى. وحروف اسم أمه في مزمور داود التاسع عشر ومائة. المرتب ترتيبا هجائيا. وهي قراءة تُحَقق. حسب التقاليد. هوية الإنسان الدينية.

وأخيرا. فإن اليهودي المغربي. كباقي إخوانه. يعتقد أن للاسم الذي يحمله تأثيرا قويا في مصيره وفي ما يفعله. في هذا العالم وفي العالم الآخر. وعلى أي. فمرجعية هذا الاعتقاد تتمثل في بعض تعاليم التلمود (بركوت 7 ب).

الاسم : أشكاله وبنياته وتاريخه وهويته

يُظهر تحليل أسماء الأعلام اليهودية المغربية، منذ اللحظة الأولى، تنوعا ملحوظا في اللغات، حسب تواترها وترددها، كاللهجات العربية (ع) والبربرية (ب) واللهجات الإسبانية (إ) والعبرية (ع) والآرامية (آرا)،وكذلك الإغريقية واللاتينية والفينيقية، مع مختلف التركيبات والتغييرات التي تلحق هذه وتلك أو من هذه إلى تلك. ويعرف بواسطة الأسماء أيضا، وبنفس الدرجة، تنوع أصول اليهود المغاربة. والأسماء كتاب مفتوح يمكّن من تتبع مراحل استقرار اليهود المختلفة في البلاد منذ القدم وإلى يومنا هذا، ومن تاريخهم وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية. ومنها نعرف سبل امتداد أرومتهم في أرض الأمازيغ، عندما وفد الفينيقيون قصد إقامة مستوطناتهم على شواطئ هذا الصقع، أو عندما احتل هذه الرومان طوال قرون عديدة. ومنها نعرف كيف طبع الفتح العربي حياة يهود المغرب وثقافتهم ولغتهم بعمق، دون أن يحد إطلاقا من تعاطفهم الوقاد مع جُماع اليهودية أو يضعف من تضامنهم الروحي مع مدارس التلمود بفلسطين والعراق. لقد عرف إذ ذاك عالم البحر الأبيض المتوسط، تحت راية الإسلام، وطوال سبعة قرون، وحدة حضارية ولغوية سهلت التواصل بين الشرق والغرب، وأخصبت مجال تبادل الأفكار والممتلكات، ونوعت ونظمت تنقلات الساكنة.

وتتعرض الأسماء الأعلام اليهودية، بما لها من غنى يأتيها من التركيبة العرقية والمواقعية، لحيز جغرافي – سياسي شاسع، وللسكان الذين كانوا يعيشون في هذا الحيز، ولعديد من الحواضر والبوادي في الغرب والشرق الإسلاميين وإسبانيا، وخصوصا في المغرب، بل في باقي القارة الأوروبية .

وإذا استفسرنا الأسماء أيضا، فإنها تضع أمام أعيننا معينا من الأخبار المتعلقة بالوظائف العامة والحرف والفنون والمهن المختلفة التي اشتغل بها اليهود المغاربة، خلال فترات مختلفة من تاريخهم، كما تفيدنا أيضا بكثير من المعارف واللطائف الاجتماعية اللسانية، مثل الكنية واللقب والنعوت المضحكة وأسماء الأنباز، وهي أسماء أصبحت هي نفسها ألقابا تذكر بالفضائل والعيوب والعلامات الجسمية الخاصة، وكذلك بالعاهات، كما تذكر بالرفعة والغنى والقوة والمنعة، أو الظواهر الطبيعية (مثل السماء والضوء وغيرهما) أو الحيوان أو النبات أو الملابس والحلي أو الأحجار الكريمة والمعادن أو الموسيقى والأعداد (أسماء الأعداد وغيرها).

ويجدر بنا أن نلاحظ ملاحظة حول دلائل النسب، وأخرى في موضوع أسماء كوهن ولاوي، وما يتألف منهما من أسماء أقل مكانة .

وغالبا ما يكون الاسم مسبوقا بلفظة الانتساب بالعبرية أو العربية، بن / ابن، أو ما يقابلها بالأمازيغية "أُو" و "وَ"، والآرامية "بَرْ"، وكلها تعني ابن، مثل: أوحيون (أو هيون) بن حيون (بنايون) أوسعدن (أوسعدون)، بن سعدون (بن سدون)، أو يوسف (بن يوسف/بريوسف).

واستعمل أيضا لفظ النسب بلغتين مختلفتين في الاسم الواحد مثل: أبراهام بن دفد أو يوسف، حييم بر يعقوب بن حيون.

وقد يكون الاسم مسبوقا بأداة التعظيم الآرامية : "مَر" (تنطقها الطائفة المغربية مُر)، من ذلك الألقاب: مَر يوسف (مُر يوسف) مر علي (مُرَلي، ومُريلي) وغيرها .

ويعني لفظ الأبوة العبري العربي : أبي / أبو / بو : أب فلان، المؤلف وصاحب الشيء الخ ... وجاء أيضا أبيسرور، أبو درهم بوهدن وغيرها.

ويجب على آل"الكوهن". وهم نسل الحبر الأكبر أهرون، وسدنة الهيكل الأوائل، أن يحافظوا على نقاء طبقتهم وأن لا يدنسوها بالزواج مع غيرهم. وإذا حدث وخرقت هذه القواعد المنصوص عليها في الشريعة التوراتية والتقاليد. (سفر اللاويين 21، وسفر الأعداد، الإصحاح 6 آيه 22 .27، والإصحاح 18 الآية 16-15 وغيرها)، فإن على الكوهن أن يتنازل عن لقبه الشريف ويتلقب بلقب آخر. ومن المعروف في المغرب، أن ألقاب البطان وكسوس، هي أسماء لعائلات كانت تحمل اسم كوهن. وقد يحدث أن يرفق لقب كوهن بألقاب أخرى زيادة في تعريف حامله. وهكذا نجد لقب كوهن الصقلي وكوهن صُلال وكوهن دُألْكَنَ وكوهن الخلاص وغيرها. ويحدث نفس الشيء للقب "لِوِي". فنجد لوي – سوسان، لفي بن يولي الخ.

ويبقى علينا، لتبيان ظاهرة أسماء الأعلام اليهودية المغربية، أن نورد مجموعة مختارة من أسماء الأشخاص والأعلام، اضطررنا إلى انتقائها اضطرارا، خاصة من إحدى القوائم المذكورة أعلاه، وهي التي حررها يعقوب أبنصور الفاسي (1673-1753)،ذو الشهرة والمرجعية الربية. وقد نضيف إليها، عند الاضطرار، بعض الشروح المختصرة، ونكتب أحيانا أخرى النُّطقَ المعاصر. وهذه مجموعة من الأسماء والألقاب ندرجها في الملحق الآتي :

الألقاب :

عبو (صيغة أمازيغية عربية لتصغير اسم عبد الله (عُبَديه)، أبنصور (نسبة إلى موقع: فينقيا، إسبانيا)، أبِحْصِرَ (صاحب الحصير، كنية

أصبحت لقبا. وكان الاسم الأصلي لهذه العائلة الفيلالي. نسبة إلى تافلالت). أبيقصيص/ابيكسيس (من العربية:القس. الشيخ). أبيصرور (بوصَرَّة ؟ حامل الرزم). أبوهَب/أبو واب/(عربية : الواهب). أبو درهم (عربية : درهم). أبوربيع (عربية. فصل الربيع). أبو زَكَلُ/بوزكل(عربية-أمازيغية : بوعصا). الدهان/دهان (عربية: الدلاك). الدرعي/إدري /(نسبة إلى درعة). العلوف/اللوف/(عربية. العلاف). العلوش/ألوش (أمازيغية-عربية: الحمَل). العنقري/لنكري /(نسبة إلى (Lancara. العسري/لسري (عربية. الأعسر). البلنسي/فلنسي (نسبة إلى بلسية). البرهنس/برنس/(عرق البرانس). الباز/إلباز/(عربية). الفاسي (نسبة إلى فاس). ألغرابلي/إلغرابلي/(عربية. الغربال). الغريسي (نسبة إلى غريس). الحداد (عربية). بن الحاج/الحدج /(عربية). الكروجي/كروتشي (نسبة. إسبانيا). الكسلاسي (نسبة . إسبانيا؟) الخَرْساني/الخُرَساني(نسبة خراسان). لخريف/كريف/(عربية). المدادسي/الدادسي (نسبة إلى دادس). النقار (عربية اسم صانع. نقاش). علال/بن ألال تصغير الاسم العربي عبد الله والعبري عبديه). المديوني/مديني (نسبة قبيلة مديونة). القايم/الكيم (عربية. الموجود. الثائر). أمرلو (إسبانيا أصفر). أمغار/أمكار (أمازيغية. الشيخ. الرئيس). أملال/ملول (أمازيغية. أبيض). أمَّار/أمر (عربية. مُعَمَّر. بستاني). أمزيك/بنموزيك (بربرية عرقية. ابن البربري).أنهري (عبرية النور). النظام/ندم (عربية جواهري. ناظم الاحجار). النقاب/نكب (عربية مفتش. مراقب). النجار/نجار/اندجار (عربية). عقنين/واعقنين/اكنين (بربرية مشتقة من العبرية يعقوب). أرلّو/أرويو (اسبانيا من النهر). أرُومي / رومي (عربية.الأوربي). اشبيلي/اشبيلي (نسبة إلى إشبيليا). الشريقي/شرقي (عربية من الشرق). الصباغ/سباك (عربية). الصياغ (عربية من الصياغة).

الصراف/صراف/بنزرف (عربية)، أسولين (بربرية من الحجر)، أسُردي/سوردي (عربية أمازيغية: الوشاح)، عطية/بن عطية (عربية، الهبة أو نسبة إلى بني عطية)، عطار/بنتار (عربية)، التدغي/تدغي (نسبة تدغا)، أُوداي (بربرية اليهودي)، الزاوي/زاوي (نسبة إلى الزاوية)، الزناتي/زناتي (قبيلة زناتة)، بهلول (بربرية، البسيط، الابله)، برجلون/برشلون (نسبة إلى برسلونا)، بن بروخ/بروخ (عبرية : مبارك)، بروخل/بروجل (عبرية : بركة الله)، بن بنست /بنستي/بن فنست (إسبانيا)، بن دافيد وحيون (عبرية أمازيغية)، بن دافيد أيوسف (عبرية بربرية)، بردكو/فردكو (إسبانيا: الجلاد بيباس (إسبانيا: من الحياة)، بن بدوخ/بدوخ (اسم من الاسماء التوراتية مردخاي، أخذت صيغة بربرية)، بطون (إسبانيا من الحياة)، بنون (بربرية - فينقية)، بطبول/بطبل/ابطبول (عربية: من الطنبور، بورجل/أبي رجل (عربية).

كَبِسّ (إسبانيا، رأس) (من) كستو (إسبانيا اسم مكان)، كركوس (مكان، إسبانيا) دبلا/دفلا، من أفيلا (إسبانيا، مكان)، (ابن) دنان (عبرية-آرامية، القاضي، ديان (عبرية . القاضي) .

فَرَج/فرُجي/فَرجون/فَريجي/فرش (عربية : من السعادة والصحة)، فَحمَ (عربية : فحم)، فرنكو (إسبانيا) ݣباي (عبرية، الجابي)، كَبِزُون (إسبانيا)، كدالي (عبرية)، كنون/بن (مكان، أطلس)، كيكي/بن (مكان . أطلس) حديدا (عربية، شفرة)، حجيز/حدجز (عربية، حاج)، حَجُول/حتشول (مكان . إسبانيا)، حليوا (عربية، عذوبة)، حمو/بن (عربية-بربرية، قبيلة بالأطلس)، حمرون/بن (عربية، الحمرة، الاحمرار)، حرار/الحرار (عربية، صناعة الحرير)، حروش/هروش (عربيةL'âpre . لقب)، حسان/حسين/حسون/بن (عربية، طيبة، جمال، قوة)، حييم/بن

حيـيم/أبنهيم (عبـرية، الحياة)، هروس (عـربية-بربرية، الهرس، الافـتراس، لقب)، حـزان (عبـرية إمام، خـادم بالبيـعة)، إفلح/بن عـربية من الـفلاح)، إفـرح/بن (عبـرية من الورد، الازدهار)، إللوز/بن (مكان، إسـبـانيا، المغـرب)، إطاح/بن (عربية، السقوط ؟)

كَرْسينْت/كرسينتي (موقع، إسبانيا)، خلفون (عربية، خلف، عوض)، كسوس (يهـودية-عربية، من نسل الكوهن،كَسَّر، تضاءل) لبي/بن (عبرية من الأسد)، لحسن/بن (عـربية الأحسن)، لنيادو (إسبـانيا، السمك المملح)، لَرْدُو(مـوقع ،إسبـانيا)، لُيُـومُـبروزو (إسـبانيـا، من الضـوء) ملكا/ملقي/بن (موقع، مـالقه، إسبانيـا)، ممان (مــوقع،إسبانيـا)، منسانو (موقع إسبـانيا ، شجرة تفاح)، مرسيانو (موقع، مورسيـة، إسبانيا)، مركوس/مركو (إسبانيا، قـياس الموزونات)، مـيمـران/ممران (أصل غـير مـعـروف - آراميـة، سيـدنا؟)، مراجي/مـرادجي/مـرَّاش (موقع إسبـانيا)، مـرجي/مركي (عـربية، المرج)، ميـَّرا (موقـع، إسبـانيا)، مُنْسُـون (موقع، إسـبانيـا)، مَنْسُونيكُو (مـوقع ، إسـبـانيـا)، مـورنـو (إسـبـانيـا ، أسـمـر)، مـويَل/بن (مــوقع، إسـبـانيـا)، مْشيـش/ميشّـاش/مسـاس/بن (موقع عربي إسبانيا)

نحميـاس (عبرية-إسبانيا من نحـميا)، نهون (موقع أسبـا)، عبديا (عبرية توراتية)، عليل/بن (تصغير علال وعبد الله)

بَرْبِنْتي (إسبانيا)، بِّرص/برتص/برز (عبرية توراتية)، بِّلُو(من الإغريقية فلو/فيلون؟، من الـعبرية يديديه)،بّمـيْنْتَ، (إسبانيـا من الابزار)،بِّينْيا/بِّنْيـير (تصغير الاسم العبري بنحاس)، بُرْتّال (موقع، إسبا البرتغال)

قدوش/كـدوش (عـبرية، مقدس)، قمـحي/قَمْحي/كَمـحي (عربية، قـمح) قنديل/كنديل (عـربيـة)، قَـرو/كرو (إسـبـانيـا، المحبـوب، الغـالي)،

قطن/كطن (عبرية صغير). قُرياط/كريات (موقع مغربي. أو تصغير من العربية لقيرات. كرات)

ربُّوح (عربية. الربح والنجاح). رموخ (بن) (غير معروف ويستعمل بكثرة عند مهجَّري الأندلس). روف/رُوف (عبرية. طبيب. مطبب). روش (بن) عبرية. رأس). روزيليو/روزيو (موقع اندلسي أو من اللون الأحمر).

سبع (من الآرامية. من الرضى. الشبع أو من العربية. السبع). صباح (عربية. الصباح). سمحون/بن (عبرية وعربية. من الفرح والسعادة والسماحة). سنانس(موقع Sens فرنسا). سرفتي (عبرية. فرنسي). سَرْبورتّاس (من الإسبانية. الباب. الأبواب الستة). سسون/بن (عبرية من البهجة). سريرو (إسبانيا الشمع. اسم حرفي). سرويا (عبرية. توراة). شَعَنَان/بن (عبرية. فينيقية. من المساعدة والدعم). شبت/بن سبت (عبرية. السبت). Sharbit شربيت/Charbit (عبرية. سيادة أو من العربية. ضخم وغليظ). شقرون/بن (عربية أشهب. أصهب). شتريت/بنشتريت (غير معروف الأصل). شمعوني/سميوني (عبرية من شمعون). شوشنا/سوسنا/شوشنه (عبرية. سوسن). سْلما/سَلما (عربية. السلام). سُرّيَانُو (موقع إسبانيا). سوتو (موقع إسبانيا). سقلي/سكلي (بلد صقلية أو من العربية خيوط الذهب). سوزن/سوسن/شوشن/بن (عبرية. نسبة إلى مدينة سوس.أوالعربية السوسن)..

طنجي/طنجي (نسبة إلى طنجة). تَبْيِيرو (إسبا اسم حرفة البناء) تَرّكَنو/تركَنو (مكان إسبانيا). طاطا/بن (بربرية. اسم شخص مؤنث). طَوّريل/تَوّوريل (مكان. إسبانيا). تازي/بن (مكان. تازة). تمْسيت/ تمستيت (مكان المغرب الشرقي والجنوبي). طوبي (عبرية. شخصية

توراتيـة)، طوليـدانو(إسبـانيـا، طليطلة)، طوليـلا/ بن (مكان إسـبانيـا)، ترجمان (عربية)، توَاتي/تُوَاتي (مكان توات، جنوب الجزائر)

يحـيا/بن (عـربية-بربرية)، يُولـــي/بن يولي (مكـــان في الأطلس)، يونس/بن (عبرية عربية، حَمَام).

واحنيش (عـربيــة - بربرية، حنش)، وليـد/بن (عـربيــة، أب)، وافـراط (بربرية، موقع).

زقين/بن زقين (عـبـرية - شـيخ، قـديم)، زكرى/بـن (عبـري - عـربي، زكرياء) زمْرا/بـن (عبرية - آرامية، مـوسيقى)، زيري/بن (قبـيلة، المغرب)، زُميرو/بن (مكان، إسبانيا).

الأسماء الشخصية

أكـثر الأسـماء الشـخصـية المسـتعملة في المغـرب مأخـوذة من الكتاب المقدس أو المكتوبات التي كتبـت فيما بعد (المشنا والتلمود)، ولن نذكر منها هنا إلا تلك التي اتخذت صيغة اسم عربي أو أمازيغي.

أسماء الرجال

علال،(أنظر الألقاب) عمور، عمران،(أمرام)، عيوش، (اسم نذري، بربري - عربي، من الحـياة، ويرادف الاسم العبري "حـييم" أو الأسباني "فـيدال"، مثله مـثل صيغـه الأخرى : وَعيش، يحـيا يعيش الخ...)، عـزيز، لعزيز، أزوز (ويذكـــر بالحب والحنـان والقـــوة)، أسَـن، إدار، خلفَ (اسم نـذري (خَلَفَ)، مسـعود، مسـود، مثل سَعـيد وسُعـيد، وكلها أسـماء تذكر بالسـعادة والحظ الحسَن وغيـر ذلك، سليم، سلام وسليمان، وهي مقـابلات للأسماء العبرية سلوم وشلومه وسَلومون الخ ...

وألقاب التصغير أو الألقاب العربية - الأمازيغية المقابلة لألقاب التصغير العبرية التي لاحظنا تكرارها عند يعقوب ابنصور وفي الفتاوى والفتاوى الجماعية والأحكام هي: بخخا، بِدوخ، دوخو، وأوخاخا، وهي بدل مردوشي، مششان، ميسان بدل موشه، موسى، حدان وحدوش بدل يهودا، جوده، بِهِ وبرهُمات بدل أبراهام، إكو بدل يعقوب، بابا لُيو بدل مخلوف، إسان وإسو بدل يوسف وجوزيف، إشْشُو بدل يهوشوع ويوشوع الى غير ذلك.

أسماء النساء

تكتسي أسماء النساء الشخصية أهمية خاصة، وتَكُون وهي مسبوقة بلفظ النسب العربي "بن" أو الأمازيغي"أُو"، أكثر استعمالا في ألقاب يهود "ملاحات" الأطلس وجنوب المغرب، مثل ذلك ابن طاطا وبن كوتا، وُحنا أوحنا وغيرها.

ونشير بالمناسبة إلى أن اسم الشخص يرفق دائما باسم أمه في مراسيم الدفن وكذا في الممارسات السحرية وكتابات الاحجبة والتمائم.وغيرها...

ونذكر هنا الأسماء اللاتينية (لا) والعربية (ع) والبربرية (ب) دون ذكر للأسماء العبرية مثل: البا(لا)، علو(ب)، عاليا (ع ب)، عَيْشَ (ع)، عزيزة (ع)، بونا (لا)، كلارا (لا)، كوتا(غ)، دونا، دونيا (غ)، إسترلا (لا)، فادونيا (لا)، فلورا وفلور وفلوريدا (لا)، فرانس (لا)، فريحا (ع)، كراسيا (لا)، هنو (ع.ب)، هرموزا (لا)، إطو (ب)، جميلا وجمول (ع)، لودسيا / ليتيتيا (غ)، ليندا (لا)، لومبر (لا)، لونا (لا)، مقنين / مكنين ؟، مرزوقا (ع)، مسعودا (ع)، ميرا / أميرَ ومريم (ع)، نحلا (ع)، نجما (ع)، نونا (لا)، أورا أورو ووأورفيدا روفيد (لا)،

بّلوما (لا)، برسيادا (غ)، قمرا (ع)، رحما (ع)، رقوس (؟) [رقية؟]، رينا (لا)، روزا (لا)، سعدا / سأدا (ع)، ست؟ شونا (؟)سول (لا)، سلطان (ع)، طامو (ع، ب)، طاطا (ب)، يمنا (ع)، ياقوت زهرا (ع).

قصة اسم العلم زعفراني (زفراني) وزعفران

لم تذكر كنية زعفراني في القائمة التي وضعها يعقوب أبنصور، ومعلوم أن هذه قائمة غير تامة وبعيدة عن أن تكون شاملة. وذُكر اسم الزعفراني، الذي هو كنيتنا، للمرة الأولى عند M. Steinschneider (1). حيث أورد اسم موسى الزعفراني الذي عاش في النصف الثاني من القرن التاسع، وكان يلقب بـ التفليسي. وُلد التفليسي هذا في بغداد، واستقر في مدينة تفِليس التي كانت إذ ذاك أرمينية، وأنشأ بها مذهب "القرائين". وكانت كثير من عوائل الطوائف اليهودية في حوض البحر الأبيض المتوسط تكنى بهذه الكنية. وحكى لنا أبرهام عُفران(2)، وهو ابن مردخاي الزعفراني الذي كان موثقا ونساخا في موگادور (الصويرة) في الأربعينات والخمسينات، وبعدها في إسرائيل، أن العائلة كانت تكنى أصلا "القايم". ووقع في تاريخ مّا أن كان أطفال العائلة الذكور يموتون بعد أن يولدوا، فأشار أحد فقهاء اليهود، وكان معروفا بالورع وصاحب كرامات، بأن تبلل كسوة المولود في الماء المخلوط بالزعفران ليلة الختان، فانقطع مذ ذاك الوقت هذا المقدور الذي كان يحصد أرواح

1-Jswish Literture, Hildesheim, 1967, p .118, 180 .et S .W .Baron, A Social and Rlig-ious History of the Jews, ... index S .V .Zafrani

2- وعفران هي الصيغة الحالية للقب "زعفراني" في إسرائيل.

الأطفال. وظل هذا التقليد متبعا في العائلة. وهي من العوائل المثقفة المتدينة. فعفران الذي حكى لنا القصة، إطار كبير في بنك القدس، وزوجته تدرس الفيزياء في الجامعة العبرية (وهي بنت الأستاذ المعروف يشعياهو ليبوفيتش). ومع ذلك حافظا على هذا التقليد. فبللا لباس أطفالهما الخمسة بالماء المزعفرن عند الختان. وللعائلة أيضا بنتان.

كان الاسم الشخصي يغير بسبب حالات رأينا نماذج منها سابقا. أما تغيير الألقاب فنادرا ما يقع، إذا لم نقل إنه لا يحدث أبدا.

الطائفة

الأوريون (المجرون)
البلديون (الأصلاء) وغيرهم

تختلف المجموعتان العرقيتان، أصلا ولغة، كما يختلف مستواهما الثقافي، وتختلف طقوسهما، بل الأكثر من ذلك، مفاهيمهما الاجتماعية والأخلاقية. ومع ذلك عاشت المجموعتان جنبا إلى جنب، ولكل منهما مؤسساتهما المتميزة، ثم لم تلبثا أن اندمجتا بفعل الأنشطة الاجتماعية التي تسلم قيادتها العنصر المهجر الأندلسي في نهاية الأمر. والحقيقة أن تأثير هذا العنصر أخذ يزداد تدريجيا، وهيمنت قواه في الميدان الاقتصادي، بل وفي العلوم الربية نفسها.(1)

وقد سمّت النصوص التي بين أيدينا، كلا من المجموعتين، تسمية خاصة: "قهل قدوش المكورشيم" (الجماعة المقدسة المهجرة) و"قهل قدوش هتوشفيم" (الجماعة المقدسة البلدية) .وقد استخدم لفظ "البَلْدِيِّين" مقابل "الروميين" (الأوريون) اسما للمجموعة الثانية، في

1- أنظر

H. Zafrani, Les juifs du Maroc- Etudes de Taqqanot et Responsa, p .103-195

ونضيف أنه لملاحظة الجهد المبذول للحفاظ على التراث الأندلسي الموريسكي لعهد ماقبل النفي واستمرارية تاريخه على أرض المغرب، ولتبيان توازي المجتمعين اليهوديين: ذاك الذي قبل 1492 والقرون الخمسة التي بعده، يليق بنا أن نرجع أيضا إلى النصوص الربية الأندلسية، وإلى الفتاوى الجماعيةوالفردية، مثل فتاوى سلومون بن أدرت وإسحاق الفاسي وإسحاق بن شيشيت وغيرهم، ممن لا نستطيع الوقوف عندهم طويلا هنا. وكان لمشاهيرعلماء الشريعة اليهود المغاربة، على غرار أجدادهم، نفس الانشغالات، ونظروا في الأمور على نفس المذهب، وقضوا بنفس الأحكام الفقهية ونفس قواعد الشريعة العبرية.(أنظر Les juifs du Maroc, p. 40-79)

أحـد الأحـكام الشـرعيـة التي كـتبت بالـلغة العـربيـة، ويعـود تاريخـهـا إلـى1550. (1)

وكـانـت مسـألة العـلاقات بين المهـجرين وإخـوانهـم البلديـين معـقـدة إلى حـد ما، إذ كـان الصـراع فـيمـا بينهـم، يمس طقـوس الأكـل والشـرب والشـعائر، وكـذا قانون الأحـوال الشـخصية والضرائب وغيرها.

وتعـلمنا بعـض الفـتـاوى بوجـود المتـمسـحين من اليـهـود بالمغـرب، خصـوصا فـي فـــاس. كما تخـبرنا أيضا بموقف الطائفة تجاههـم..ورغم أنهـم رجعـوا إلى اليهـودية التقـليدية بعـد خروجـهـم من إسبانيا والبرتغال، بقيت تعترضـهـم كثير من العـراقيل قصـد إبعادهـم عن المناصب العـامة في الطائفـــة .كـمـا حـاول مسـؤولـو الطائفة تجـريدهـم من الامتـيازات

1- أشـار داود كـوركـوس فـي كـتابه
Studies in the History of the Jews of Morocco, Jérusalem,1976,p.175
إلى وجـود مجـمـوعة تطلق عـلى نفسـهـا Flamencos ينضـوي تحـتـها: " يهود المغـرب الذين استقروا قليلا أو كثيرا في هولاندا، مثل أفراد عائلة بلاش " ولم يرد لهم أي ذكر في النصوص التي اطلعنا عليـهـا. وذكر " البَلْديين " و" الرُّومِيِّين " في (مـجمـوع فـتاوى كـرم حمـر 23).
والبلديون ج. بلدي، وهم طبقة ذكرها J. Berque, Al-Yousi, Probléme de culture marocaine au XVIII siècle, Paris, 1958, p. 52 n°7 وأنهم يهـود أسلموا واندمـجـوا قليلا أو كـثيـرا مع بقـية المسلمين. وكـونوا طبـقة اجـتمـاعيـة ظاهرة التـميـّز على الرغم من إخلاصـهـم في عقيدتهم ومكانتهم السامية التي كانت لهم بين النخبة. أنظر في هذا الصدد كوركوس
Studies in the History of the Jews of Morocco, p .21-23, 26-30, 103-104 وكـذا .Roger Le Tourneau,Fès avant le protectorat, p .205, 491 .Louis Massignon, Enquête sur les corporations musulmanes d'artisans et de commerçants au Maroc, Revue du Monde Musulman, vol.LVIII. 1924, et Complément à l'enquête, 1923-24 sur les corporations ...Revue des Etudes Islamiques, II, 1928, p .278-293 .

التي كان خولها لقب كوهن لمن كان منهم يحمله. وقد جاء الاعتراض على شغلهم مناصب ذات أهمية وعلى اندماجهم في الطائفة. خاصة. من إخوانهم البلديين. بينما عضد هم إخوانهم القشتاليون القدامى وساعدوهم . (1)

وتجدر الإشارة إلى أن العائلات ذات الأصل الأندلسي التي كانت تسكن المغرب. أو سكنته قبل تهجير 1492. كانت تعد عائلات بلدية. عكس يهود الأندلس والبرتغال القادمين بعد هذا التاريخ. مثل عائلات بن دنان. بن رموخ وكجين وغيرهم.

1- انظر في موضوع رجوع الذين أسلموا إلى اليهودية وما وجدوه من عون عند الطوائف اليهودية. وخصوصا لدى إخوانهم القشتاليين. Hirschberg. في المرجع المشار إليه. ج.1. ص. 150 .304 .307 .312 .322/3و H .Beinart, Fès, Centre de prosélytisme et de retour de marranes au judaïsme, au XVI siècle, Mémorial Isaac Ben Zvi, Jérusalem,1964, p.321-334و. (عبرية).

H .Beinart Départ de juifs du Maroc en Espagne au début du XVII siècle, livre du jubilée de S.W .Baron; . Jérusalem, 1972, p .15-39 .

(عبرية). ونذكر من بين ما نذكر فتوى سعديا بن دنان (القرن الخامس عشر). التي تتناول هذا الموضوع. ونشرها

H.Z. Edelman في "حمده كنيزة" Königsberg,1856, fol. 13a/16b . كما نذكر قصة Costa de Joao (Costa De Jean) العجيبة. وكوستا هذا يهودي مغربي ولد في سلا. ثم أصبح أنيسا لإمبراطور روسيا. أليير الأكبر. الذي النفى به في هامبورك. واستدعاه إلى القصر بالسانت بترسبورك. حيث أصبح أليير ملكا للساموبدين. وكان دو كوستا الأندلسي البرتغالي الأصول. متضلعا في الآداب الربية. وكان يتكلم إضافة إلى ذلك. عديدا من اللغات الأوروبية. وكانت له مكتبة عظيمة. رويت هذه القصة في مخطوط أكاديمية العلوم بلنين كراد. ضاع المخطوط في حريق 1988. غير أن رشيد كابلنوف. الأستاذ بجامعة موسكو. كان قد نسخ النص. ومنه استقيت هذا الخبر سنة 1990. وكان المخطوط بتوقيع Ribero Sanchez سنة 1740.

أسرى مسيحيون وعبيد سود في منازل اليهود

تعرضت فتوى حررت بفاس، مؤرخة بـ 1603، عَرَضاً ، إلى وجود أسرى مسيحيين في بيوت اليهود بالملاح. وربما كان بعض الأغنياء التجار، يملكون بعضا منهم لخدمتهم، فاستعملوهم إما خدما أو عَمَلة في بعض الأعمال المتخصصة المحترمة، في انتظار فديتهم المحتملة. وتمنع الفتوى المذكورة، بيع أو تقديم المشروبات الكحولية للأغيار. غير أنها تتوقع استثناء فيما يخص الأسرى :"يحل للذي يملك أسيرا غير يهودي اشتراه بماله، أن يقدم له خمرا أو عرقا (ماحيا)، شريطة أن يشربه بحضور مالكه...".

ومعلوم من مصادر أخرى، أن اليهود المغاربة كانوا يملكون عبيدا غير مسلمين، استعملوهم بديلا لتحرير الأسرى المسلمين في الديار المسيحية، أو لفدية الأسرى المسيحيين في الديار الإسلامية .وفي هذه الحالة، كان يُلجأ إلي الصيارفة اليهود الذين كانت لهم علاقات مع أوربا. وكان بعض اليهود في الجنوب المغربي، في الصويرة بالخصوص، حتى بداية هذا القرن، يملكون عبيدا سودا جلهم تقريبا من النساء. وكن يسمين "امباركة" أو "الغالية".في معظم الأحيان. والخادم عادة، هدية من القائد إلى أصدقائه، أو إلى شركائه الأقربين إليه. وكن يعشن على نمط حياة العائلات اللائي يعشن وسطها واللائي أصبحن واحدات من أفرادها، ويمارسن أيضا نفس ممارساتها الدينية. وكن يأثرن تأثيرا حقيقيا في أطفال هذه العائلات. وغالبا ما كانت تحدث بعض المشاكل بسبب المكان الذي يجب أن يدفن فيه بعد موتهن، رغم أن بعضا منهن كن قد تهودن رسميا.

وكان الوضع القانوني لليهود، من أي أصل كانوا، هو ذلك الذي خوله الإسلام لأهل الكتاب الذين صاروا جزءا من الجماعة الإسلامية.

فضمنت لهم به "الحماية" مبدئيا .إنه وضع الذمي، كما جاء مفصلا في كتب الفقه. وقد تمتعت الطوائف اليهودية داخل هذا الإطار، باستقلال ذاتي كامل، إداريا وثقافيا. وبمقتضاه وضعت لها نظامها ومحاكمها وماليتها الخاصة بها، وفي إطاره كذلك ضمنت لتابعيها حقهم في التدين، والرعاية والتعليم، وتطبيق قانون الأحوال الشخصية، بل حقوقهم المشروعة في ما بينهم هم. وكان للطائفة سلطة تنظيمية تلزم أفرادها بكل ما يتعلق بالجوانب الضرائبية والمصالح العامة.

مجلس الطائفة – الأحبار والأعيان

تُستقطب الأرستقراطية.وهي هنا تتداخل مع الطبقة المسيرة، كما في كل مجتمع يهودي، من النخبة المثقفة مبدئيا. وقيمة الشخص الحقيقية ووضعه في السلم الاجتماعي أمور لا تحدد الا بماله من معارف. وهكذا يتعاون في إدارة الطائفة، داخل "مجلس الطائفة" (وعد هقيهيله) أو (المعمد)، الأشخاص المختارون من الطبقات الاجتماعية الآتية :

الأحبار الرسميون (حخميم)، والقضاة (ديانيم)، وهم أصحاب الأمر والنهي في الأمور الشرعية، وسدنة العقيدة والتقاليد. وتعزز سلطاتهم في الظروف الاستثنائية، بطبقة من الثقاة، يعرفون باسم "حخم هِهسكر" وهم أعضاء في زاوية "النساك".

ويمثل الأعيانُ، وقد يكونون هم أيضا من ذوي النباهة وأصحاب الفكر، نوعاً ما أُولغارشيةَ تخدم في غالب الأحوال، المصالح العامة بدراية وإخلاص. وقد يحدث في بعض الأحيان، أن يتغلب هؤلاء بثروتهم وسلطتهم، فيتسلطون على الطائفة ليستفيدوا شخصيا، أو ليُحلُّوا لهم ما لا يحل لغيرهم . وعندها يضطر الأحبار إلى استنكار هذه الأعمال.

وتدل الوثائق التي بين أيدينا، على أن الأعيان كانوا يلقبون ألقابا تشريفية متعددة، تتناسب والدرجات المراتيبية الاجتماعية، أو الوظائف المحددة التي كانوا يشغلونها، مثل:"روشي هَقَهَل" (شيوخ الطائفة)، و"طوبي هَعير" (أخيار المدينة).، وعدد هؤلاء سبعة. "وطوبي بيت هَكْنيست" (أخيار البيعة أو رعاتها). و"نخْبَد هَقْهيلوت" (أشراف الطوائف)، و"يَحيد هَقَهل" "ويحيد سكولَه" (النخبة أو منتخبو المجتمع). ولهذه الطبقة وضع خاص تتمتع به دون غيرها. و"أَنَشي هَسَرَّرَة" (أصحاب الرأي) .ومن هذه الطبقة يختار أعضاء المجلس "أَنَشي مَعْمَد". وهم الذين يقومون، مستعينين ببعض الموظفين، بالوظائف العامة، ويعملون عادة تطوعا. وتتمثل مهامهم في مثل تقدير الضرائب وجمعها، وتمويل وتسيير المؤسسات الإحسانية، ورعاية البيع والمؤسسات الدينية .انهم "البَّرنَسيم" (الممونون)، و"الْكُزْبريم" (أمناء الأموال)، و"بقديم" (الموظفون)، و"المقدميم" (المقدمون)، و"ممونيم" (القائمون بالأعمال الطارئة). ومن الأعيان أيضا، تعين أعلى شخصية في الطائفة، هذه التي كان يطلق عليها في النصوص التي بين أيدينا، قصد الاحترام: "النَّگيد". وأحيانا "االنَّاسي" (الأمير). وهو لقب لا يعني في الحقيقة إلا الاستعمال العربي"شيخ اليهود" (كبيرهم). وسمي أيضا "أمير الأمراء" في مرسوم مؤرخ بـ 1603. غير أن اللقب الذي كان معروفا إلى يومنا هذا هو " شيخ اليهود" أو "الشيخ" فقط.

النكيد (1)

"الرئيس" أو شيخ اليهود أي "النگيد"، هو همزة الوصل بين الطائفة اليهودية من جهة، والسلطات الرسمية للبلاد أو المدينة.

1- أنظر

Les Juifs du Maroc, p .106-109, note 23-32

(السلطان ومـمثلوه ومـوظفـو المخزن). من جـهـة ثانيـة .ويـقلد وظيـفـة الشـرطة والجـابي. وهو المكلـف بتطبـيق قـرارات المجلس "المعـمـد". الذي يرأسه في غالب الأحيان. بكل دقائقها. وهو الذي يسهر أيضا على تنفيذ الأحكام الصادرة عن المحـاكم الربية. وكان للنگيد في غـالب الأحيان. دوره الخطيـر في القـصر الملـكي. فقـد كـان من شـيوخ اليـهـود المسـتشـار الشـخصي للعاهل ورجل الدولة والسـفير ومـقتصد الجيش. وجرت العادة بأن لا يتسنم منصب "النگيد" إلا من حظي بتأييـد الحكومة وموافـقة الأعـيان والأحبـار. ويرتبـط مسلـسـل هاتين الخطوتين بظروف مـا عليـه الوضع عامة. ومهما يكن من أمر. فإن العملية كانت جد معقدة. وأحيانا تطوقهـا الدسائس والمحـسوبيات والرشـاوى. وتردد فـي كـثـير من الأحكام الشرعـية والفـتاوى. صدى الصـراعات التي كـانت تهز الطائفـة بسبب اختـيار "النگيد". ويحـدث أن يثور الأحبـار ضد هذا الأخيـر. إذا حدث واختـير بالرغم من إرادة القهل (الطائفة). أو اتهم بخيانة الواجب أثناء أداء مهمته.

وإذا كـان "الـنگيد" يمتلك سلطة كـبيـرة. وكان يتـمتع بـامتـيازات تضعـه أحيـانا فوق القـانون العام وتجنبـه التقـيد بالإجـراءات التي علـى الجـميع أن يتقـيد بهـا. تبعا لبـعض القرارات الربيـة. فإنه أيضـا كـان أول ضحيـة للتغييـرات السياسيـة والتعسفات النازلة وجـشع الحكام .وقد يتعرض لمواقف لا يحـسد عليها فـي فترات الأزمات الشـديدة. وعليه فإن الطائفة كانت تلتزم كتابة. بتعويض خسـائره المادية التي قد يتعرض لها أثناء تأدية مهامه .

ونضيف إلى المراجع المذكورة فيه دراسة

Joseph Hecker, " La fonction de nagid en Afrique du Nord à la fin du XV siècle"

في مجلة صبون [العبرية] عدد 45 القدس، 1980، ص. 132-121.

وقد جمعنا، في ما يتعلق بهذه الشخصية، لدى الطائفة اليهودية بالمغرب، أخبارا شفوية تثبت كثيرا مما جاء في الوثائق القديمة . من ذلك أنه كان في خدمة "الشيخ شموئل" (صموئل الباز) بالدار البيضاء، في بدء هذا القرن، قبل الحماية الفرنسية، مجموعة من "المخازنية"، كانوا يساعدونه لاستتباب الأمن في الملاح، ولحماية اليهود من هجمات المسلمين .وتأكد أخبارنا أيضا أن هذا "النكيد" كان يستعمل كل ما في وسعه من حيل لمنع اعتناق اليهود الإسلام، أو لرد من أسلم منهم في حينه، وكان هؤلاء يعاملون بدون شفقة ولا رحمة. لقد كان يحمي الأرامل واليتامى، وكان يقف بكل حزم، بجانب الفقراء ضد جشع أرستقراطية المال، التي كانت تبحث عن الاستفادة والامتياز اللامشروع، خصوصا، في موضوع تقسيط الضرائب، وقد استفدنا هذه المعلومات من ارموند الباز وهو حفيد هذا "النكيد" البيضاوي، وأكدت روايات أخرى من مصادر مختلفة هذه المعلومات.

القرارت والأحكام

يُسيِّر "المعمدُ" (المجلس)، الذي يرأسه النكيد عادة، الطائفةَ بواسطة قرارات وأحكام، وتغطي هذه جوانبَ شاسعة من حياة اليهود، ولها صبغة الاستمرارية، وقد تكون مؤقتة، وفي هذه الحالة، تكون صلاحيتها محدودة. وتطلعنا عديد من النصوص، بكثير من التفصيل، على إجراءات اتخاذ وإصدار هذه القرارات والأحكام، وعن كيفية إشاعة مضمونها في أوساط الجمهور (القهل)، وتحدثنا كذلك عن العقوبات التي تتخذ في حق المخالفين لما جاء فيها.

وتحدثنا الفقرة الآتية من الفتوى الجماعية 23، المؤرخة بـ 1550، الو اردة في كتاب "كرم حمر" . وهي بالعربية لأنها وجهت إلى يهود فاس، عن كيفية وضع الفتاوى أو المراسيم كما ياتي :

"وفي ذلك الوقت جررناه [القرار] وكتبناه، وشهد على ذلك (الحخم)(1) = (الحبر) وسبعة من أعيان المدينة، وسجل عند (أمين المال) في (محضر الطائفة).. ولذلك قيدنا شهادتنا هذه (خدمة للطائفة وبأمر منها لتكون حجة، ووقعناها هنا) بعد ما قرأناها على (الجمع) في البيعة، في يوم السبت، في الوقت الذي كان فيه سفر التوراة معروضا.على منبر القُدَّاس، ووافق (الجمع) على ذلك".

وقد تعلن في بعض الأحيان، قرارات "المعمد" جهارا في الطرق العامة، على صوت البوق (شوفر)، مثل فتوى 1716.

وتصبح هذه القرارات والأحكام سارية المفعول بمجرد الإعلان عنها. ويلزم أفراد الطائفة، وأحفادهم بعدهم، بالتقيد بما جاء فيها إلى الأبد، إذا كانت ذات صبغة دائمة، أو لمدة محددة، إذا كانت ذات صبغة مؤقتة. ومن يخالف ما جاء فيها يصبح ملفوظا من الجماعة أو مقاطعا. والمقاطعة سلاح مخيف تتخذه الجماعة ضد الجانحين. لأن هذه المقاطعة، دينيا واجتماعيا، كافية في حد ذاتها، وتترتب عليها عواقب جد وخيمة، ماديا ومعنويا. وترفق هذه المقاطعة بإجراءات أخرى، مثل

1- حررنا النص بالعربية الفصيحة نقلا عن النص العربي الأصلي الدارج. مع العلم أن فيه ألفاظا بالعبرية، وهي التي وضعنا ترجمتها بين قوسين..ونقلنا النص الأصلي من كتاب الأستاذ الزعفراني، " الف سنة من حياة اليهود بالمغرب ". كتاب الأصول.[أي الأصول التي اعتمدها في المؤلَّف المنشور بالفرنسية]. والكتاب مكتوب باللغة العبرية.[طبعة] مخون هيرمن لحقري سفروت، 1986، ص.244-245. (المترجم)

العقوبات الجسمانية، والتطواف، وعقوبة السجن، أو الغرامة المالية، وهي أمور يقوم بتنفيذها "النگيد" بناء على أوامر الأحبار القضاة و"المعمد" (المجلس).

وكان يسمح في بعض الأحيان لـ "نگيد" (شيخ اليهود) بتسليم الجانحين إلى سلطات المخزن، قصد معاقبتهم عقابا قاسيا .

وتستطيع المحكمة الربية، علاوة على ذلك، أن تأمر بطرد، غير المرغوب فيهم من الطائفة، وحرمانهم من دخول الملاح .

ونذكر بالمناسبة قرارا مؤرخا بـ 1730، وفيه يمنع، تحت طائلة المقاطعة، إفشاء سرية المعاملات الخاصة بين اليهود، وفيه إعفاء من ضريبة "السيكا".أي ضريبة بيع الكبد (طعام العامة) [لأنه كان رخيصا]، الذي يحدد ثمنه في مقدار متواضع. ونضيف أنه ليس من الضروري أن يسري العمل بالقرار الذي يصدره المجلس في مكان معين، في أماكن أخرى، وهكذا نُصَّ في قرار صدر سنة 1602 بأن مفعوله القانوني لا يسري به العمل إلا في مدينة فاس وفي محيط لا يتعدى حوالي 10 كلمترات ونصف"

تطبيق العدالة : محاكم وقضاة

ونذكر أنه في إطار الاستقلال الإداري الذي يخوله قانون الحماية (الذمة)، فإن للطوائف اليهودية الحرية في تطبيق العدالة، كما أن لها محاكمها الخاصة التي تمتد صلاحيتُها فتشمل وجوها مختلفة من حياتهم العامة والخاصة، وبذلك فهي تتقيد التقيد الكامل بالقواعد الشرعية والدينية في الأحكام، وفي تطبيق قانون الأحوال الشخصية، ولها إطلاع واسع في كل ما يتعلق بالحقوق العينية، كالعقود

والالتزامات والمنازعات العقارية والتجارية، وفي كل ما يتعلق بمنازعات اليهود فيما بينهم. زيادة على أن السلطات المدنية تحيل المتقاضين عادة على تشريعهم الخاص بهم. وهكذا نجد مثلا المرسوم الآتي يقول :

"بأمر من سيدنا الملك أعز الله قدره، والقاضي (شوفط) أعزه الله . فإنه لا يمكن أن يقضي في أمر اليهود إلا قضاة بني إسرائيل (اليهود) (مرسوم 1603).

ويُعتبر القضاة أعضاء في "المعمد"(المجلس) بصفة تلقائية، فيشاركون في كل القرارات المهمة المتعلقة بالعبادات وتسيير أمور الطائفة.

وينفذ أحكامَ المحاكم الربية أعوانُها الخاصون (مـُخَزْني المحكمة)، أو "النكيد"، أو مساعدو السلطة الروحية المدنيون، وكذا رجال الحكومة .

تنظيم السلطة القضائية

ينظم سـيْرَ القضاء "بيت دين" (دار العدالة) أو المحكمة الربية. حيث يوجد قاض واحد "بيت دين شِلّ يحيدُ" أو عديد من القضاة، وهم عادة ثلاثة ".بيتُ دين شِل شَلوش" وتسمى المحكمة الكبرى "بيت دين كَدُولُ". وقد تتألف المحكمة من أكثر من ذلك .ويرأسها قاض أول يسمى "أب بيت دين" (رأيس المحكمة).

والمحكمة ذات القاضي الواحد، لا تفصل إلا في القضايا البسيطة، ولا تستطيع النظر في القضايا الكبرى، كقضايا الأحوال الشخصية الخطرة .

والمساعدون القضائيون، هم كتاب العدل الموثقون "سوفريم" (نساخ) .وتتمثل مهمتهم الرئيسية في مساندة القضاة، وفي تحرير وتوقيع العقود القضائية ومراسيم "المعمد" (المجلس)، بناء على طلب

ومسؤولية القضاة ورؤساء الطوائف. و"السوفر" (الموثق العدلي) ذو إطلاع كبير. ويفترض فيه أن يكون متمكنا تمكنا تاما من التشريع والإجراءات القانونية المتعلقة. بأحكام الزواج خصوصا. ومع ذلك فإن حضور القاضي ضروري أثناء تحرير العقود. وللمحكمة أعوانها (شَلِيحْ بيت دِينْ). واستعانتها بآراء الخبراء أمر وارد. مثل ممثلي هيئات الحرفيين (أمين الأمناء). وللطوائف عادة مطلق الحرية في اختيار قضاتهم .

ويتولى خطةَ القضاء كلٌّ من له إطلاع واسع في العلوم الربانية. وهذه العلوم هي الضمانة الوحيدة لمن يريد أن يتكلم باسم الشريعة الإلهية .ويمكن أن يتقاضى الناس عند من توفرت فيه هذه الشروط . ولو لم يكن رسميا .وللمتقاضين في نزاع من النزاعات. الحق في الالتجاء إلى (حكمة) أي سلطة ربية يريدون. ولو كانت من غير الهيئة القضائية "ديانيم". لتفصل في خلافهم. ولتسود بينهم سلطة الحق والعدل. وتعد قراراتهم بمثابة قانون. على المتقاضين الرضوخ إليه. والمحاكم الربية غالبا ما تصادق على الأحكام التي تصدرها هذه الجهات.

ويخضع هذا الإجراء إلى تحكيم الـ"برورِيم" (الخبراء) الذين يحيل عليهم القضاة أنفسهم. بعض النزاعات ذات الصبغة التجارية أو الحرفية.

العلاقات مع السلطات القضائية غير اليهودية - وجريمة الوشاية

إن أول ما يشغل المسؤولين اليهود. أحبارا وغير أحبار. هو إبعاد كل تدخل في قضايا الطائفة. وتفادي كل خرق للاستقلالية التي خولها لهم قانون الذمة .

وتحترم النظم الإسلامية. بصفة عامة. المبدأ الأساسي لهذه الاستقلالية. باستثناء بعض التدخلات غير المشروعة. وهي نادرة. ذلك لأن

السلطات الحكومية لا تتدخل إلا قليلا في الشؤون القضائية اليهودية. مثل تلك التي أشير إليها. وهي قضية تعدد الزوجات .وهذه وحدها هي التي سُجلت رسميا في الحوليات الربية المغربية.

ولقد أملت على السلطات الربية في الديار الإسلامية، وبالخصوص في المغرب، إرادةُ تأكيد خصوصية الطوائف اليهودية، وتعزيز سلطة قانونها الذي يحكمها، وإرادةُ الحفاظ على مصالح اليهود المعنوية والمادية، والحيطةُ من استعمال القضاء الإسلامي، أملت هذه كلها، ضرورةَ اتخاذ احتياطات للحد من كل ذلك . ولا تتسامح هذه السلطات بالخروج عن القاعدة العامة لهذا الحظر، إلا في ظروف معينة، بل إستثنائية جدا، وتهدد بالسلاح المرعب، سلاح "الحرم" (المقاطعة في كل شيء)، أعضاءَ الطائفة الذين يلتجئون من تلقاء أنفسهم إلى القضاء الإسلامي قصد عرض نزاعاتهم الخاصة على الشريعة القرآنية .

ولقد رأينا بأن استعمال "الصَّداق" الذي حل محل العقد اليهودي "الكتوبة" (عقد الزواج) المضروب أمام قضاء إسلامي، ظل يستعمل بفاس حتى بداية القرن السابع عشر. ونجد في نفس "التقنوت" (المراسم أو القرارات) التي تعرضت لهذا الاستعمال، كما في عديد من الفتاوى، أن موقف (الفقهاء) اليهود المغاربة، فيما يتعلق بصلاحية المحاكم غير اليهودية - هذه الصلاحية التي انحصرت في أعمال الحق العين، وتستوجب كثيرا من التحفظات - كان نابعا في غالب الأحيان، من ظروف معينة، وكان هذا الالتجاء إلى القضاء غير اليهودي أحيانا مأمورا به، وأحيانا يُغض الطرف عنه، وأحيانا ممنوعا منعا كليا .

وهكذا كان يبرم كل تفويت ملكية عقارية، وكل عملية عقارية، وهي بصفة عامة،بيع أو رهن أو رهن حيازة، أولا وقبل كل شيء، أمام

محكمة ربية، بتوقيع كتاب ضبط يهود، ثم بعد ذلك تثبت العملية بعقد ثان يحرره وكيل عدلي مدني، وبعد ذلك يوضع العقد لدى جهة ثالثة موثوقة(يهودي) (مرسوم 1603)

واعتمادا على المرسوم السابق، سمحت محكمة فاس (1736) باللجوء إلى العدالة الإسلامية، في قضية نزاع عقاري، مبينة: "أنه يلزم أن يبقى العقد بين يدي جهة ثالثة ، يهودي، إلى أن تحكم المحكمة الربية بالسماح بتسليمه للدائن". ويكون هذا بالخصوص في الحالة التي يصر فيها "المدين على رفض الوفاء بتعهداته...".

وتشير الحوليات القضائية الربية إلى عديد من الحالات من هذا النوع (1).

جريمة الوشاية

يقرن هذا الموضوع دائما في الكتابات القضائية، باللجوء إلى القضاء غير اليهودي. وكان التشريع الذي يحاكم بموجبه الواشون أكثر تشددا، ولا تساهل فيه على الإطلاق .ويدين بكل قسوة "الذي يوشي بأخيه اليهودي أو يسلمه إلى أيادي الأغيار..."ويُلزم الواشي بتعويض الضرر الذي تسبب فيه للضحية، وعليه بالخصوص، أن يؤدي له مقابل كل مقدار أو ذعيرة أو رشوة أداها الضحية قصد إطلاق سراحه..." وهذا مضمن ما جاء في أحد الأحكام التي صدرت بمحكمة مكناس سنة 1728، وصدر مثيل له كذلك في عدد هائل من الأحكام القضائية التي توالى صدورها طيلة القرون الأربعة الأخيرة .

1- انظر

H .Zafrani, Le recours des tributaires juifs à la justice musulmane et aux autorités représentatives de l'Etat souverain, in Studia Islamica, Ex fascicule LXIV, Paris, 1986, p .125-149.

وظيفة الحبرانية ومهام ربِّيّة أخرى

يقوم ذوو المناصب العليا في الطائفة، الذين هم "النكيد" (شيخ اليهود)، وأعضاء "المعمد" (المجلس) وكذا الأحبار القضاة، مبدئيا، بالمهام التي يكلفون بها، تطوعا ودون مقابل، عندما يكونون من ذوي المال والغنى.

ويمكن أن يتلقى أعوان القضاء الذين هم "سوفر بيت دين"(الكتاب الموثقون)، والذين يقومون بالمهام الدينية، مثل"الشوحط"، ومهمته ذبح الذبائح حسب المقتضيات الدينية، و"الموهل" ومهمته القيام بالختان، و"شَلِيَّح سيبُّور"، وهو من يؤم بالصلاة، و"الشماس"، وهو خادم البيعة، والمعلم، و"السوفر"، وهو الناسخ والكاتب، أجرةً متواضعة من ميزانية الطائفة، غير أن مواردهم تتكون أساسا مما يكتسبون في العادة، وهم جميعا، وربما باستثناء الكتاب الموثقين، يعيشون عيشة ضنك، رغم أنهم يحصلون زيادة، على عطاءات عينية، كالأمر عند "الشوحط"، ورغم تمتعهم بامتيازات ضريبية، كالإعفاء من الضريبة الرأسية والضرائب التي تدفعها الطائفة، وقد يتعرضون للاستنكار من أجل هذا من حين لآخر، وغالبا ما يحدث أن يقوم شخص واحد بعديد من المهام الدينية، ومع ذلك يظل على الكفاف رغم جمعه بين مهام متعددة.

ومع ما كان يحدث من جمع للوظائف في معظم الحالات، فإن "السُّوفِر" أي الناسخ العادي، كان يختلف عن "سوفِر بِيتْ دِين"، أي الكاتب الموثق، فمهمة الأول تنحصر في نسخ أسفار التوراة على الرِّق، وكتابة "اتْفِلِين" أي التمائم، و"المزُوزِت"، وهي رقيقات تنسخ فيها آيات من التوراة (1)، وتوضع في جعبة تعلق على الجهة اليمنى من الباب .

1- أنظر سفر التثنية الإصحاح الخامس، آ 4-9 و الإصحاح الحادي عشر آ 12-13.

ولم تتجاوز أجرة الحبر الأعظم، وذوي المناصب العليا بحاضرة بها طائفة كبرى يهودية، مثل حاضرة فاس، اثني عشر مثقالا في بداية القرن الثامن عشر.

ويحدد مرسوم (تقنة) حرر سنة 1610، أجرة كاتب موثق، في نصف أوقية وخمس مُزُنات، ثمنا لتحرير العقد الواحد .

وفي سنة 1698 كان "الشوحط" يتلقى "بُرُوطًا" مقابل ذبح كل ديك بالطريق الشرعي. وقد حدثنا الربي يوسف مساس، وهو مداعبا، حول ما يؤدى عن هذه العملية قال: "إن مهنة الفقراء هذه، كانت قليلة الأجر إلى حد أن الأغنياء آكلي الدجاج، كانوا لا يؤدونها". وأضاف مازحا وهو ينفجر بالضحك: "عُشِيُر وِخَلِّص؟ " (غَنِيٌّ ويدفع الثمن؟).

وتشكى محررو مرسوم مؤرخ بـ 1722، من الفقر المدقع الذي كان يعانيه النُّسَّاخ، ومن البطالة التي تفشت إذ ذاك بين أصحاب هذه المهنة، مشيرين إلى الانخفاض الكبير الذي آلت إليه أجرة عملهم . فقد انخفض ثمن نسخ التوراة من 250 إلى 80 أوقية، وثمن تميمتين "تيفلين" من 90 إلى 1، و"المزوزة" من ثُمُنَيْن إلى ثُمُن (ثمن أوقية) .وقد عرضوا وضعهم هذا، لإقرار تطبيق الإعفاء الضريبي على الكتاب الموثقين والنساخ الذين سبق لهم أن كَوَّنوا تعاونية "حِبُرَة"، للمطالبة بالاستفادة من هذا الإجراء .

"السِّرَرَة" أو المهام الربية التي صارت حكرا على الأحبار

يُستقطب القضاة والقائمون بالمهام الدينية عادة، من أرستقراطية فكرية محصورة في عدد من العائلات. وهذه العائلات هي التي قادت الطوائف المغربية فعلا، طيلة الأربع مائة والخمسين سنة

الأخيرة. وكانت تباشر نوعا من القيادة الروحية والزمانية. وكان لها سلطة تعرف في العبرية بمصطلح "السَّرَرَة"(1). فتحتفظ بموجب حق وراثي، ودون مشاركة، بمهمة "الشحيطة" (الذبيحة الشرعية). وتسيير أمور الطائفة، وخدمة البيعة، تطوعا أومقابل أجر كبير. وكانت تشغل مهام "السوفر" (الكاتب الموثق) أو "الدَّيَّان" (القاضي). وهذه العائلات هي عائلات ابن دنان والسرفاتي وصيرورو وأبنصور وابن عطار وغيرهم وهؤلاء بفاس. وبرديگو وميمران بمكناس.

ورددت مجامع الفتاوى دوما، أصداء النزاعات التي كان يثيرها وصول رجال جدد من ذوي المعرفة إلى مكان ما، أو تلك التي كانت تحدثها المنافسات الشخصية بين الأحبار، وكذا افتتاح بيَّع جديدة، أو تأسيس "يشفوت" (مدارس)، بل كانت النزاعات تحدث بسبب فتح "حِدَر" (مسيد). وكانت الامتيازات المشار إليها، أحيانا، هي الأخرى مثار النزاعات والاستنكار. وكان من بين الأسئلة التي ترددت كثيرا هذا السؤال: هل لصاحب "السَّرَرَه" (النفوذ) أن يحوله إلى حق عيني متوارث؟ وهل له أن يُصَيِّرَه حق تصرف "حَزَقَه" به يستحوذ على الوظيفة التي يشغلها؟ وهل يصبح هذا حقا يتوارثه الإبن عن الأب أو يتوارثه الأقارب؟ وكان المفتون يجيبون في معظم الحالات، عن هذه الأسئلة بالإيجاب، معتمدين في أغلب الأحيان، على مبدأ شبه الاتفاق حول توريث "السرره" الذي نص عليه ابن ميمون نفسه في كتابه "مِشْنِه تورا" (تثنية التوراة).

ونقرأ في فتوى شرعية، مؤرخة بـ 1728، أفتى بها ج أبنصور، في هذا الصدد ما يأتي: "كل من استحق أن يكون في موقع "السرره"

1- لعل أصل لفظ "سررة" من "سرر" ترأس وحكم، ومنه "سَرٌّ": رئيس، ولعل هذا المعنى هو الموجود في العربية " سَراة القوم " قادتهم.(المترجم)

(النفوذ) يلزم أن يتمتع بنفعه هو نفسه طيلة حياته، ويبقى في نسله إلى آخر الدهر."

وتتكرر نفس الظاهرة عند نخبة المغاربة المسلمين، كما ذكر ذلك ليفي بروفنسال في كتاب "مؤرخو الشرفاء"،ص 11. يقول:"صفة العالم وراثية، إذ نجد عديدا من العلماء يتسمون بنفس الاسم خلال قرنين أو ثلاثة قرون . لقد احتكرت بعض العائلات الكبرى، العلم وورثته أبا عن جد، طيلة أجيال، وهي نفسها التي خلفت عقبا من العلماء لا تزال ذريتهم تتمتع بما له من نفوذ حتى اليوم...) (1).

ونشير بهذه المناسبة إلى أنه كان من بين هذه النخبة المسلمة، عديد من العوائل اليهودية التي أسلمت على مدى تاريخ المغرب، ومع ذلك، فهي في معظمها لا تزال تحافظ على أسمائها الأصلية مثل عائلة كوهن واصقلي وبنيس وبنشقرون وغيرهم.

مؤسسات الطائفة

البيعة

إنها نقطة الالتقاء الطبيعي "للقهل"، لأفراد الطائفة، فهي بيت الصلاة ومقر الدرس والتعليم "حدر" "ويشفاه"، وهي مكان تعليم الكبار ليلا بالدرس أو بالوعظ، وفيها يجتمع مجلس الطائفة والمخلصون لاتخاذ القرارات أو إعلان المراسيم جهارا، أو لإصدار حكم يأمر بمقاطعة شخص ما أو لإعلان الصفح عن ذلك الشخص، وغير ذلك.

وكل المستلزمات المستعملة للقيام بالفرائض الدينية، هي عبارة عن هبات، إذ لفائف التوراة ومخملها، والبساط الذي يغلف التابوت

1- أنظر Les Juifs du Maroc, p. 122-126 و Pédagogie... p. 50, 84, 91.

المقدس، ومنبر القداس، والشمعدان والمصابيح والزيت والشموع. كلها هبات من المؤمنين.

وتجمع موارد البيعة عن طريق بيع "المِصْوُوت"، أي السماح بالصعود للمنبر لتلاوة بعض آي التوراة أو أداء بعض الطقوس، والنذر، و"الرِنْتَس". وهي مساهمة فصلية يسلمها الذين يحددون زمنا معينا يؤدون فيه فريضة من الفرائض "مصوه"، أثناء الفترة التي تفصل بين عيدين كبيرين متتابعين، مثل "سكوت" و"بصح".

ويوزع دخل البيعة على أصحاب "السرره"، أو"الحزقه" [في الخدمات المشار إليها أعلاه] الذين يتبعون البيعة، "وشليح سبور" (الحبر الإمام) الذي يتولى أحيانا الوظيفتين معا، وخادم البيع "شماش"، بعد استخراج قيمة صيانة البنايات .

الحبوس والأعمال الخيرية

تملك الجماعة، بالشراء أو الهبة أو الوصية، ممتلكات تخصصها للأعمال الدينية أو للأعمال الخيرية. وتسمى "هقديس" أي حبوس. وتسمى أيضا مال الفقراء. وهي وقف لا يسترجع إلا في النادر النادر، مثلها مثل حبوس ممتلكات المؤسسات الدينية الإسلامية.

وقد تضطر الطائفة إلى التصرف في الحبوس، كما جاء في فتوى جماعية، مؤرخة بـ : 1700 " اضطرت طائفة يهود فاس إلى رهن ممتلكاتها "هقدس" (حبوس)، لمساعدة أعضائها الذين أدقعهم الفقر بعد أداء ضرائب باهضة ابتزها منهم أبناء السلطان (هكذا !) "

لقد ساهمت صناديق الأعمال الخيرية وحسن تدبيرها، في إعانة المحتاجين في حالات الضيق الاقتصادي والمجاعات .وهكذا تشهد وثيقة

مؤرخة في شهر ديسمبر 1613 بأنه كان: "يموت أكثر من ستين فردا من غير اليهود كل يوم من الجوع، ولم يهلك ولا يهودي واحد شكرا لله".

وتدعم الصدقات والغرامات صندوقَ الطائفة. وتكون الغرامات أحيانا جد عالية، ويفرضها شيخ اليهود أو الحاكم، على كل من يخرق القرارات المعلنة. كما يُدعم الصندوق أيضا من الضرائب غير المباشرة (أنظر ما يأتي). وتتلقى مؤسسات الإحسان، بالإضافة إلى اشتراكات أعضائها المحددة، الهبات والوصايا. وتستفيد بعض السلع الخاصة بالمعوزين من الإعفاء الضريبي.

و"لفقراء المدينة" حق الأسبقية في الأموال الخيرية التي تخصصها لهم طائفتهم التي ينتمون إليها. ولنا في هذا الموضوع حكم بليغ الدلالة.

فردا على "الطلبات المتكررة والرغبات المفرطة الواردة من الأحبار الرسل القادمين من بولنيا وألمانيا"، فإن طائفة يهود فاس، الذين يعيشون هم أنفسهم في ضيق شديد، حددوا سنة 1691 الأموال التي يجمعها أولئك الأحبار الرسل، في قدر محدود.

التعليم

مهمة التربية والتعليم فرض على العائلة، وكذا على الجماعة التي تسهر على التطبيق الحرفي لعديد من الوصايا والقواعد الدينية المتعلقة بهذا الشأن . والجماعة هي التي تمول بعض مؤسسات "تلمود توره" [مدارس تقليدية].ونحيل فيما يتعلق بموضوع مهام هذه المؤسسة، على ما نورده في فصل " الطفولة واليفاعة والتربية والتعليم".(1)

1- أنظر Pédagogie... والفصل الذي خصصناه لـ" المسار الفكري والروحي للمتأدب اليهودي والعالم المسلم في المغرب "

الضـــــرائـــب

الضرائب المباشرة

تتحمل الطائفة اليهودية المغربية، بصفتها مجموعات" محمية"، ثقلا ضرائبيا شديدا. فزيادة على الجزية، وهي ضريبة شرعية خاصة، مرتبطة بوضع الذمي، وتُؤدى سنويا عن كل رأس ذكر بالغ، كان بيت المال يفرض على الطوائف أداء مقادير تعسفية، في فترات معينة، أو في حالات خاصة، وكذا أداءات متنوعة غير الضرائب المقررة، ينضاف إليها أيضا المصادرات والغرامات والسخرة والرشاوى، و"الهدايا" التي هي "لـَهْدِيّ" التي جرى بها العرف. ففي الأعياد الإسلامية الكبرى، يتقدم وفد من اليهود، إلى السلطان وإلى خليفة فاس، بمتمنيات الطائفة، ويصحبون ذلك بالهدايا التي جرى بها العرف، وهي عبارة عن : أساور من ذهب، وأقمشة ومناديل من حرير، وكانت تجمع الأموال التي تشترى بها هذه، محاصة، تبعا لثروات العائلات.

ولم يكن هناك ما يحمي بطبيعة الحال، الطوائف اليهودية من التعسف الضريبي، الذي تمارسه السلطة "الحامية"، فتنأى الطائفة تحت عبئه، ليتردد صدى ذلك في الشكاوى التي كانت تملأ مقدمات "التقنوت" و"الرسبونسا"، ذات الصلة بالموضوع. غير أن رؤساء الطوائف، من رجال الدين وغيرهم، المكلفين بأداء الضريبة وجمع أموالها، كانوا يعملون كل ما في مقدورهم، لتوزيع العبء على الجميع، كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، عملا بمقتضى متطلبات الأحكام الربية، وكان هذا هو شغلهم الشاغل، كما تشهد على ذلك عديد من النصوص الغنية بالإشارات إلى ما يمكن أن نسميه اليوم "التهرب من الضرائب". وكذا كانوا يسهرون على العمليات المتعلقة بجمع الضريبة ومقدارها

وسبل تغطيتها. لقد كان "التهرب من أداء الضريبة" إذن نتيجة لسلوك بعض الأعيان ذوي النفوذ. الذين كانوا يبحثون عن أي طريق للتملص من "نير الضرائب". مما يجعل الأكثر فقرا يتحملون نصيبهم ويزيدون ثقلا على ثقل. وكان ذوو النفوذ يعتمدون في تملصهم ذاك على ما كانوا يتمتعون به من "عناية" لدى الأوساط الحاكمة.

أما فيما يتعلق "بتقنية الضرائب" - ويتعلق الأمر هنا بالأعباء الضريبية المباشرة التي تفرضها السلطة المدنية. والتي يمكن أن نسميها "ضرائب مباشرة". تمييزا لها عن "الرسومات غير المباشرة" المفروضة على السلع المستهلكة التي تقتطعها الطائفة لتغطية حاجياتها - فإنها بسيطة. والعملية في حد ذاتها حرجة . وغالبا ما تثير الجدل. وذلك بسبب الأموال المعفاة من الضرائب. والتي هي هنا ثروة من تستحق عليهم الضريبة.

والإجراء الشائع. ذلك الذي يفضله الأحبار. يتمثل في تكليف جباة. ينتخبهم مجلس الطائفة أو يعينهم. بإعداد اللوائح. وهم وحدهم مؤهلون ليقدروا ما عليه ثروة أفراد الطائفة. ومقدار ما تكون عليه مدفوعاتهم الضريبية.

ويظهر أن تنديد فقهاء اليهود كان جماعيا فيما يخص الطرق الأخرى المتبعة لتقويم الأموال. مثل "الإقرار الضريبي" و"الدفع الإجمالي". وهما أسلوبان كانت لهما الأفضلية الأولى لدى الذين كانوا يريدون الإفلات من بعض الأعباء الضريبة .

ومهما كانت السبل المتبعة. فإن مقدار المساهمة كان متناسبا مع أهمية المال الذي كان محددا في مقدار معين. يُنص عليه بمرسوم

خاص. وتسري فعاليته لفترة زمنية معينة .ومع ذلك فإن قاعدة التناسب الضريبي هذه، لم تكن متبعة في حالة من الحالات .ذاك أن النصوص كانت تتوقع، بصفة عامة، خرقا خاصا بالنسبة للثروات الكبيرة، حيث كانت الضرائب المفروضة عليها متساوية مع ضرائب الثروات التي تأتي مباشرة في الرتبة دونها. وكان السبب في هذا الإجراء، في بعض الأحيان، هو إبعاد "العين الشريرة" عن الأغنياء الكبار .بل السبب الأساسي، الانفلات من طمع الحكام، وإثبات تضامن أفراد الطائفة اليهودية مع قادتهم الأكثر غنى .وهذا ما تشير إليه جماع النصوص صراحة .

الضرائب غير المباشرة

يدخل في هذا النوع من الضرائب، كل الضرائب التي تجمعها الطائفة لتغطية قسم من النفقات الجماعية المتوجبة عليها، وبالأخص، لمساعدة المعوزين. ويسمى هذا النظام الضريبي، الذي يمكن مقارنته بضرائبنا المفروضة على النفقات، "سكًا". والاسم "Sisa" مستعار من اللغة الإسبانية، ويعني "الضريبة على المواد الغذائية".وقد يُقَرَّب اللفظ من الكلمة العبرة "عزر"، وتعني المساعدة. والمحتمل أن الأمر يتعلق بنظام ذي أصل إسباني، حافظ عليه "المهجَّرون" في بلد استضافتهم، وانتهى الأمر بان تبناه "البلديون" كذلك .

وبعد أن كانت تفرض هذه الضريبة على بيع اللحوم، عمت المواد الغذائية الأخرى، فالمواد الاستهلاكية المنزلية، ثم عمت كل المعاملات التجارية .وعادة، كان يحصل على مقدار هذه الضريبة مقدما، إذ كانت الطائفة تتفاوض مع شخص أو مجموعة أشخاص، ليلتزموا بتسليمها مقدارا إجماليا، يحصلون عليه هم فيما بعد، من مدفوعات

المستهلكين. وقد يحدث أيضا أن يحصل جباة مجلس الطائفة، على المقادير المالية مباشرة من التجار، مالا أو عينا.

وكانت ضريبة الذبائح هي الممول الرئيسي لـ " صندوق الأعمال الخيرية". ولا تزال إلى اليوم، هي والضريبة الخاصة بالخمر "الكَشِر" أي المستلزم لشروط الإعداد الديني، تمثل أهم المصادر المالية الرئيسية للطوائف.

وهكذا، حسب ما جاء في فتوى جماعية مؤرخ بـ 1649، كان يدفع كل صاحب دكان، مرة في الأسبوع، كيلوين من الدقيق، ومقدار أوقية قديمة من الزيت، ومن الصابون، ومن الزبد والعسل، حقا للفقراء .

الإعفاء الضريبي

يعفى اليهود الذين هم في خدمة الملك، من الضرائب، خصوصا شيخ اليهود الذي يستطيع إذا رغب في ذلك، أن يستفيد، إضافة إلى ما سبق، من امتيازات خاصة واستثناءات، مما قد توجبه بعض المراسيم على غيره.

غير أن هذه القضية تهم بالأساس، الخُدَّامَ الساهرين على الأمور الدينية عامة، ومجموعَ الأحبار، من هم معنيون بها خاصة وبشكل من الأشكال. لذلك خصصوا لها، على غرار إخوانهم أين ما وجدوا، وعلى مدى الأجيال، الكثيرَ من القول، ليبرروا استمرارية الامتيازات القديمة الموروثة منذ العهود الكهنوتية، مثبتين في فتاواهم ومراسمهم، على مدى الأزمان، كثيرا من الإجراءات التشريعية التي بها يحافظون على تلك الامتيازات في كل تفاصيلها، أو ليوسعوا صلاحيتها فتشمل العديد من العلماء، أولئك الذين يطلق عليهم اسم "تلميذ حخم" (1).

1- أنظر Pédagogie... p.12,53-55 و Les Juifs du Maroc, p. 138-140.

شرطة الأخلاق وقوانين

تحديد النفقات الكمالية

كانت الحياة العامة والخاصة، داخل محيط الملاح الضيق، تحت رقابة مشددة من ساكنيه اليهود، ومن الطائـــــفة عامة. ولا يمكن أن تنفلت أي مخالفة للنظام الأخلاقي - الديني، الذي ينظم الجماعة، من يقظة "المقدمين"، الذين يسارعون بالتبليغ عنها، ويعاقبون كل جدير بالمعاقبة، باسم "الحبرانية" والمجلس. وهكذا كانت تساهم هذه المراقبة، داخل هذا المجتمع، في الحفاظ على مستوى رفيع من الأخلاق، وهذا على كل حال، أمر لا يخرج عن الأوامر اليهودية التقليدية .

وفي مثل هذه الأوساط ، تحتل الأخلاق الطيبة، ونقاوة الحياة الزوجية والعائلية، المكانة السامية. وقد لا يمنع هذا بعض "الأشخاص" النزقين من الخروج عن القاعدة، ومن أن يحيدوا عن طريق " الموسر" (الأخلاق) والدين (الشرع). وهكذا تطلعنا بعض الفتاوى على حالات من الفجور، والتسري والخيانة الزوجية والزنى. وهي أمور تدينها السلطة الربية بكل قوة .

ولم تكن المتعة هي التي تقود في الأصل إلي هذه الانحرافات، وإنما كان يفرضها الفقر والظروف القاسية التي كان يعيشها اليهود، كما يدل على ذلك النصان الآتيان :

"...زنت امرأة خلال فترة المجاعة بتطوان مع أحد الأغيار، فولدت بنتا ادعتها عائلة هذا الأخير لتقوم بتربيتها على سنة الإسلام (حررت هذه الشهادة سنة 1750)

" استسلمت امرأة إلى أحد الأغيار، وذلك لانقاد طفلتها أثناء نهب ملاح مكناس... " (نهاية لقرن الثامن عشر).

ومما يسهل الفسقَ والانحلال، الخماراتُ التي يجتمع فيها أحيانا، داخل الملاح، يهود وغير يهود، مما جعل الحبرانية، بالاتفاق مع السلطات الحاكمة، تقنن تجارة المشروبات الكحولية، وتمنع اليهود من بيعها لجيرانهم المسلمين والمسيحيين، كما تمنع تقديمها لهم عند دعوتهم لتناول الطعام.

و جاء في إحدى الفتاوى الجماعية، مؤرخة بـــ 1602 ما يأتي:" تقر السلطة الربية المجتمعة بأمر من جلالة الملك، في منزل "النكيد" أبراهام روتي، وبإذن من "النگيد" موسى هلفي، الفتوى القديمة التي يمنع بموجبها على كل يهودي أن يبيع الخمر و"ماحيا" (شراب من التين) لأي كان، يهوديا أو غير يهودي، رجلا أو امرأة، أدوميا أو إسرائيليا أو مجوسيا أو مرتدا أو أوروبيا (علجا) أو يهوديا أسلم (مشومد)،خلال العشر سنوات القادمة، ابتداء من هذا اليوم، ومن يخالف هذا الأمر يعاقب باللفظ من الجماعة .. . ويتعرض لنفس العقوبات، الذين يقدمونها مجانا لغير اليهود، أو الذين يسمحون لهم بتناولها في حضورهم... ويسمح للذي يملك أسيرا غير يهودي اشتراه بماله أن يقدم له الخمر و"ماحيا"، شريطة أن يتناولها في محضره..."

وهناك فتاوى جماعية أخرى مؤرخ بـــ 1671، أقرَّ ما جاء فيها بمحضر النگيد، وبأمر من الخليفة، تمنع كذلك كل المعاملات التجارية بالخمر و"ماحيا ". غير أن الوثيقتين توقعتا استثناءات تخص "النگيد".

وتعد القوانين المحددة للنفقات التي تنص على حصر المصاريف الخاصة بمناسبات الأعياد العائلية، والتي تمنع التَّحلِّي والتزين بكرائم الجوهرات، نصوصا جد غنية بالمعلومات المتنوعة التي تفيد الفقيه، كما تفيد أيضا عالم السلالات والليساني. وتدل هذه الإجراءات التشريعية، التي تخضع في العادة، لاعتبارات خلقية دينية، على الاهتمام بعدم تعريض الأموال والأشخاص إلى حسد وطمع الأجنبي. وتتضمن هذه النصوص المحررة بالعبرية أو العربية أو القشتالية، كثيرا من التفاصيل التي لم تنشر لحد الآن، عن اللباس ومجوهرات النساء وحليهن، وعن التقاليد والعادات والطقوس التي ترافق الأعياد العائلية، وبالخصوص الزواج والختان وغير هذه. ومما يؤسف له، أن الكتابات القديمة والحديثة التي وصفت هذه المناسبات، لم تطلع تماما على هذه الوثائق.

وإليكم ما نقرأه في نص مرخ بـ :1688 " نظرا للظروف (ارتفاع الضرائب والركود الاقتصادي وما حل بالطائفة من ضيق)، فإن السلطة الربية ومجلس الطائفة وشيوخ اليهود، يُدينون استعمال الوجبات الباذخة التي تقدم في المناسبات والاحتفالات العائلية...ويتخذون في ذلك إجراءات يعاقب بالحبس وبالغرامة من لاينفذها. وسيسري الأمر على الأغنياء والفقراء، إذ هؤلاء الأخيرون، يستدينون بفوائد ربوية فيبذرون الأموال، ويقلدون إخوانهم الأكثر غنى. وهذه الإجراءات هي :

لا يسمح لكل من اعتاد إقامة الحفلات لأبنائه ليلة "شفعوت"، تلك المسماة "لـَخْتايِم" (1)، إلا بإقامة وجبة واحدة. وعليه

1- احتفالات نهاية دورة دراسية بـ " الحدر " أو " البيشفاه". وهذه تشبه "الختمة" الإسلامية التي تحتفي بنهاية حفظ القرآن

أن يتجنب فيها استعمال الدجاج والفراخ وكل أنواع الطيور. وعليه أن يتبع نفس الشيء في حفلات الزواج والختان ووجبة أول مولود الخ ... ويمنع أيضا إرسال الوجبات المحتوية على لحم الطيور أيام "السبوت" و"العشاوي". وهي مآدب خاصة بالسبوت وعشايا أسبوع الزواج. باستثناء المآدب المخصصة للعرسان. والتي تتناولها عائلتا العروسين فقط... "

وإنه لمفيد أيضا ما يضيفه المرسوم المؤرخ بـ 1618. المتعلق بنفس الموضوع. حول " تبذير الأموال في مناسبات الأفراح العائلية. وإطعام الطعام وإقامة المآدب..."

" في هذا الوقت الصعب. حيث لا يخلو يوم من الأيام من نصيبه من المصائب والدواهي. وحيث يثقل كاهلَ معظم اليهود نيرُ الضرائب والأداءات من كل الأنواع. نلاحظ أن الفقراء. مثلهم مثل الأغنياء. لا يفتأون يبذرون فيما يصرفون. بمناسبات حفلاتهم العائلية. ويكثرون من المناسبات التي يتعرضون أثناءها لما يقوم به الأغيار من سلب وسرقة. على مرأى ومسمع من رب المنزل. وهو غالبا بدون حول ولا قوة .. ومهما كانت المناسبات. سواء كانت مناسبة خطوبة أو زواج أو ختان أو حفلة أول مولود.... وعليه فمهما كان. فلا يُستدعى للأفراح. التي يجب أن لا تقدم فيها إلا وجبة واحدة. إلا الأقربون للمخطوبين أو العروسين. وأقرباء أب المولود البكر...ولا يستدعى الأجانب عن العائلة إلى هذه الحفلات. إلا في حالة عدم توفر النصاب الشرعي (وهو عشرة من البالغين) ... ويستدعى الخطيب وحده. وربما الأقربون من عائلته. في حالة وجودهم. لأول مأدبة تقيمها عائلة الخطيبة على شرف الخطيب. وهي المسماة لدى العامة "الدَّخْلَة". ولا يسمح بإرسال أي شيء من المأكل المعد للمأدبة

خارج المنزل، سواء من النوافذ أو الشرفات أو السطوح ... ولم يعد مسموحا من الآن بـ "تُقَيَّال"، أي مناسبات الاجتماعات الاحتفالية. ومن حينه لا يسمح كذلك، بإقامة مأدبة السبت المعتادة التي تكون قبل حفل العرس، سواء في بيت الزوجة، "كَلَّة" أو الزوج، "حَتَن". وكذا لا يسمح بالمأدبة التي كان يقدمها هذا الأخير، في المساء من ذلك اليوم، إلى أصدقائه الشبان، والتي كانت تسمى عامة، "القاعا". ولم يعد يسمح أيضا بالوجبة البسيطة المسماة "رِبْطَة"، وهي التي يحزم فيها العروس بالقطعة الثوبية البيضاء التي شدت بها زوجته رأسها، يوم الأحد الذي قبل أسبوع العرس... ويجب أن لا يتعدى حضور وجبة السمك التي تكون عادة في ختام أيام العرس، أفراد العائلة الأقربين، ودون أن يحضرها أصدقاء الزوج الشبان. ويمنع على الزوج أن يرسل إلى الزوجة، يوم السبت الذي قبل حفل العرس، تقدمة الطعام المعروفة بـ "مَرْيَنْدَة"، التي معناها بالإسبانية، وجبة المساء. كما يمنع عليه إرسال هدايا التاسع والعاشر من شهر آب المعتادة، وكذا الهدايا التي كانت تهدى بمناسبة "اشْرَطَة" (الفَصْد) (1).ولا يحمل طابق الحنة المستعمل في حفل الزفاف، إلى بيت الزوجة إلا امرأة واحدة ووحيدة، دون أن تحمل معها لا المعسلات ولا المشروبات، باستثناء العسل والزبد... ومن حينها يمنع منعا، إرسال الحلويات أو أطعمة اللحوم أو أي نوع من أنواع الطعام، إلى بيت ذات المولود، طوال الأسبوع الذي يلي الولادة، باستثناء ما يرسله ذووها الأقربون...زيادة على أن الزوجة بعد حفل العرس ملزمة بتغطية رأسها بمنديل من حرير. وعليها أيضا أن لا تلتحق ببيت الزوجية إلا تحت جنح الظلام ..."

1- كانت عادة الفصد متبعة في المغرب حتى سنوات الخمسين، وهي عبارة عن تزويق ساق المرأة بالمشراط، بخطوط هندسية، حيث يخرج الدم، وبعدها تبقى آثار الجراحة في شكل تزويق.(المترجم)

وكل مخالفة لما جاء في هذه الفتوى، يعاقب مرتكبها بالمقاطعة وغرامة من مائة أوقية، يسلمها لجابي الضرائب.

وهناك عديد من الفتاوى تتعلق بالخصوص، بمالغة النساء في استعمال الزينة والحلي، وكلها تحث على التقليل من ذلك، منها :

" أمعن الشيوخ الحكماء، بمحضر شيخ اليهود، في العشر الأواخر من شهر سيوان من سنة 1604/5364، النظر في قضية تهم الطائفة، وتتعلق بالأضرار التي يتعرضون لها، بسبب النساء اللواتي يخرجن، وكلهن مزينات بالأحجار الكريمة وبخلاخل الذهب و"التازرا" (سلاسل زينة أمازيغية) وعقود الجوهر، معرضين أنفسهن بذلك إلى نظرات العامة التي يملأها الحقد والحسد.... من الآن فصاعدا، لا يسمح لأي امرأة كانت، متزوجة أو عازب، أن تتحلى بالحلي المذكورة...باستثناء حلي الآذان، ويسمح بعقد الجبهة بمنديل الحرير، شريطة أن لا يتعدى هذا الثُّمُن الواحد من الذراع طولا. ومن الآن فصاعدا لم يعد مسموحا بالخمار الذي تتخمر به العروس، ولم يعد مسموحا أيضا بالحلي التي تزين بها وجهها، المعروفة بـ " ادْلايُل ". خصوصا تلك المصنوعة من الذهب والأحجار الكريمة ... ومن حينه لن تفصل أثواب النساء الداخلية من " بروكات " والخمل، باستثناء ما يلف الرقبة والياقة..." .

ويحدث كذلك، أن يدين أئمة الطائفة الروحيون علنا، بعض الأعمال المتبعة، كتلك العادات التي تعرض لها الربي يوسف بن مساس المكناسي، مما كان يفعله يهود تلمسان . حيث استدعى ليقوم بمهمة حبر وقاض، خلال السنوات 1924-1940. وجاء هذا في مخطوطه الخاص الذي نشرته في كتابي " التربية والتعليم اليهوديين في البلدان الإسلامية " سنة 1968. يقول :

" لقد وجدت من عاداتهم القبيحة (يعني اليهود سكان المدينة). عادات عليها علائم الهرطقة واضحة. ذاك أن الرجل منهم، عندما يكتري بيتا أو دكانا. فإنه ما كان يسكنه أو يستعمله. إلا بعد أن يضع. ليلة انتقاله إليه. في زواياه الأربع. كُوَّيْـمات من الحنة. كل واحدة بمقدار مُدٍّ. ويشعل فوق كل منها شمعة. وكانوا بذلك يتوسلون إلى الجن ساكني المكان. ليستقبلوا "..بعين الرضى. السكان الجدد. "الجيران". الذين سيقاسمونهم المكان قريبا. وبعد هذا الطقس. كان المكتري يغلق المكان بالمفتاح ويغادره. وفي الغداة. يعود ومعه ديك أسود و" شوحط ". فيذبح " هذا الطائر وسط المكان. سواء كان بيتا أو دكانا. ويرش أركانه الأربعة بدم الديك وهو يقول: " ها نحن قد قدمنا " لهُدِيَة " ورششناكم بالدم يا جيراننا الطيبين. سكان هذا المكان. لترضوا عن جيرانكم الذين جاءوا ليقاسموكم هذا المكان اليوم. " .

وكانوا يعدون بعد ذلك بلحم الديك المذبوح. طعام " الكُسْكُس ". فيتناول منه كل أفراد العائلة. ويعطى منه أيضا للجيران . ثم يلقى ببعض منه في البئر والمراحيظ .

أما الذي يبني بيتا جديدا. فالديك وحده لا يكفيه. بل عليه أن يذبح تيسا أسود. أو بقرة سوداء. تبعا لما يملك من أموال وتبعا للقول السائر: " الغني [يذبح] بقرته والفقير [يذبح] تيسه ". عندما سمعت بالخبر تأكدت أولا من صحته. ثم استدعيت سريعا أفراد الطائفة. في جمع عام. في البيعة الرئيسية بالمدينة. يوم السبت بعد صلاة "شحْريتْ" (الصبح). وخطبت فيهم خطبة طويلة. أطلعتهم فيها على خطورة هذه الخطيئة. ملمحا إلى قوله: " يقربون القربان للجن وهو غير

الله " وقد أتت خطبتي أكلها. وكنت أثير هذا الموضوع سنويا في خطبة من خطبي .

وهناك وباء آخر مشابه لسابقه أصيبت به هذه الطائفة. ذاك أنه عندما يطول المرض بشخص ما. أو عندما يتكرر إجهاض امرأة أو يتكرر موت أبنائها بعد الولادة أو في سن مبكرة أو في أي ظرف من الظروف المؤلمة. فإنهم كانوا يعدون طعاما يقدمونه للجن. ملتمسين منهم العناية والفضل. ويسمى هذا الاحتفال القربان:" نسرا أو نشرا" عند عرب البلد. وفيه يعدون " كسكسا " بلحم ديك أسود مفروم. تتناول منه العائلة كلها في المساء عند غروب الشمس. ويوضع الباقي في طبق كبير. تحمله بعض النساء المعروفات بتعاطي السحر والرقى. وتلقي به في مجاري مياه المدينة أو في المسالخ.

وقد أدنت هذا العمل إدانة وعنفت مرتكبيه. وكان لخطبي مفعولها أيضا في هذا الصدد "

الحياة الاقتصادية

سنستخدم هنا أساسا، وثائق سبق أن استفدنا منها في مواضيع أخرى، ولم تنشر لحد الآن .وهذه الوثائق هي عبارة عن " تقنوت" أو فتاوى جماعية، و"رسبونسا" أو فتاوى فردية، وأحكام صدرت عن الحاكم اليهودية، أي كل الكتابات الفقهية التي ورثناها عن القضاة والربيين المغاربة، وهي بشكل من الأشكال، " رؤية من الداخل " تعكس قضايا الطوائف عن حق.

وتزودنا بعض المصادر الأخرى غير اليهودية، بأخبار مفيدة تتعلق بهذه الطوائف، إلا أنها تبقى مع ذلك هامشية، كلما تعلق الأمر بمساهمة اليهود في تطوير العمران وبالدور الاقتصادي والسياسي الذي كان لبعض عائلات الوجهاء اليهود (1).

---

1 انظر في موضوع المساهمة اليهودية في تطوير العمران وتأثيراليهود في تكوين جمعيات الحرفيين

Massignon, Enquête sur les corporatios musulmanes d'artisans et de Commerçants au Maroc, Revue de Monde Musulman, vol .LVIII, 1942,(2e section), Paris, pp .61 sq., 148-158; idem, L'influence de l'Islam au Moyen-Age sur la fondatio et l'essor des banques juives, Bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas, tome I, Comp .Fischel, Jews of Medieval Islam, London 1937; Hirschberg, Histoire des Juifs d'Afrique du Nord,(hébreu), vol .II, pp .207-321,(chap .sur le Maroc, rôle économique et politique de quelques familles juives : R .Le Tourneau, Fès avent le Protectorat, pp .286, 288 sq, 299, 350 et suiv ., Comp.Bear, A History of the Jews in Christian Spain,... index, s.v .Economic Structure of Jewish Community, Occupations(Jewish-), Merchants(Jewish-) et passim ; R .Brunschvig, Berbérie, I, pp .408-428; Epstein, Responsa., pp.450 et suiv .;

بنية الطوائف الاجتماعية - الاقتصادية

تنوعت بنية الطوائف اليهودية المغربية، الاجتماعية - الاقتصادية، تبعا للأزمنة والأمكنة، وكل محاولة تهدف إلى جعل هذه البنية تتصف بنمط واحد متشابه، ستكون بالتأكيد أمرا متعسفا. إضافة إلى ذلك، فإن الوثائق المباشرة التاريخية الحق، المتعلقة بهذا الموضوع، منعدمة أصلا. وما لدينا منها في الأدبيات والوثائق اليهودية، يتكون أساسا من أقوال عارضة، وملاحظات طارئة، وتفاصيل ظرفية، لا تشكل إلا مصدرا ثانويا، اعتمدت مادته، في تحرير نص فقهي تضمنته فتوى فردية أو أخرى جماعية لا أقل ولا أكثر.

وكذلك، فإن هذه الفتاوى على أنواعها، لا تعكس إلا الحياة الداخلية للمجتمع اليهودي، ولا تدخل الأنشطة الخارجية لأفراد الطائفة، بما في ذلك العلاقات التجارية التي كانت تربط أعضاءها بالمجموعات العرقية الأخرى أو المجموعات الدينية، في دائرتها، مع أن هذه الكتابات لم تغفل التعرض لهذه المجموعات. وما ورد في هذه الوثائق لا يعدو أن يكون معلومات طفيفة مقتضبة، إن لم نقل عارضة، ترد عرضا في قضية من قضايا الإرث مثلا، حيث تطلعنا العقود على دور اليهود الهام في الاقتصاد المغربي، وتأثيرهم الذي لا يستهان به في بنيات الحياة العمرانية والتجارية والحرفية نفسها.

Abdel Wahab Lahlou, Notes sur la banque et les moyens d'échanges commerciaux à Fès avent le Protectorat, Hesp .XXIV(1937), 3e trim .; R .Le Tourneau, L'activité économique de Sefrou, Hesp .XXV(1938), 2e et 3e trim; David Corcos, The jews of Morocco under the Marinides, The Jewish Quarterly Review,(JQR), vol .LIV,april 1964,n ·4, pp .271-287, vol .LV, July 1964, n ·1, pp .53-81 et n ·2, pp .137-150 .Idem, Les Juifs du Maroc dans la première moitié du XVIe siècle,(hébreu)Sefunot, vol .X, Jérusalem 1966, pp .55-111.

ولذلك فإن قضايا تنظيم الحياة الاقتصادية التي تتم أساسا في رحاب " الملاح ". حيث تتضافر جهود الطائفة اليهودية. قصد تطوير وازدهار أوضاعها المادية. هي التي تكوِّن مادة وثائقنا. وهي القضايا نفسها التي تتعرض لها الفتاوى الجماعية (تقنوت) التي كانت تدبر أمر الجموعة. وهي أيضا التي ترددت فيها أصداء المنازعات التي تضمنتها الفتاوى الفردية (رسبونسا) التي كان القصد منها فك المنازعات التي كانت تحدث يوميا بين الأفراد.

وتسمح معاينة هذه النصوص بتقديم صورة عن البنية الاجتماعية الاقتصادية للطوائف اليهودية بالمغرب .

توجد القيادة الروحية والدنيوية بين أيدي " أوليغارشية " منحدرة من عائلات أرستقراطية عريقة. من أصل أندلسي في أغلبيتها. وهي المعروفة بـ"ميكوراشيم ". أو المهجرين. غير أن بعضا من هذه العائلات ينتمي كذلك إلى مجموعة يهود المغرب الأصلين " طوشافيم ". أي البلديين. ومن هذه الفئات ينتخب عادة الفقهاء البارزون " نكيديم" أو شيوخ اليهود. والوجهاء الذين يرتقون أحيانا إلى مراتب رسمية سامية. وهم الذين يستحوذون على الأموال والأعمال التجارية الكبرى الداخلية والخارجية. أو يمولون الحرف المحلية. ويجهزون الجيش الملكي. ويتحكمون في رؤوس الأموال. ويرأسون البنوك ويشرفون على موازنة الأسعار (1).

1- نكتفي بالإشارة هنا إلى أسماء بعض العائلات المشهورة من لعبوا دورا أساسيا في الدبلوماسية والأعمال وتسيير الطائفة. وهم كلهم تقريبا من أصول إيبيرية. من هؤلاء عائلة روني وبلاشا وميمران وطوليدانو وأبناء عطار وصريرو وأبنصور وروزاليس وسانانيس وسونبال وبرينت وكوركوس وليفي-يلي وبن دنان ولمانسانو وبرديكو وسرفاتي وبن زميروكانسينو وبياس وكوريات والمليح وخلفون وغيرهم كثير.

ولا تكون هذه البلوتوقراطية البرجوازية التي تكون سلطة الوجهاء الأثرياء، إلا أقلية ضئيلة في المجتمع اليهودي. ولا يحتل الوظائف السامية من اليهود إلا أفراد قلة، يشذون عن القاعدة، فيرتفعون عن مستوى إخوانهم، الذي هو في القاعدة العامة، جد متواضع، على عكس ما هو شائع، وعكس ما توحي به بعض الوثائق اليهودية وغير اليهودية، مما يترك انطباعا بأن هؤلاء المحظوظين القلة كانوا يمثلون السكان اليهود جميعهم. وينبغي أن نضيف، أنه مهما تكن هذه المكانة الرفيعة، فإنها غير مستقرة إطلاقا، وأنها هشة، وغالبا ما تعود بالمصائب على أصحابها. والثروات الكبيرة في حقيقتها مصيدة لمالكها، وهي أنشوطة متحركة، ويكفي القابض على السلطة المدنية أن يشد قليلا حتى يصل بها إلى حد الاختناق. ومع وصول هؤلاء الوجهاء الكبار إلى قمة الثروة والمكانة، فإنهم يصبحون بسبب وضعهم اليهودي، عرضة لمزاج سُعار الحاكمين الذين لا يترددون في أن يسلبوهم ممتلكاتهم وخيراتهم، بل أحيانا يسممونهم أو يغتالونهم.

جاء في إحدى الفتاوى المؤرخة بـ 1727 أن : " السلطات اعتقلت النگيد صموئيل وسجنته . وكان على أخته أن تدفع ألفي أوقية من الفضة لإطلاق سراحه ". وقد نقلت فتوى مؤرخة بـ 1704 رسالة منكوبة باللغة العربية، وجهها من السجن أحد وجهاء يهود مكناس، وهو أبراهام بن باروخ طوليدانو، إلى أخيه حاييم، يطلب منه فيها أن يدفع فدية من أربعمائة مثقال، إلى مولاي علي (ابن السلطان مولاي إسماعيل).

وتشهد البكائيات الشعرية " قينوت "، التي هي تآبين ومراثي، على المصير المأساوي الذي كان يلقاه بعض الوجهاء. ومن هذه المراثي، تلك التي يصف فيها الشاعر يعقوب أبنصور مآسي شبيهة، إحياء

لذكرى وجهاء يهود من مكناس وفاس، أُعدموا أو أُحرقوا أحياء، بأمر من مولاي إسماعيل.

وهذه بعض نماذج مما جاء في مقدمات بعض المقطوعات الشعرية:

" إلى يهودا أبنصور، ابن عمي، القربان الذي صار دخانا وهو في ريعان الشباب، ومات -في سبيل الله في 11 تموز سنة 1714/5472، في مكناس.". وفي نفس اليوم أحرق إسحاق بن عمارا، من تجّار فاس الشرفاء، ولقي ابنه أهارون، نفس المصير الغداة السبت. " وبعد ظهر الجمعة 6 أيلول، 1714/5474، عذب وقتل العالم موشي هكوهن وأخوه شم طوب هكوهن ..." " وجرع النگيد المشهور أبراهام ميمران، دواء (مشروبا) مشكوكا فيه، ناوله إياه أحد أطبائه المسلمين، ومات في 15 طابت 5483 نهاية 1722 " (1)

وتعيش الأغلبية الساحقة من السكان العاملين، من التجارة الصغيرة، والحرف، والتنقل بالبضائع، ومن الوظائف الدينية، كالتعليم وبما له علاقة بالعبادة، ومن الزراعة في بعض الجهات القروية .

وينبغي أن نضيف إلى هذه الطبقة الاجتماعية الاقتصادية المنتجة التي توفر الشروط المادية للطائفة، ممن اهتمت بهم وثائقنا بالدرجة الأولى، عالما مكَوَّنا من عدد من الفقراء والأهالي من عامة الشعب، وكان على مجموع اليهود أن يساعدوهم على العيش، بواسطة الصدقات الفردية، وصندوق البر والإحسان العام، الذي كان يمول بضريبة خاصة .

---

1 انظر

H .Zfrani, Poésie juive en Occident musulman, p .379-380

النقــود

للنظر في هذا الجانب، حاولنا جهـــد المستطاع، أن نتـصور تطور النظام النقدي، اعتمادا على ما جاء في الفتاوى الفردية والجماعية، كما عرض لذلك الفقهاء المفتون . وهذه نتائج ما توصلنا إليه.:

- الوحدات النقديـــة

تتكـون الوحـــدات النقـــدية من المثـــقـــال الذهبي، والمثـــقـــال الفضي.،ومن وحـدات أخرى كسورية من الفـضة، مثل أوقيـة و" الثُّمُن " و"موزنا ". وتسمى هذه الأخيرة بالـعبرية " مَعَهُ " و" لَفَن "، أي أبيض، أو بالاسبـانيـــة " بلانكيا "(blanquilla) . أما الكسور النقـدية من النحاس فهي: " فلس " جمع " فلوس ". المعبر عنه بالعبرية " بروطاه ".

وتشير مصادرنا إلى وحدات نقدية أخـرى، كما تستخدم عديدا من التوسيمات لتحديد طبيـعة النقد وأصله وشكله، وذلك لتعيين القيمة الفعلية المتغيرة تبعا للتقلبات الاقتصادية، ومـقارنة مع نقد آخر أو مع وحــدات كســورية من نـفس النقـــد، مـثـل الدينار الذهبــي ، والريال ، أو"دوكات" و" بـنديون ". كمـا فـي اللفظ الآرامـي .أو "الكيكار "، كمـا فـي اللفظ العبري، أو " القنطار " كمـا هو في العربية، ويساوي القنطار ألف مثـقال. وورد في هذه الوثائق تعـابير مثل " العـملة القديمة " و" العـمة الثقـيلة " و" القطع المربعـة" وغير ذلك، سواء ذلك بالعـبرية والعـربية والاسـبانية .

التقلبـــــات النقديـــــة

تطلعنا أدبياتنا الفقهية على تقلبات القيم النقدية الهامة التي كانت تحدث بين مختلف القواعد النقدية، كالذهب والفضة والنحاس، وهي تقلبات كانت تحدث في المغرب في السنوات الأولى من القرن السابع عشر، وكانت تتسبب في كثير من المنازعات، أثناء البث في قضايا الشروط المثبتة في عقود الزواج ، أو أثناء الفصل بين الدائنين والمدينين . ولم تكن هذه القضايا غريبة عن السلطات الربية، وقد اتخذت هذه السلطات إجراءات قانونية ذات طابع عام، ثلاث مرات متتابعة. إذ أصـــدرت في السنوات 1605 و 1607 و 1609 " تقنوت " أو فـــتـــاوى جماعية يفصل بموجبها في هذه القضايا المالية المترتبة عما كان يطلق عليه في مصادرنا " ارتفاع قيمة النقد ".

وهكذا " صدر فـــي يوم السبت السادس من عام 5365 للخليقة (بداية 1605)، أمر سلطاني عام، أعلن عنه في كل مدن المملكة، مؤداه أن المثقال الذهبي الذي وزنه اثنا عشر " بونديون "، والذي كانت قيمته حتى ساعتها تساوي ست أوقيات، أصبح الآن يساوي سبع أوقيات ونصف الأوقية، وأن " لـمُعَه " (المُزَنّا) الفضية، التي وزنها ثمان بونديون، والتي كانت قيمتها حتى ساعتها، ما مقداره اثنا عشر بونديون، صارت من ساعتها تساوي خمسة عشر بونديون...وقد تسبب هذا الإجراء في منازعات بين المدينين والدائنين، إذ طلب الدائنون زيادة مـــا فـــوق الديْن الأصل، بينما رفض المدينون ذلك... ونظرا لأسباب قاهرة تدعو إلى أخذ المصلحة العامة بعين الاعتبار، فإننا قررنا إعفاء المدينين من أداء كل قيمة ترتبت عن تغيير القيم، إلا في الحالات التي يتضمن فيها عقد الدين، بندا خاصا يلزم المدين، بأداء ما استدانه من قطع ذهبية أو فضية.

مع مراعاة القيمة الجديدة، عددا ووزنا، في حال صدور أمر سلطاني تغير بمقتضاه القيم ... ولا تسري مقتضيات هذه " التقنة " إلا على عمليات القرض التي حدثت بعد شهر كسلاو 5343 (نهاية 1582)".

وأثارت " التقنة " الثانية أولا، مسألة تغيير قيمة النقد التي أثارتها سابقتها، والتي حدثت بالضبط في شهر كسلاو 5343 (نهاية 1582)، حيث ارتفعت القيمة المعدنية (الذهب والفضة) أول مرة: فارتفع المثقال الذهبي إلى ست أوقيات بأمر سلطاني و" لـمَعَة " (لـمُزُنَا) الفضية إلى اثني عشر بونديون ..." ثم تطرقت هذه " التقنة " الثانية إلى موضوعها الخاص بها : " في هذا اليوم المؤرخ بـ 3 أيار 5367 (1607)، قرر السلطان ارتفاعا جديدا في قيمة النقد بحيث أصبحت قيمة المثقال تساوي عشر أوقيات وقيمة" لمعة " (لمزنا) الفضية، ربع مثقال أو عشرين بونديون..."

وبقي هذا القرار ساري المفعول حوالي سنتين، حتى فاتح أدار الأول من سنة 1609/5369، وهو اليوم الذي انخفض فيه سعر المثقال من عشر إلى ثماني أوقيات، على إثر حدوث انتفاضة داخلية، وأصبح المثقال يساوي عشر أوقيات في 18 تموز من نفس السنة، بعد أن استولى مولاي عبد الله على مدينة فاس، وحينئذ قررت السلطات الربية إلغاء كل "التقنوت " التي صدرت على إثر التقلبات النقدية التي حدثت سنوات 1582 و 1605 ليحل محلها " تقنوت" 1609 (آب 5369) التي جاء فيها : "من الآن فصاعدا، يتحمل تبعات التغييرات الطارئة في الموازنات النقدية، كل من الدائن والمدين بالتساوي، ويوزع فارق القيمة الطارئ، ما بين يوم السلف والتسديد، مناصفة، بين المتعاقدين ..."

ونظرا لدور الصناع اليهود في ضرب النقود رسميا وصناعتها، المتمثل في صهر وتصفية المعادن وسك النقود، فإن هذه ستكون موضوع حديثنا، عندما نتناول بعض النصوص المتعلقة بالصناعات اليهودية .

الموازين والمكاييـــــل

تختلف قيمة الوحدات تبعا للمواد، كما تختلف قيمتها من مدينة إلى أخرى، وبالإضافة إلى هذا، فإن مما يعقد الإطلاع على الأنظمة المحددة للمكاييل، هو استعمال محرري المراسيم والفتاوى، مصطلحات مستقاةً من لغة التلمود، ويصعب أن يوجد ما يقابلها في اللهجات المحلية.

أسماء الموازين

منها: بالعبرية " كيكار "، الذي هو بالعربية." قنطار " و" رطل "، الذي قد يعوض بلفظ آرامي هو" ليتراه " وجمعه " ليتروت " أو" ليترين ". ثم " أوقية "

مكيال السوائل ومنه: " كور " وجمعه " كورين ".و " بَّانيكاس " .

مقاييس المساحات: " أمَّاه ". أما الأثواب والكتان والأقمشة، فتباع وتشترى جملة بالقطعة . وبعض أنواعها تباع عادة بالوحدة .

وتقاس بالقنطار المواد الصلبة والسائلة على حد سواء، مثل الكبريت والشمع والعسل والحليب والزيت والجلد والدخان .

ويساوي الرطل نصف كيلو، ومائة رطل تساوي قنطارا و" اللتراه " هي المكيال الوزن الروماني وجاء في النصوص التلمودية بصيغة "ليبرا" أو "ليترا".

ونسبة " الأوقية " إلى " الرطل " هي النسبة التي بين 1/16 إلى 1/8.

واستُعمل" الكور " في التلمود. مكيالا للحبوب. يكال به الشعير والقمح. وربما قصد به صاحب الفتوى مكيال " الصَّحْفا " (انظر أسفله).

واستُعمل المكيال المسمى بالاسبانية " بَّانيكاس ". مما توزن به سعة "محتوى جراب أو حمولة" للقمح. وهناك مكاييل أخرى مثل " المد" للحبوب. و" الصحفا "وتساوي ستين مدا. و" القُلّة " للزيت. ومقدار سعتها تسع ليترات تقريبا .

ويقاس القماش بالذراع. وهو ما يعبر عنه بالمصطلح العبري " أماه " وبالعربية " القَالا" أو " الذراع " وهو 55/56 سنتمترا .

أثمان وأجور

تختلف أثمنة المأكولات الغذائية تبعا للفصول. غير أن تقلبات الأسعار الهامة. وخصوصا أسعار الحبوب. تخضع للتقلبات الجوية وأحوال الطقس. أو للظرف السياسي: ويحدث ارتفاع الأسعار بسبب القحوط والجاعات الكبرى. أو في فترات اضطرابات الحكم .وتنخفض الأسعار مع قطرات المطر الأولى التي تبشر بمحصول جيد. أو بمجرد انحسار الاضطرابات واستقرار الأمن..

واتضح أنه في سنة 1731 التي تميزت بارتفاع الأسعار. كان "الثمن الأدنى لـ 24 حملا (بنيكاس) من القمح. يساوي 36 مثقالا " " وفي سنة 1750 ارتفع الثمن التجاري لـ 100 " كور" من الشعير إلى 220 أوقية " وبلغ ثمن كور واحد من القمح. 22 أوقية وأربعة أثمان وفي

1552. وهي فترة جفاف. بلغت " الصحفا " من القمح ست أوقيات وبيعت بعد نزول المطر بأوقيتين ونصف .و عم القحط في مارس ،1606 إلى درجة أن ثمن " ربع القب " =(المد). بلغ 19 أوقية. وفي سنة 1611. بلغ ثمن " الصحفا " من القمح 40 أوقية. وفي يناير 1612 بلغ 60 أوقية .وفي نهاية 1613. بلغ 20 مثقالا. وفي يناير 1614 ارتفع إلى 300 أوقية .وفي سنة 1651 . وهي فترة مجاعة وفتن. كان ثمن " المد " من القمح يساوي خمسة دراهم في فاس .

والنصوص الفقهية المتعلقة بتجارة المواد المحلية أو المستوردة. غنية جدا بالأخبار. من ذلك :

أن الكبريت بيع في سلا. سنة 1728. بسعر 102 أوقية للقنطار الواحد. "وهذا ثمن يفوق قيمته العادية. ما كان يحدث لولا تأخر البواخر عن الوصول ".

" وبلغ هنا في المغرب . ثمن شراء خمس عشرة [قطعة] من "لَكُسي ". وعلى الخصوص الحريرية منها. والتي بعث بها الربي إسحاق إلى أبراهام. بجبل طارق. 530 أوقية. حسب ما هو مسجل في سجل الحسابات. وهذه الوثيقة نفسها سجلت ثمن 18 " مخدات " مدورة بـ 140 أوقية. أي قيمتها هنا في بلاد المغرب ..." وقدر ثمن قطعتين من الثوب الملون المسمى " بانيو " من النوع المتوسط بـ 350 أوقية للقطعة. وقدرت قيمة 67 رطلا (لترين) من شراف الحرير بسبيكتين ذهبيتين. كما جاء في وثيقة مؤرخة بـ 1720. وكان ثمن شراء عشرة أزواج من الكتان الشفاف. من نوع " كامبري " بألف أوقية. حوالي سنة.1720.

وحددت في الرباط قيمة دخان دكالة والحشيش بـ 30 أوقية للقنطار (كيكار). وقنطار الكيف بـ 80 أوقية . أما ما يتعلق بالدخان المكناسي أو السلاوي المسمى بـ " طباخو ". فينبغي أن يتبع التسعيرة الأسبوعية لسوق مكناس.(كما نصت على ذلك وثيقة محررة بالرباط سنة 1802).

وفي مجال آخر. تعرضت فتوى مؤرخة بسنة 1749. أثناء قضية رهن. إلى أن مبلغ الكراء الشهري لغرفة في الطابق السفلي. في إحدى الدور بتطوان خارج الملاح. وصل إلى نصف أوقية قديمة (من الفضة الخالصة) . وفيما يتعلق بالكراء. فإن السلطات الربية ترفض بصفة مطلقة. أي زيادة يطالب بها المالكون. خصوصا كراء المساكن. ولو كانت هذه الزيادة مبررة بارتفاع الأسعار العام .

وتشير وثيقة مؤرخ في 1705. إلى أن ثمن الدخول إلى حمام الغسل لم يكن يتجاوز في تلك الفترة. موزونة واحدة من الفضة.

أتاحت لنا نصوص أخرى سبق أن تعرضنا لها في الفصل السابق. الفرصة للإطلاع على بعض أثمان الخدمات والأجور. مثل أجور القضاة السامين وأعوان القضاء وكتاب الضبط والساهرين على الشؤون الدينية. وتتعرض وثائق أخرى إلى مبالغ العقوبات التي يتعرض لها من يخرق القرارات الربية. وإلى مقدار الإسهامات المالية والضرائبية .

التجـــــارة

سبق أن رأينا في الفقرة السابقة. كيف كان يروج لبعض مواد التموين. وسننظر الآن في بعض الوثائق الأخرى التي تزودنا بمعلومات

أكثر أهمية، حول تنوع مواد التبادل، وبصفة عامة، حول الأنشطة التجارية التي كونت نشاط الطوائف اليهودية المغربية .

توجد التجارة الكبيرة بين أيدي أقلية كانت هي صاحبة رؤوس الأموال والصلات الوطيدة مع المخزن. كما كانت لها وسائلها الخاصة التي بها تحصل على المعلومات ذات الطابع الاقتصادي، عن طريق مراسلين دوليين .وكانت تحتكر تصدير المواد المحلية كالحبوب والجلد والفرو والشمع وغيرها. وهي التي كانت تستورد مختلف مواد التموين، وكذا النسيج .

وكان هؤلاء التجار الكبار أكثر تشددا في معاملاتهم التجارية مع إخوانهم في الدين، من تجار التقسيط الصغار، وأصحاب الدكاكين في الملاح أو السوق " السواقة " والمتجولين ببضائعهم في البوادي، ومن أولئك الذين يجمعون النتاجات المحلية لحساب موكليهم أو شركائهم في المدن .وتعرف هذه العملية باسم " تادوواست " ويسمى الذي يقوم بها " دوواس " (بائع متجول).

وتكون المبالغ المخصصة لهذه الأعمال هائلة أحيانا، كما يشهد بذلك سجل حسابات عاينه أحد الربيين من فاس في سنة 1735، حيث بلغ مقدار ما يروجه شخص واحد 20000، 51000، 30000 أوقية على التوالي .

تجارة الحبوب

يتجر تجار الحبوب في إنتاج أراضيهم الخاصة (انظر فيما بعد، الأنشطة الزراعية لليهود المغاربة). غير أنهم يتجرون بالأساس، في المواد التي تشترى من الأسواق أو المحاصيل التي يسلمها لهم الفلاحون،

رهونا لتسبيقات مالية متفق عليها، أو تلك المواد التي يتلقونها أداء لديونهم .

وتذكر وثيقة مؤرخة بـ 1706، أن شريكين توجها إلى دكالة لشراء الحبوب ... بعد الحصاد في الصيف، لكي يبيعاها في الشتاء عادة قبل عيد الفصح، عندما ترتفع الأثمنة .

وتصدر الحبوب، أو تخزن في عين المكان للاستهلاك المحلي. ويذخرها الخاصة في خزانات أو بيوت المؤن المعدة لذلك " مخزن المونة " .وتذكر فتوى مؤرخة بـ 1751 أن :" حمولة من القمح حملتها باخرة من البرتغال، باعها بن دلاك إلى باشا مدينة طنجة، وبدل أن يتسلمها المعني، حولها شريكه بن زاقن إلى تطوان "

تجارة النسيج :

يبدو أن هذا النوع من التجارة كان مزدهرا جدا، كما تدل على ذلك كثرة الفتاوى الواردة في شأنه. واخترنا بعضا منها، حيث وقفنا على صفقات همت أنواعا من الأثواب المستوردة التي سجلت في عقود التوثيق أو في سجلات المحاسبة، مثل الثوب الموشى المعروف بـ "دامسكيتيو " (بالاسبانية دامسكينيو) و" الملف " وهو (قماش صوفي)، و" الفستان "، وكلها كانت تستورد من جبل طارق. " وبرناطا ". وهي عبارة عن قماش صوفي غليظ ذي لون أزرق-أسود. وقطع من " كتان الكامبراي ". وهو ثوب من الصوف يسمى " كاليماكو " و(كتان كامبراي الشفاف) وكتان هولندا (يولندا).

صناعة التقطير وتجارة شمع النحـــل :

كـانت هذه الصناعـة تعـرف علـى نطاق واسع فـي المدن المغـربيـة الرئيسـية. وكـانت من احتكار التـجار اليهـود. الذين كانوا يصـدرون خام الشمـع ثم يسـتـعملون بقـايا التقطيـر فـي شراب "مـاحيـا " الذي كان يستهلك بكثرة في الملاح. وتعرضت فتوى حررت في فاس سنة 1714 إلى اتفاق جـرى بين تاجر كبيـر يتاجر فـي الشـمع. وهو ش .ت هاكـوهن. واحد وكلائه. وهو ج بيباس..والتزم هذا الأخـير فـي الاتفـاق المشـار إليه. أن يسلم لشـريكـه 107 قنطارا من الشـمع بثـمن سـبعين أوقيـة للقنطار.... وليتم هذا التسـوق فـي أسـواق طنجة وسـلا وتطوان. فإن علـى بيـباس أن يكون مصحوبا بتصريح خاص من صـاحب الجلالة. سبق أن سلمه أحد العمال إلى ش .ت هاكوهن.

وإلى هذه الصناعة أشـارت فتوتـان متأخـرتان نسبيـا. حيث أرخت أولاهما بـ 1793 وثانيـتهمـا بـ 1794. وتتعـلقان معـا بتسـوية إرث حق الانتفاع بـ" معصرة "كان يصنع بها خام الشمع.

تجـــــارة الدخـــــــان :

احتكر عـدد من التجار اليهـود تجارة الدخان (صـاكا). بناء علـى حق خـولتـه لهم خزينـة الدولة. وكـان ينتج عن نقل هذا الاحـتكار والمزادات العلنية ومختلف الصفقات والمعـاملات المتعلقة بهذه التجارة. منازعات لم يكن أمـرها يخـفى عن السلطات الربـية. كـمـا يدل علـى ذلك قـرار محكمة سلا المؤرخ بـ 1802.

تجارة الجلود ودباغتها

كانت الجلود التي يتولى اليهود دباغتها، موضع صفقات محلية قبل أن تصدر. وكان دبغ الجلود في الصويرة، إلى عهد قريب، يتم في حي بضاحية المدينة، في مكان يسمى " الـمَنْشَر ". (مكان نشر الجلود).

وجاء في فتاوى حررت بفاس، سنة 1706 أن " المدعوين سلمون بن دانان وأهارون بن أموزيغ، التزما بأن يدفعا إلى موسى ماسياح، مبلغا قدره 5600 أوقية نقدا، من الفضة القديمة الخالصة، بتاريخ 15 سيوان 1703/5463، أو أن يسلماه مقابل دينهما، 200 قنطار من جلود البقر، بمعدل أربعة جلود لكل قنطار من النوع الجيد والسليم، مما يمكن المتاجرة به في السوق المسيحي بتطوان. .

بساتين الزيتون وعصر الزيت

مما يشير إلى هذه التجارة ما جاء في فتوى مؤرخة في 1718، حيث تقول:" جرت العادة باقتناء بساتين الزيتون في بعض المناطق الفلاحية، مثل صفرو... واشترى في العام الماضي داودُ غلةَ بستان الزيتون، بثمن أربعة قنطارات فضية. وبعد أن قطف الزيتون وعصر زيته، أعلن أنه تحمل خسارة قيمتها قنطار فضة ونصف." (مشباط I 42)

وتحدثنا الوثائق المتبقية عن صفقات تتعلق بريش النعام و"الأحجار الكريمة المستوردة من بلدان بعيدة" وعن تجارة الذهب والمعادن الثمينة، مما سنتعرض له فيما بعد.

كما تعرضت أيضا وثيقة، حررت في مكناس سنة 1719، لطلبية بشراء قيتارة من جبل طارق، وكذا عن استيراد " نسخة حديثة من تشريع ابن ميمون وشروحه "

الصناعة الحرفية

صاغة المعادن الثمينة (1)

جرى العرف، في إطار تقسيم العمل الذي يبدو أن الصناع اليهود والمسلمين كانوا قد اتفقوا عليه منذ تاريخ طويل، بأن اختص اليهود ببعض المهن والصنائع، وخصوصا تلك التي تستعمل المعادن الثمينة، مثل الذهب والفضة والأحجار الكريمة والجواهر التي تتطلب دقة في الصنع، ومن هذه:

دار السكة

عندما كان السلاطين يأمرون بصك النقود، كان الصناع اليهود والمسيحيون هم الذي يقومون بهذه المهمة، في دار السكة بفاس، تحت إمرة " أمين" مسلم، كما يدل على ذلك ما جاء في وثيقة حررت سنة 1751، إذ جاء فيها أن: " السلطان فوض أمر دار السكة لتجار مسيحيين، وترك لهم حرية اختيار من يشاءون من أهل المهنة، واستخدم هؤلاء ثلاثة صناع من اليهود، هم يوسف وموسى ومردوشيه، في صهر الفضة وتنقيتها... وحرر هؤلاء الثلاثة اتفاقا سجلوه بتاريخ 23 أدار 1746/5506، وسلموا منه نسخة إلى التجار المسيحيين، ينص على أنهم سيوزعون فيما بينهم مادة عملهم في دار السكة بالتساوي، على أن يمارس كل منهم عمله في طرق الذهب في وقت فراغه ويحتفظ بكامل ربحه لنفسه "

---

1 - أنظر Les Juifs du Maroc p.163-166 ودراستنا

Artisant des métaux précieux et problèmes dans les décisions des tribunaux rabbiniques de Fès aux XVII/XVIII siècles, in les Juifs et l'Economique, PUM, Toulouse, 1992, p .41-53.

ونشير هنا إلى أن الحرفيين " الطُّرَّاق " يطرقون المعدن يدويا. ويصنعون منه أوراقا رقيقة .

وفي هذا الصدد. جاء في " تقنة " مؤرخة في سنة 1750 أنه: "يمنع على كل يهودي أن يصنع الدنانير الذهبية والقطع الفضية. كما يمنع عليه أن يكلف غيره بفعل ذلك. سواء كان يهوديا أو غير يهودي. وسواء كان ذلك في الملاح أو في فاس الجديد أو في فاس البالي . وأن الدنانير لا تضرب إلا تحت مسئولية " الأمين " سي عبد القادر الجواهري. أو أي أمين آخر وُكِل إليه ضرب السكة...ويمنع بالإضافة إلى ذلك. إرسال الذهب والفضة إلى أي مدينة أخرى لنفس الغرض. أو بقصد ترويج هذه المعادن في سوق التبادل والصرف . وينبغي أن يظل أمر هذه" التقنة "ساري المفعول خلال خمس سنوات. وستتخذ عندها إجراءات مخالفة إذا سمحت الظروف بذلك. وإذا ما استرجعت الدنانير والقطع الفضية قيمتها التي كانت لها على عهد مولاي إسماعيل تغمضه الله برحمته..". لقد كان الدافع إلى اتخاذ هذا القرار. هو حماية الطائفة من الخسارة. وإعفاؤها من المنازعات الناجمة عن " رواج العملة الفاسدة التي لا تتمثل فيها قيمة المعدن الحقيقية..."

الصاغة

اشتهر الصاغة اليهود. سواء كانوا في فاس أو الصويرة. بحذقهم وذوقهم الرفيع. شهرة امتدت على مدى القرون. وكان يهودا بن عطار. وهو شخصية من الشخصيات اليهودية الجذابة خلال القرن الثامن عشر. " صائغا من ذوي المواهب. وظل يعيش من مهنته هذه. ويرفض أن يتلقى أي أجر من أموال الطائفة مقابل وظيفة القاضي الأعلى ورئيس المحكمة الربية اللتين كان يشغلهما بفاس."

وسمت الوثائق العبرية التي اطلعنا عليها، صاغةَ الذهب "صورفيم " ويقابلها في العربية " الذهابين ". كما سمت صاغة الفضة، " سكاكين " أو " صياغين "

من البديهي أن يتميز الحرفيون اليهود بالدقة وسرعة الإنجاز والابتكار. وينفذ " لـَمْعَلَّم " اليهودي ما يطلب منه بكثير من الخفة والذوق الرفيع، إذا ما قورن بزميله المسلم.... وهذا الحكم صحيح فيما يتعلق بصناعة الحلي. علاوة على ذلك، فإن الحلي التي صاغها يهود المغرب، تتميز بغنى صناعتها وتنوعها. ويحكي أحد رحالة القرن الثامن عشر الفرنسيين :" أن هيئة اليهود أدت للملك إتاوة، هي عبارة عن دجاجة واثنى عشر فرخا، صيغت من الذهب على جانب كبير من العمل الفني "

صناعة خيوط الذهب والفضة

تعد صناعة خيوط المعادن الثمينة والمصنوعات المتنوعة التي تعتمد هذه المادة الأولية الثمينة، أكثر الصناعات اليهودية ازدهارا. وجاء اسم هذه الحرفة في مصادرنا بصيغة عبرية - عربية هي "مليخْتْ اصْقَلِي" (مهنة الصقلي). ويطلق على أرباب العمل وعمال الحرفة "الصقليين ".

ويبدو أن هذه الحرفة جاءت في ركاب اليهود الأندلسيين القادمين إلى المغرب. ولقب عائلة " كوهن الصقلي " معروف في المغرب بأسره منذ قرون. وتعود أصول هذه العائلة إلى إشبيلية. ويروي الرِّبي يوسف مساس، أن ربيي فاس، الذين كانوا يلقبون بهذا اللقب، هم الذين نقلوا أبا عن جد، التقليد القائل بأن عوائل " كوهن - الصقلي " هم حفدة

الصناع الذين كانوا، في عهد هيكل القدس، ينسجون ملابس الكاهن الأعظم، بخيوط الذهب. وتلقب عوائل إسلامية بنفس اللقب، ويحتمل أن تكون هذه العوائل، وخصوصا الفاسية منها، من اليهود الذين اعتنقوا الإسلام .(1)

وورد في موضوع الحرف عديد من الفتاوى،(تقنوت)، منها فتوى حررت في سنة 1744 ، قصد حماية الصناع الفقراء والفرادى، من يشتغلون في صناعة خيط الذهب، من هيمنة جمعيات أرباب العمل والتجار، التي لا تخضع لقانون، ولا لترخيص من الحاكم الربية، أو تلك التي تعمل دون علم منها. وتدين هذه الفتوى اشتراك أكثر من اثنين من أرباب العمل أو الصناع، كما تدين تمركز رؤوس الأموال ووسائل الإنتاج بين أيدي تكتلات صغيرة قوية من عديمي الذمة، من :" أولئك الذين يجدون سعادتهم ولذتهم في تكديس الطمأ الذي به يصنعون خندقا يفترسون في حوزته التعساء من أهل هذه الدنيا والفقراء من بني الناس " (والنص هنا عبارة عن مقتطفات توراتية مركبة من آيات مأخوذة من أسفار صموئيل وحزقيال والأمثال) .

وينبغي التذكير هنا، بأن صناعة الذهب كانت دوما بين أيدي عدد محدود من أرباب العمل، ممن ينتمون إلى المهنة وممن لا ينتمون إليها. ومع ذلك، فهم وحدهم الذين كانوا يملكون رؤوس الأموال الكافية. وكانوا يتعاملون كتجار وممولين لا كتقنيين يحبون المهنة. وكانوا يستأجرون العديد من كبار الحرفيين لينفذوا لهم ما يريدون، وكانت القاعدة، أن الأعمال تنجز في أغلب الحالات ،تحت الطلبيات.

ا- تبقى نسبة اسم " اصقليين " إلى صقلية إمكان وارد.

تجارة الذهب :

الذين يمارسون هذه التجارة هم " الصَّرَّافون". وهذا هو الاسم العربي الذي سموا به في وثائقنا. أما الاسم العبري الذي كان يطلق عليهم فهو " الشولحنيم" [حرفيا أصحاب الطاولات]. وتعرضت فتوى سبقت الإشارة إليها، مؤرخة بسنة 1750، وأخرى مؤرخة بـ 1727 – وكان القصد من هذه الأخيرة تقنين طريقة مساهمات أعضاء التعاونية – لمقدار الرسوم والأداءات المختلفة، مما ينبغي أن يسدده كل ذي حرفة تبعا لحرفته " والتي فرضها عليهم الملك والخليفة والموظفون ومستشارو الدولة. وحُدد المبلغ بالتناسب مع رؤوس الأموال المستثمرة ومجموع المبيعات "

ونضيف إلى تجارة الذهب، صفقات حلي الذهب والأحجار الكريمة، التي جاء ذكرها عرضا، في وثيقة تحدثت عن نزاع تعلق بنوعية خنجر، صنع من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة، وقُدِّر بألف مثقال. وكان قد اشتراه أحد القُواد من الصياغين، ليقدمه هدية للسلطان، أثناء استقباله له، ليعفو عن هفوة كان قد ارتكبها.

وجاء في وثيقة مؤرخة بـ 1723 ، أن التبادل في سوق الصرافين، لم يكن ينحصر في القطع النقدية وحسب، ولكنهم كانوا أيضا يتبادلون بالبقايا المعدنية كـ " الـفَجْرا " (أوالسبائك المعدنية) أو قطع النقد المحفورة والمجزاة.

صناعات يهودية أخرى :

وجاء في المصادر التي رجعنا إليها ذكر لأنواع أخرى من حرف الصناع اليهود، مثل صناعة النحاس الأصفر التي يمتهنها " الصفارون ".

وصناعة الخيوط، والغزل، مما تصنع به الملابس الجاهزة والأثواب الموشية والمزركشة الغالية التي يحيكها " لَقْيَاطْنيُّون". والخياطون.ويسمى هؤلاء بالعبرية " الحياطيم ". وصناعة المشط لنفش الصوف، ويسمى أصحابها " لقراشليين "

ويبدو أن اليهود كانوا يمارسون أيضا مهنة البناء، والدليل على ذلك شيوع الصفة العبرية " هاباناي " (البَنَّاء)، التي أصبحت لقبا من الألقاب. فنجد مثلا إسحاق بار دينار بن شيمول هابناي، الذي ورد ذكره في فتوى محررة بفاس سنة 1731. ويذكر نص آخر محرر في نفس الفترة: " عرفا فاسيا يغرم كل بناء يهودي يبني منزلا على قطعة أرض في ملك أحد الأغيار..."

وتشهد وثائق أخرى على امتهان يهود المغرب، عدة مهن يدوية غير ما ذكر، من ذلك: صناعة الإبزيم، تطريز السروج، الحدادة، خراطة الخشب، تجارة العربات. وبالإضافة إلى المشتغلين بصناعة الألبسة من الخياطين، كان هناك صناع يصنعون القبعات أو " الشاشيات " وأحذية النساء المعروفة بـ " شْرابَل " المطرزة بخيوط الذهب أو الفضة . والحرير " تاحرارت ". وتطريز الثياب وعَقْد العُقَد والأحزمة وغير ذلك.

التعاونيـــــــــــات

من الألفاظ التي تتردد كثيرا في الوثائق التي رجعنا إليها، للدلالة على هذا النوع من المؤسسات ،لفظة " حِبْرَاه " التي تعني "زاويَا-جمعية " وتعاونية، ويطلق هذا اللفظ كذلك على مختلف جمعيات البر والاحسان ومجموعات قراء " الزهار " والمزامير، وما إلى ذلك من المجموعات المماثلة، ويدل لفظ " حِبْرَاه ". عندما يتعلق الأمر

بالأنشطة الاقتصادية، على مجموعة من الصناع، من يمارسون نفس الحرفة، أو التجار الذين ينتمون إلى نفس التجارة، وكلهم كانوا يخضعون لقواعد مهنية، حددتها الأعراف والتقاليد. كما كانوا يتآزرون جميعا، من أجل تحمل النفقات التي تفرضها السلطات العامة، وأداء المساهمات الواجب أداؤها للطائفة، مقابل حرفتهم. يراقبهم في كل ذلك " الأمين "، وهو رئيسهم والممثل الرسمي الذي تلجأ إليه السلطات الربية دوما، لفض النزاعات التجارية والصناعية التي تتطلب تدخله، بصفته خبيرا وحكما.

والانتساب إلى التعاونية اختياري، على الأقل من الناحية المبدئية، ويفرض على المنتسب أولا وقبل كل شيء، أن يكون عارفا بالمهنة، لتلبية متطلبات الزبائن المتشددة، وثانيا أن يملك رأس مال صغير يمكنه من شغل دكان أو حانوت صغير .

وينبغي أن نضيف هنا، أنه لا يمكننا أبدا أن نقارن التعاونيات اليهودية في المغرب، كما هو الأمر بالنسبة للتعاونيات الإسلامية المماثلة، بمثيلاتها التي كانت في القرون الوسطى أو في النظام القديم بفرنسا أو في باقي أجزاء أوروبا الأخرى، سواء على مستوى البنيات أو الوظائف، في صرامة التنظيم وهرمية التسيير وتماسكية العمل وغير ذلك.

وأطلعتنا النصوص التي درسناها، على بعض التعاونيات، مثل تعاونية " الصرافين "، التي جاء ذكرها في النصين أعلاه (تقنه 1750 وفتوى 1727)، وتعاونية الخياطين " حبرة هاحاياطيم "، التي أشار إليها حكم قضائي، حدد نوعية توزيع السخرة - وهي ضريبة خاصة بالتعاونية - بين المعنيين، (فاس 1749). وورد في وثيقة مؤرخة بـ 1722، أن " حِبْرة هاسوفريم "، أي تعاونية النساخ، تلتمس أن يعفى

أعضاؤها من أداء الضريبة. وفي هذا الصدد أثار انتباهنا مرسوم ربي، جاء في مخطوط من القرن الثامن عشر، وموضوعه " يمين قسم أعضاء تعاونية الصفارين ".

ولا نملك عن التنظيم داخل تعاونيات الحرف الأخرى، إلا القليل من المعلومات، إن لم نقل مجرد إشارات عابرة وبعيدة عن الموضوع. وفيما يتعلق بوضع القوانين المسيرة لهذه التعاونيات، نعرف أن أعضاء مختلف التعاونيات كانوا أحيانا يستشارون قبل الإعلان عن القرارات التي تهمهم، مثل ما جاء في " تقنه " مؤرخة بـ 1600، وتهم تعاونية الجزارين، و" تقنه " مؤرخة بـ 1750، وتهم تعاونية الصرافين.

وهناك مظهر آخر للحياة التعاونية يسترعي الانتباه، ذلك أن عمل التعاونيات لم يكن موقوفا على التجمع المهني وحسب، بل كان كذلك يؤطر الأعمال الدينية والفكرية المهمة. وهكذا نجد " النساخ يداومون عل تخصيص جزء مهم من وقتهم لقراءة التوراة، والجلوس أمام الأحبار لدرس نصوص " الجمارا " أو النص التلمودي المكتوب باللغة الآرامية، بعد صلاة الفجر في " اليشفاه "..." كما جاء في نص مؤرخ في فاس سنة1696.

والصناع والتجار الذين ينتمون إلى تعاونيات أخرى، يلتزمون هم أيضا بدراسة العهد القديم، و" الهالاخا ". أو القسم التشريعي في التلمود، وكتب " الزُّهار ". في أوقات معينة من النهار، أو خلال جلسات ليلية، كما أشرنا إلى ذلك في فصول أخرى، عندما تعرضنا لقضايا التعليم مثل حلقات الدرس والتعليم الليلي.

تمركز المهن :

يوجد داخل الملاح تجمعات طوبوغرافية بعدد الحرَف التي تعكس نشاط اليهود داخله، مثل سوق " الصرافين " أو سوق " ها شولحانيم ". وسوق سبك خيوط المعادن الثمينة، وصناعة الحي الأساسية، وسوق "الصقليين "، وسوق صناعة الجلد وغيرها...وكتب الربي يوسف مساس، قبل ثلاثة عقود، في كتابه " أوتصار هاميختابيم" (كنز المَراسيل) بحثا شاملا خصه لأسماء مواقع ملاح مدينة مكناس، حيث فصّل القول في أسماء الشوارع والأزقة والأسواق التقليدية والبنايات ذات الطابع المعماري المغربي، أو تلك الخاصة بالملاح، المستجيبة لمتطلبات الحياة اليهودية. يقول في فقرة منه: " عندما ننطلق من باب الملاح، نجد على التوالي، في جهتي الشارع الكبير، صفوفا من دكاكين التوابل والبزارة، وبائعي السمك والخضر والفواكه، ومجموعة دكاكين الصياغين (الذهابين)ومكتبة، وبائعي الحبوب، ودكاكين الخرازين والجزارين، وزنقة المخازن (مخازن الحبوب) و" فَنْدَق " تنزل به البهائم وعابرو السبيل، وزنقة الْبِيَع، وزنقة حوض الطهارة (مقوه طهاره)، وزنقة المقبرة، وزنقة العطارين، وبناية بيع المشروبات (طَبِرْنا...)، والجزرة (الكرنا) والحمام، وسجنا صغيرا خص لمرتكبي المخالفات الدينية، ممن تُصدر في حقهم السلطات الربية العقوبات، بعد موافقة السلطة المدنية على ذلك، ويحرسه حارس مسلم مسلح، وبالملاح أيضا، معصرة لاستخراج الشمع من شهد العسل ...ويبلغ مجموع هذه البنايات 250 بناية، فيها حوالي 1200 دار للسكن، ودكاكين ومخازن، إضافة إلى 300 إسطبل وزريبة حيوانات و6 مخابز، وهي جميعا بين يدي يهود، وتحيط أسوار عالية وضخمة هذه البنايات من جهاتها الأربع..."

وكـان الصناع والتجـار اليهـود يتـرددون على الأسواق الإسـلاميـة. قـصد تسـوق مـا يحتـاجون إليـه. وكـانت هـذه حـال المشتـغلين في دار السكة في فاس. و" الصـرافين " الذين كانوا يتـوجهون إلى فـاس البالي وفاس الجديد. لإبرام مـا يعقـدونه من صفـقات. وكـانت لهم بهذه الأسـواق أيضا دكـاكين تخصـهم. ففـي الصويرة. حـتى عهد قـريب. كان لليـهود الصناع والتـجار. أزقـة من الدكاكـين كاملة. خـارج الملاح. مثل." السُّـوق اجْديد ". حيث كانوا يبيعـون الكتان والأقمشـة القطنية. و" سوق لغزل ". وفيـه كانوا يبيعـون الصوف المغزول والمنسـوجات. و" لـخْضَّـارة ". باعة الخضـر والفواكه. و" الجـزارون " و" العـطــارة". باعة التـوابــل والسـكر والشـاي والدخـان. و" الحدادون ". وكـان يتجمع أصلا فـي هـذه السـوق. حرفيو صهر الحديد والمتاجرون فيه. ولا يوجد بها حاليا إلا تجار الجملة في السـكر والشـاي والخشب وغـيرها...).وكـان أيضـا فـي " السوق اجـديد " الصيـاغ بائعو الذهب.

شرطة الأســـواق :

يبدو أن الصـلاحيات الاقـتصادية المخـولة " للْمُتْحَـسِّب " بالمنطقة الحضرية. لم تكن لتمـتد داخل الحي اليهودي الذي كان يتمـتع باستقلال ذاتي كـامل. ومما لا شك فيـه فإن البـاعة كـانوا. يسـايرون الأثمنــة الجارية في المدينة. كما كانوا لا يغـفلون المنافسة داخل المـــلاح. ويظهر أنهم هم الذين كـانوا يحددون الأسـعـار داخله. ومع ذلك كان من مـهام "النكيـد " والسلطات الربية. ومن تـنتدبهم لذلك. أن يتـدخلوا لتحـديد سـعر بعض المواد الغذائية. وللسهـر على سلامة الصفقات. وقمع الغش والاحـتيـال. ومنع التـحـاق الأطفـال بورشـات الحرف. ليـتعلمـوا على يد أصحابهـا. قبل بلوغهم سن الرشـد الديني. وحتى يتمكنوا من مـتابعة

تعليمهم الابتدائي الذي يستمر إلى سن الثالث عشرة. ولقد سبق أن تعرضنا لهذا المنع في فصل التعليم.

وتشهد عدة إجراءات تشريعية على الرغبة في وضع الأمور في نصابها، ومراقبة السوق والمعاملات. وهذه بعض الأمثلة:

تُحدد " تقنه " مؤرخة بـ 1730، ثمن الكبد في "موزونا " واحدة لكل رطلين. وهذه المادة معفاة من الضريبة التي تفرضها الطائفة، وهي الضريبة المعروفة بـ " سيسا" ذلك أن الكبد مخصصة للفقراء الذين لا يستطيعون شراء اللحم. ويجب أن نشير إلى أن كلمة السر التي تلفظ عند الشراء لا يعرفها إلا اليهود، بسبب ثمن الكبد الزهيد. ومن يكشف سر الكلمة يعاقب بـ " الحرم" أو العزل.

ولقطع الطريق على الوقوع في الربا، واحتياطا من كل المناورات الهادفة إلى التحايل على القرض بفائدة، أصدرت السلطات الربية " تقنة " مؤرخة بـ 1603 جاء فيها: " يمنع على كتاب الضبط العدليين، تحرير أي عقود تتعلق ببعض المواد الغذائية، كالقمح والشمع والزبدة والعسل وزيت الزيتون والحرير، لمن لا يتاجر بهذه المواد " [لأنها صور خلفها التعامل بالربا].

- وتدين " تقنة " مؤرخة بـ 1649 كل الإدانة: " أولئك الذين يخلطون أنواع الدقيق المختلفة الجودة ليبيعوها بثمن الدقيق الجيد. ولا يُحدد مراقب السوق إلا ثمن القمح الذي يباع بالموازين، أما ما يخرج من المطاحين فلا يدخل في اعتباره... ولهذه الأسباب عين مراقبان لفضح مثل هذه الممارسات، ومعاقبة أصحابها بالغرامة والسجن "

أما تهريب البضائع، وقد وردت الإشارة إليه في نص قضائي، بمناسبة خلاف وقع بين تاجر كبير ووكليه الذي نجح في إخفاء بضاعة مستوردة، عن المراقب الجمركي لحسابه. فإن وجهة نظر السلطات الربية تختلف في أمره. ويبدو أنها تعودت على هذا النوع من التعامل، وأبدت تسامحها تجاهه، نظرا للثقل الضريبي الذي يثقل كاهل الطائفة اليهودية في معاملاتها المختلفة الأخرى.

النشاط الفلاحي والملكية الفلاحية

لم يتعرض الباحثون الأوروبيون الذين اهتموا بوضعية اليهود بالمغرب، في رحلاتهم وكتاباتهم، لموضوع الفلاحة وتربية المواشي على الإطلاق، ولم يعدوها من بين الأنشطة الاقتصادية لهذه المجموعة. وإذا ما أزاحوا ستار الصمت عن هذا الموضوع، فإنهم يؤكدون : " أن اليهود ما كانوا يملكون لا أرضا ولا بساتين " . في حين نجد سلوش N. Slousch، يمر في رحلته، أثناء مهمته في الأطلس المغربي، سنة 1914 ب: " قرية منصور التي كان بها خمس وعشرون عائلة من الفلاحين " ويشير اندريه شوراكي إلى : " أنه يوجد في الجنوب المغربي، عديد من الطوائف المحدودة العدد التي كانت تتعاطى الفلاحة منذ أزمنة ضاربة في القدم "

ويورد المؤرخ الإسرائيلي هيرشبرغ H. Hirschberg . مستشهدا في أغلب الأحيان بفتاوى الگاوونييم أو وثائق " گنيزة " القاهرة، أن : " يهود المغرب، كانوا يكسبون بعرق جبينهم من ملكيات زراعية صغيرة، وكانوا يحصلون على قوتهم بالعمل في الزراعة وتربية المواشي . وكانوا يتعاطون الفلاحة، مع العلم أن هذه كانت تعتبر اجتماعيا من المهن الدونية..".وفي دراسات دافيد كوركوس، الخاصة باليهودية المغربية، بعض الإشارات لهذا النوع من الأنشطة، غير أنها قليلة جدا.

ولا شك أن السبب في قلة عدد اليهود المنشغلين بالمهن الفلاحية، يرجع لانعدام الأمن أساسا، ولأسباب اقتصادية واجتماعية أيضا. وربما يرجع كذلك لاشمئزاز اليهود من الأعمال الجسمانية الشاقة ذات المردود القليل، والتي تتطلب الوقت الكثير. ولنلاحظ أن أيام الشغل في الحقول، لا تسمح في غالب الأحيان، للمزارع اليهودي، بأن يتفرغ للدراسة، ولو بمقدار ساعة واحدة في اليوم. والساعة هي الحد الأدنى الذي يفرضه الربانيون للدراسة والنظر في التوراة. وكان اليهود يتجهون أكثر إلى المهن الأخرى، خصوصا التجارة، حتى يتمكنوا من تكريس أكبر وقت ممكن للدراسة تبعا لما فرضته متطلبات العقيدة. ودون أن يخلوا في نفس الوقت بأعمالهم اليومية . والحقيقة أنه كان لليهود حضور في البوادي المغربية، حيث كانوا يملكون أملاكا عقارية، إذ أنه لم يكن يوجد أي عائق يعوقهم عن ممارسة حق الملكية حيث كانوا يشتغلون في الأرض ويعيشون من إنتاجها بجانب مواطنيهم المسلمين الذين تجمعهم وإياهم المصالح المشتركة، كما تشهد على ذلك الوثائق القضائية، والشهادات التي سوف نحللها فيما سيأتي، وهي أكثر فائدة من المعلومات الجزئية والمتباينة التي أشرنا إليها أعلاه .

وهكذا يتضمن قرار محكمة ربية بفاس، أطلعنا عليه، صدر في شأن إحصاء إرث، من جملة ما يتضمن : " بنايات وحقول وكروم ". ومن المرجح أنها كانت توجد بمنطقة دبدو، إذ أن أحد الأطراف المعنية، وهو أهارون بن يوسف الصقلي، كان من أهل هذه المدينة. غير أن القرار المحدد لنوع التقسيم كان قد اتخذ بفاس سنة 1758 .

وجاء في حكم قضائي سابق، ويتعلق بيهودي : " استأجر ملكية أحد الأغيار، إنه كان يحرث ويزرع ويحصد ويجمع السنابل أحزمة، ويقوم بكل الأشغال في الحقول وفي الكروم ".

وتعرض نص آخر لحالة يهودي (يتجر) في إنتاج حبوب حقله .

وفي شهادة تعود لبداية القرن 19، وهي عبارة عن قرار صدر عن أحبار مكناس اشترط: " أن الحقل الذي يملكه الأغيار... لا يصح أن يطبق عليه حق الجلسة أو المؤسسة، تجنبا لكل المزايدات والمضاربات ..". غير أن محرر القرار أضاف: " أن أشغال الحقول الشاقة، وأقساط إيجار الأرض التي ينبغي تسديدها نقدا، والمصاريف المختلفة التي تجعل الاستغلال أقل مردودية، كلها تبعد اليهود أكثر فأكثر عن مزاولة الفلاحة ".

وكانت النزاعات الشرعية الخاصة بالأملاك العقارية بصفة عامة، وتلك المتعلقة بالامتيازات والرهونات العقارية، مثل الملكية وحق التقادم ورهن الحيازة العقارية وغيرها، على الأخص، مواضيع غنية في الفتاوى الشرعية اليهودية.

ومما تؤكده شهادة من عين المكان ، سمعناها قبل عشرين سنة، في وادي تودغا : " أن اليهود الأغنياء كانوا أصحاب أملاك عقارية، وكانوا يملكون حقولا وكروما وعددا كبيرا من النخيل... ".

وجاء في وثيقة أقدم، وهي مقدمة كتاب تضمن مجموعة مواعظ، ونشر في برلين سنة 1712 ، قصة سبق أن أشرنا إليها في الفصل الأول من هذا الكتاب، وتتعلق بعائلة بريس التي " هاجرت من الأندلس في سنة 1492، لتستقر في نفس هذا الوادي من الأطلس، في مملكة سلطان مراكش (هكذا) حيث أشترت أرضا في دادس، ثم شيد فيها الأحفاد منازل سكنوا فيها في أمن وطمأنينة، وكانوا يعيشون على الفلاحة وتربية المواشي ".

قضايا ملحقة

المنازعات التجارية والعقارية

من الطبيعي أن تطرح كل هذه الأنشطة الاقتصادية التي أوردناها، سواء كانت تجارية أو حرفية أو فلاحية، أو ذات طابع عقاري يمس الملكية العقارية، نزاعات تجعل السلطات الربية تعايش قضاياها يوميا. وكان عليها أن تعطيها ما تستحق من الاهتمام، وتقضي فيها طبقا للشريعة الربية التي نص عليها التلمود ومختلف الشرائع، وجرى بها العرف والعادة المحليان السائدان في الأمور المدنية، وبالأخص تلك المتعلقة بالحق العيني والمنظمة لقانون الملكية والالتزامات.

ومن المعلوم أنه كلما انحصر أمر هذه النزاعات بين مدعين يهود، كان اسهل نسبيا. ويكون الأمر أكثر تعقيدا إذا كان الطرف الثاني غير يهودي، سواء كان هذا الطرف شريكا أو مجرد خصم أو طرفا مورطا غير مباشر في النزاع بسبب تعقيد العمليات. وسواء كانت هذه العمليات بتعاقد مكتوب أو بتعاقد شفوي. وفي واقع الأمر فإن التعامل بين اليهود والأغيار كان أمرا طبيعيا، لأن السكان المسلمين كانوا هم القاعدة العريضة التي تكون الزبائن والمشترين والمستدينين وأحيانا الدائنين. وعندما كانت تتعدى قضايا هذا النوع من النزاعات - وكانت كثيرة - صلاحية المحاكم اليهودية، فإنها كانت تعرض أمام القضاء الإسلامي.

غير أنه كان ينبغي على السلطات الربية، أن تسهر على سلامة العلاقات فيما بين المتنازعين اليهود، وأن تعمل على التقيد بالقرارات القضائية، وأن لا تستهون العواقب التي يمكن أن تضر بمصالح ذوي الحقوق كالشركاء والورثة وغيرهم، أو مصالح الطائفة بأكملها. هذه الطائفة التي تعتبر أحيانا مسئولة، بفعل التضامن، على نتائج بعض

النزاعات. وقد تعرضنا، أثناء تناولنا للتنظيم القضائي، إلى علاقات المحاكم اليهودية بالتشريعات الإسلامية، وخصوصا التجاء المتقاضين اليهود إلى الشريعة الإسلامية وممثليها لحل بعض النزاعات .

وبطبيعة الحال، تُقضى كل الخصومات التي تحدث بين اليهود والمسلمين، أمام المحاكم الإسلامية. فيقضي فيها الباشا أو القاضي، تبعا للحالة. والسلطات الربية هي التي تقضي في القضايا المدنية أو العقارية التي تحدث بين اليهود أنفسهم، ولا يتدخل الباشا في هذه القضايا إلا إذا عجزت السلطات المشار إليها عن فك النزاع. والأكثر من ذلك، فإن مهمة الباشا لا تتعدى سلطاته المدنية، ولا يتدخل بأي صورة من الصور في عمق القضايا.

ونتعرض الآن لبعض مواقف السلطات الربية المغربية، تجاه بعض النوازل التي كانت تعرض دوما أمام المحاكم، أو تلك التي كانت تستفتى فيها على مر الزمان. ومن بينها قضايا القرض بفائدة، وتنظيم القرض، وعقد الشراكة، والمنازعات العقارية، وتلك المعروفة في المصطلح الفقهي العبراني بـ " الحازقاه". ويتسع معنى المصطلح لمفاهيم عدة. وهكذا فهو يدل في نفس الآن على نوع خاص للتملك والاحتفاظ بملك، والتقادم، وحق الاستمرار أو حق شراء مفتاح عقار، وحق التمتع بملكية، وغير ذلك.

القرض بالفائدة ومحاربة الربا

يحرم القرض بالفائدة تحريما، ووردت إدانته أخلاقيا، في نصوص التوراة وشروحها التلمودية، وكذا في التعاليم القرآنية والفقه الإسلامي.

وتقيدت السلطات الربية نظريا، خلال العصور، بهذا المنع الذي عرفته العصور القديمة. غير أنها، قبلت التمييز بين الربا الصريح، أي الربا

المشروطة باتفاق شفوي أو عقد مكتوب، وهو محظور في التوراة، وما "يشبه الربا ". ويفترض فيه عدم وجود أي اتفاق مسبق بين المدين والمستدين. وليس للقانون المتعلق بهذا النوع من الربا طابع التشريع القطعي المطبق على الربا المشروط. على افتراض أن المدين أعطى "طواعية " فائدة مقابل الخدمة التي قدمها له الدائن، أو كأن هذا الأخير استفاد مباشرة من الأملاك التي أودعه إياها المدين كضمانة للدين.

ويسري ما جاء في التلمود، بخصوص قرض الفائدة، مما يمس المجال العقاري بالخصوص، على التجارة والصناعة والبنك. غير أن صرامة المبادئ هنا تتعارض أكثر فأكثر مع المتطلبات الاقتصادية الأساسية. وهكذا تفنن التجار في اختراع الوسائل المتنوعة للتحايل على القوانين المتعلقة بالقرض بالفائدة، بل استطاعوا، مع حظوظ متفاوتة من النجاح، تبعا للحالات المعنية، أن يجعلوا بعض الفقهاء يقرون بتحايلهم على الشريعة، مما الزم بعض التعديل في التشريع ليتلاءم مع بعض أشكال العمليات الربوية ويجيز شرعيتها.

وبما أن اليهودي لا يستطيع دوما أن يقترض مباشرة من أحد الأغيار، فإنه يلجأ إلى رأسمال أخيه في الدين، مستعملا جاره أو شريكه غير اليهودي، وسيطا في العملية، [ليتمكن مدينه اليهودي من الحصول على زيادة الربا المحرمة أصلا بين اليهود]. وبالرغم من أن التشريع التقليدي كان يدين هذه المناورة، فإنها ظلت مع ذلك مستعملة على نطاق واسع. وهكذا كان الأمر بالنسبة لتحرير كثير من العقود "الخادعة"، عقود" المهاترا ".

والتحـايل الأكثر انتـشارا. وكان التشـريع الربي يغض الطرف عنه. هو قرض الفـائدة الذي يكون على شكل عقد تجاري بعمولة. أو شـراكة بوصية أو شراكة برأس مـال. فيصير الدائن كالشريك يسـتفيد هو أيضا من الأرباح. غير أن ربحه يحدد مسبقا. ما يقلص خسارته إلى الحد الأدنى. وهكذا أصبح هذا النوع من التعاقد يبيح القرض بفائدة. ووعيا بخطورة الجرم المتـمثل في المخالفـة الإنسانية المجلبـة للضرر. وفي انتهـاك الوصايا التوراتية والأخلاقية. فإن القضـاة والمفتين اليهود المغاربة. مثل إخوانهم في طوائف الشـتـات الأخـرى. كـانوا شـديـدي الحذر. في تحـرير فـتـاواهم الجماعية والفردية. حتى يسدوا الباب أمام كل المناورات التي تتحايل على الشرع للتعامل بالربا. وكانوا ينددون بالعمليات الـحِـرفية أو التـجارية المتـمـثلة في مـخـتلف أنواع رهون الحـيـازة العـقـاريـة وعقـود الوصـيـة والشـراكة الـصورية. التي تـخفـي عـادة وراءها حـقـيقـة القـرض بالربا. مُقصرين ذلك على ما تسمح به الأعراف والعادات المحلية.

ولقد رأينا محرري الفتوى المؤرخـة بـ 1603. المشـار إليهـا أعلاه. يلزمـون كـتـاب الضـبط في المحاكم. برفـض تحرير العـقـود العدليـة التي تخص عددا من المواد الـغذائية. كـالشـمع والعسل والـزبدة وزيت الزيتون والحرير وغيـرها. لأي كـان. إذا لم يكن يتعاطى التجارة. حـتى يسدوا الباب أمام كل المناورات التي تتـحايل على الشـرع للتـعامل بالربا. بعقـود البيع الصوري ومختلف العقود الخادعة. عقود" المهاترا ".

وانطلاقا من نفس الدوافع. حررت فـتوى مؤرخة بـ 1607 للحد من الإفـراط الشـائع لذلك الاسـتـعـمـال النـاتج عن الأحكام التـشـريعـيـة الاسـتـثنائية المتـخذة لصالح الأمـلاك الخاصـة باليتامـى. وتدين الشروط المجحفـة غير الشـرعيـة. التي يفرضها الدائنون على مـدينيهم. مثل: أداء

ثمن كراء شهري مرتفع، لا يُنقص من قدر الدين، طوال مدة رهن القرض، وهو كراء يكون دائما أعلى من القيمة التأجيرية للعقار، ومثل التشبث بإيجاد طرف ثالث يلزم باسترداد العقار المرهون في أجل محدد ...

وتشترط هذه " التقنه " أن لا تتجاوز قيمةُ الكراء "الثمنَ المعقول" الذي يحدده السمسار الذي تعينه الطوائف، وأن لا تفرض أي كفالة لا من جهة رب الملك، ولا من جهة المكتري ضمانا للإيجار... غير أنها تجيز للدائن الحصول على رهن به يضمن ماله.

ورأينا، فيما يخص المضاربات النقدية، كيف قضى ربيو فاس، في المنازعات المالية الناجمة عن تغيير أسعار العملة، في السنوات 1605 و1607 و1609، ونظرنا في الإجراءات التشريعية ذات الطابع العام، التي اتخذوها لحل تلك المنازعات، وكان همهم في كل ذلك تحقيق الإنصاف والعدل .

وسبق أن عرضنا، فيما يتعلق بتجارة الذهب، لفتوى حررت أواخر سنة 1723 . وأشارت فيما أشارت إليه، إضافة إلى نشاط الصرف والتصنيع، وهو هنا صياغة الذهب، إلى عمليات قرض بفائدة مموهة، إذ الصراف هنا سلم مبلغا من المال للدائن نقدا، والتزم هذا الأخير بأن يعيد الدين بأكثر منه ذهبا لا نقدا، وهكذا يتحول القرض إلى عملية شراء للذهب، تَحَيلا على الأوامر الدينية المانعة للربا، ونجد أيضا الحبر يهودا بن عطار يندد بعبارات قاسية، بـ:" هذه الممارسة التي تنتشر كالوباء "، ولا غرض لها إلا أن " تغطي عين الشمس بالغربال " وهذا الاستعمال، مثله مثل كل العقود الخادعة، وخدع أخرى مماثلة، سيظل قائما ما دامت مهنة الصرافة موجودة، بل ما دامت التجارة تجارة، وما دامت هيئات الحرفيين قائمة .

ونشير أيضا إلى أن ربط القروض بقيمة المواد الغذائية أو المعادن الثمينة، غير جائز. " إذ عند تسديد الدين، يجب على كل مقترض مالا أو بضاعة، أن يعيدهما بسعرهما الذي كانا عليه ساعة القرض، ولا موجب لأي تقدير جديد، إلا ما يفرضه ارتفاع الأسعار أو انخفاضها.". كما جاء في قرار صدر في محكمة فاس سنة 1735.

ولنشر كذلك إلى بعض النصوص المتعلقة بالقروض الرِّبَوية المفروضة على الحاصيل، وعلى بعض التعاونيات التجارية الحقيقة أو الوهمية. وكان ليهود فاس، حتى مطلع القرن العشرين، سماسرة يسمون " السواقة "، وكانوا يوزعون المنتوجات المصنوعة في فاس، وتلك التي يستوردها الفاسيون، في المناطق الأمازيغية، ويجلبون منها المواشي... وقد لعب يهود صفرو، دورا هاما في هذه التجارة التي كانت تقوم على نظام القروض الطويلة المدى التي تدفع على أقساطا.(1)

قانون ملكية شديدة الخصوصية: " الحازقا " [حق التصرف]

تعني" الحازقا "- وهي كلمة عبرانية مشتقة من فعل" حزق " ذي الدلالة الثبوتية والسببية، التي من مرادفاتها أمسك وأخذ وملك واحتفظ وافترض - تصورا يتضمن عددا كبيرا من المفاهيم، من بينها على الخصوص، ذلك المفهوم الذي يعني نوعا من الاكتساب والتمتع والاحتفاظ بملك، وحالات " الحازاقا " جد معقدة، وللقانون الذي يحكمها خصوصياته التي ينفرد بها، مما لا يسمح لنا بدراستها دراسة وافية. وسنكتفي بعرض بعض نماذجها وبعض حالاتها، مما يمكّننا من الإطلاع على اهتمامات مجتمع الأقلية اليهودية المغربية .

1 - أنظر حول هذه القضايا كتابنا

Les Juifs du Maroc...Etudes de taqqanot et responsa, p.178-188.

كـان هاجس السلطات الربيـة منع المزايدات والحد من الصـفقـات الاحتيالية المجحفة بمصالح الطائفـة أو بعض أفرادها. بل كان شـغلُها الشاغل ضمـانَ أمن المجموعة وحـمايتها من هيمنة الجـيران الذين يشك في نياتهم. أو الذيـن يشكلون خطرا. وهذه جعلت السلطات. تَوَقِّـياً من كل ما سبق. تستوحي إجراءاتها من نصوص الكتاب المقدس والتلمود.

وكما تحدثنا عن " السررة " أو إرث النفوذ. مـــن قبل. فإننا نتحدث هنا عن " انتهاك ملكية الغير ".[من مثل حق التصرف]

وظهر. بمقتضى عديد من الأحكام الربية. عديد من أنواع " الحازقا". [أو حق التصرف]. مما يضمن بعض الامتيازات أو حق الإرفاق.[لأصحاب الحق المطالبين به]

وهكذا جرت العادة بمنع أي يهـودي. من أن يستـأجر منزلا أو دكـانا في ملكية أحـد الأغيــــار. إذا كان قد اسـتأجرهما يهودي آخـر من قبل. لأن للمسـتأجر الأول حقَّ الـ " حازقـا " أو حق التمتع. وحـرمانُه من هذا الحق بدون موافقته. عمل غيـر مشروع. ومن لا يعمل بمقتضى هذا يَسري عليـه " الحـرم ". أواللفظ من الجـماعـة. وبمقـتـضى فـتوى من الفـتـاوى الجماعية سرى العمل بهذا العرف في أوروبا. منذ القرن العاشر.

ويصـدق على أي مالك يهـودي باع أو اكتـرى ملكه الواقع في الحي اليهـودي. لأحد الأغـيار. أو الذي أَسنُد في نفس الآن. إلى أي مـالك يهودي آخر من الجيران. حق الشفعة. مضمونُ عـبارة الـ" حرم " .الذي يُوسَم به كل يهـودي ألصق به فعل هذه الجنحـة. والعبـارة هي:" لقد آويـت أسـدا داخل حدود ملكيتي " [الواردة في التلمود] (بابا قاما 114 أ)

وورد الحديث عن نوع خاص من " الحـازقا " [حق التصرف]في كـثير من الفتاوى التي يعود عهدها إلى القرن السابع عشر والثامن عشـــر. وهي المعـــروفـة في العبـــرية بـ" حازقت يشـوب " وفي لسان يهـود المغـرب بـ" حـازقت الجلسـة ". وتشـبـه " حق الجلسـة " في التـشـريع الإسلامي .

ومما لاشك فيـه. فإن الاهتـمام بـ" الحـازقا "[حق التـصرف] يمكن أن يفسـر انطلاقا من اعتـبارات عقائدية وهَمٍّ مـشـترك تشـترك فيه جـميع طوائف الشتات. قصد الحفاظ على هويتها وحماية مصالحها والحرص على أمن كل اليـهود. غـير أنه يجب ألا ننسى هنا. الظروف المحـلية. والعـلاقات الخاصة التي كانت قائمـة بين اليهود والمسلمين. ولا شك أن واقع الملاح وما يعرفه من ضيق. والقـيود المفروضة على إقامة التـجار والصناع اليهود في الضـواحي الحـضـرية والقـرى. كـانت كلهـا. بالنسـبـة للسلطات الربيـة المغربيـة. أسبابا إضـافية. للـميل دوما إلى الحـفاظ على " الحازقـا ". سواء كانت هذه تستند على الشريعة أو تستمد فعاليتها من العادات.

وفي هذا الصـدد جـاء فـي فـتـوى حـررت سنة 1603 مـا يأتي: " لا يسقط حـــق " الحازقا " عن أي إنسـان اضطر إلى بيع حـقـه التجاري لأحد الأغيار. احـتياجا أو تحت التهـديد...ويعد هذا عرفا مطابقا لفـتوى قديمة. نرى من المفـيد أن نتـممهـا بما يأتي: يحتـفظ بــ حق " الحازقـا " كل من تنازل عن ممتلكاتـه إلى أحد الأغـيـــــار. من قـد يبـيعـهـا هو بدوره إلى يهودي من اليهود ... وإذا عـرضت السلطات المدنية أرض يهــــودي للبيع. بسبب دَيْن في ذمـته. واشتـراها يهودي أو أحـد الأغيار. فـإن لمالكها الأول الحق في أن يحـتـفظ بـــ " الحـازقـا " على أرضـه تلـك. وعليـه عندها أن يقــــــدم " إشعار اعتــــراض " حسب القوانين المتبعة ..."

وجاء في فتوى أخرى ما يلي: " يعد ملفوظا من الجماعة، كل من اكترى أرضا دون علم صاحب الـ" حازقا ". ويطابق هذا القرار ما سبق أن أفتى به أجدادنا ".

غير أنه لا يجوز لمستأجري الأملاك المحبسة (أملاك الأوقاف)، والأملاك المخصصة للفقراء، والمؤسسات الدينية، أن يتمتعوا بأي نوع من أنواع "الحازاقا"، كما جاء في فتوى سبقت الإشارة إليها، وحررت سنة 1603.

واهتمت مختلف النصوص بالوضع الدقيق لليهودي الذي لفظته الجماعة بسبب اعتناقه الإسلام، الدين الغالب. وهكذا نجد وثيقة تعود إلى بداية القرن السابع عشر، تحدد الوضع القانوني لـ" المومار "، أو الذي خرج عن اليهودية، في خصوص " الحازقا ". تقول: " يحتفظ المرتد بالحقوق التي ورثها، أو اكتسبها هو نفسه عندما كان يهوديا . وإذا باع حقه التجاري بعد اعتناقه الإسلام لأحد الأغيار، أو إلى أحد المرتدين مثله، فإن " الحازاقا " تظل قائمة مع هذا الحق، وتنتقل بعد موته للأقربين من ورثته ... ويظل أي نوع من أنواع " الحازقا "– ما كان يملك عندما كان يهوديا، والتي باعها بعد اعتناقه الإسلام– حقا مكتسبا للأقربين، إذا كان المشتري من الأغيار، وإذا كان المشتري يهوديا احتفظ بحق الانتفاع بها..."

وفي نفس الموضوع، نقرأ في مرسوم آخر حرر في فاس في سنة1731 ما يلي:" باع يهودي اعتنق الإسلام حقه التجاري لأحد المسلمين... وطلب يهودي آخر، هو صاحب " الحازقا " المرتبطة بهذا الحق، ما يخوله له القانون، فحكمت المحكمة لصالحه ".

الفصل السادس

المجتمع اليهودي والمتخيل الاجتماعي اليهودي المغربي

مدخل توضيحي

يتسم المتخيل الاجتماعي، من خلال مظاهره المختلفة، بطابع الدين والسحر اللذين يأتلفان في الشعائر والطقوس، ليعطيا لهذا المتخيل أبعادا شمولية وخصائص محلية. كما أن هناك مظاهر مختلفة تعكس لحظات الوجود المتميزة، وتتغنى بأوقاته الممتعة التي تعرفها الحياة اليومية، كالولادة والزواج والموت وغيرها، مع ما يصاحبها من طقوس واحتفالات .

وتمثل هذه الطقوس والاحتفالات مظهرا من مظاهر المتخيل الشعبي المحلي، كما تعكس الالتحام القوي مع الإطار الثقافي المحلي المغربي العربي الأمازيغي، أو ذاك الموروث عن المحيط الإسباني - الموريسكي. إنها تعبير عن الوفاء المخلص للفكر اليهودي العام، ولذاكرته الجماعية التي تمتد أصولها إلى عصور ما قبل التاريخ وعصر التوراة نفسها. فهنا إذن مجال آخر متميز للتلاقي، حيث إن كلا من المجموعتين الدينيتين، اليهودية والإسلامية، تكرس نفسها للقيام بواجباتها الدينية الخاصة بها، وفي نفس الآن تشترك في كل ما هو متخيل شعبي يمكّن من الجمع بينها.

الطفولة والمراهقة

الميــــــــلاد

تتيح مناسبة الولادة والختان والفطام، في المجتمعات اليهودية، في كل العهود، من العهود التوراتية إلى يومنا هذا، الفرصةَ لإقامة احتفالات كبيرة، وهي بالأساس احتفالات ذات طابع ديني وتاريخي ووطني. إذ جاء في سفر التكوين:" وختن إبراهيم إسحاق ابنه، وهو ابن ثمانية أيام حسب ما أمره الله به " (تكوين إصحاح 21، آية 4).وجاء أيضا : " وكبر الصبي وفطم، وصنع إبراهيم مأدبة عظيمة في يوم فطام إسحاق " (التكوين 8/21). وتعد هذه الاحتفالات أيضا مناسبة لتكافلية، بل لتوافقية تامة، حيث يلتقي السحر بالدين، وبالأخص عندما يتعلق الأمر ببعض التقاليد والعوائد والشعائر ذات الطابع المحلي والمشترك، في المجتمعات المغربية اليهودية والإسلامية .

والولد - الذكر على الخصوص - في هذه المجتمعات، رغبة جامحة، وانتظار لا يخلوا من انفعال، بل من قلق. إنه واجب جوهري للمحافظة على النوع، وهَمٌّ أكبر لتخليد الاسم والعائلة مدى الأجيال. ويعتبر العقم والإجهاض المتكرر لعنة. والأمثال والأقوال المأثورة في هذا الصدد، كثيره ومتنوعة، مثل: "من لا ولد له، لا حياة لـــه". و" المرأة العاقر شجرة ميتة ". وعليه فإن على المرء أن يحتاط لهذا الأمر كثيرا، وأن يتقي شره بكل أنواع الأدوية الطبيعية، مثل التغذية المناسبة، وتناول الجروعات الخاصة. و في حالة الضرورة، عليه أن يلجأ إلى قوة ما فوق الطبيعة، أو أن يتشفع بالأولياء الفلسطينيين، أو أن يتجه إلى مزار الصالحين المحليين، أو أن يلجأ إلى ممارسات غريبة متعددة، بعضها يستقي من علم الباطن القبالي، والبعض الآخر يعتمد الشعوذة والسحر، على تفاوت في ذلك.

ولقد أطلعنا على بعض من هذه، في كناش أحجبة وتمائم، كتبه صاحبه في مراكش، وتضمن كتابات مكتوبة بلهجة عبرية آرامية عربيــــــة، في موضوع رقى العقم والإجهاض، والمرأة التي لا تلد إلا البنات" (هكذا)

وبمجرد ما تحبل المرأة، ينتشر الخبر سريعا وسط عائلتها وعائلة زوجها، وتعم الفرحة الجميع، وتحاط الحامل أثناء حملها، بسياج من المحرمات، وبمجموعة من الأوامر والنواهي، كلها رسختها التقاليد والعوائد. وتقسم فترة الحمل عادة إلى ثلاثة أشهر للوحم، ومثلها لبروز البطن، وأخرى للعياء التام ويعتقد أن الأشهر الثلاثة الأولى، هي أصعبها وأدقها، بسبب ظاهرة الوحم وما تشكله من نتائج قد تكون غير محمودة، إن لم نقل خطيرة، بما يمكن أن يكون لها من أثر سيئ في جسم الوليد، وفي صحته وصحة الأم، أوفي مصير الجنين نفسه، إذا حدث ما لم يكن في الحسبان، أو إذا لم تلب رغبات المرأة المتوحم .

ومع اقتراب الولادة، تبدأ عملية تقطيع " القِمَاط "، أو ما يسمى "تقطيع لَكْدَاور " بفاس، و" تقطيع اتْكَامط " في الصويرة، وكتابة التعاويذ والطلاسم والأحجبة والكتابات السحرية الوقائية التي تكتب على " ورقة المرأة الواضع". وتسمى بالعبرية " شميراه "، من " شمر " العبرية التي تعني " حرس ". والمراد من هذه حفظ الأم والوليد بعناية من الله والملائكة الحراس، وإبعاد الشياطين الشريرة عن المكان، وخصوصا الجنية " ليليث "، التي لم توجد إلا للقضاء على الأطفال خلال الأيام الثمانية الأولى بعد الولادة، ما لم يدخلوا في عهدة إبراهيم، أي الإختتان، ولوجود الحيوانات والنباتات والأدوات المختلفة، أهميتها الرمزية في مكونات " الشميراه " أو " لحجاب"، خاصة صورة السمك الذي يحفظ الوليد من " العين الشريرة". وهذا الاعتقاد الشعبي يستمد أصوله كذلك من نص

تلمودي، كان يجمع بين رمز السمك ومؤدى فقرة توراتية تجعل من يوسف رمزا لتجسيد الخصوبة، يقول النص، : " كما ينجو السمك الذي يعيش في الماء الحافظ إياه من سلطان وأذى العين الشريرة، كذلك تنجو ذرية يوسف ". (بيراكوت 20)

عندما تشعر الحامل بآلام الوضع، يستدعي الزوج " القَابْلة " أو المولدة التقليدية ذات التجربة واليد الموفقة، ويسرع الأهل والأقرباء، وكذلك الجيران، إلى جانب الواضع التي ينبغي أن تصيح وتتضرع إلى الله والصالحين، بينما تردد النساء اللواتي يحطن بها الصلوات والدعوات، إلى حين الولادة التي تحدث سريعا وبدون تعقيدات كبيرة في أغلب الأحيان. يسقط الجنين، وتحتفظ الأم بغلافه، بعناية فائقة، وخاصة، إذا كان المولود بكرا، إذ يُعتقد أن لهذا الغلاف، فضائل كثيرة، فهو يحمي من الأمراض ويعجل بإطلاق سراح السجين. والواقع أن اللفظ العبري – العربي الذي هو " لـَخْلاصْ "، وهو اسم هذا الغلاف، يعني كذلك : الخلاص .

ويبلغ الفرح أقصاه، عندما يكون الوليد ذكرا، وتتلقاه المولدة، وهي ترد : " مبارك الآتي " ثلاث مرات، باللغة العبرية، ثم تسلمه للحاضرات اللائي يزغردن .أما عندما يكون المولود بنتا فيكون استقبالها عادة ببرود ، وتردد القابلة: " مباركة مسعودة ".

وإذا عسرت الولادة وطال انتظارها، بدأ الرجال في تلاوة الأدعية والصلوات. أما إذا طالت الآلام، فإنهم لتخفيفها يتوسلون بطقوس خاصة من ضمنها ترتيل " العقيدة ". وهي قصيدة من القصائد التي ترتل في فترات الشدة والضيق، التي تصادف أيام رأس السنة ويوم الغفران. وروح هذه القصيدة توراتية، مستقاة من قصة إسحاق، الذي

افتداه هو نفسه مَلَكٌ اعترض سيف أبيه إبراهيم بعد أن تَلَّهُ للجبين .
في هذه الأثناء تصيح الواضع ويداها تمسكان حبلا معقودا على عمود السرير، أو على مصراع الباب...(1).

ويتضمن كتاب مراكش المشار إليه أعلاه، رُقية، هي عبارة عن حرز كتب عليه كلمة من أربعة أحرف عبرية، هي: ألف وميم ونون وطاء، والحرز مربع سحري، من رموز " لقبالة " التطبيقية أو السحر، والحروف هي حروف أولى لأسما بعض الملائكة أو حرروف أولى لبعض آي التوراة. وتوضع الرقية تحت لسان الواضع قصد التعجيل بالنهاية السعيدة، أي الولادة. وينبغي أن تستخرج الورقة من الفم مباشرة بعد الخلاص

التحديد (2) معتقد وسحر

هناك شعائر أخرى تصاحب الولادة، وعلى الخصوص، إذا كان المولود ذكرا، ونذكر من بينها شعيرة " التحديد "، حيث تُستعمل شفرة أو نصل من حديد، ولهذا المعدن أهمية كبرى في بعض الاعتقادات والاحتفالات التي تشترك في فعلها المجتمعات اليهودية والإسلامية. وتعود عادة " التحديد " إلى أصول دينية وطقوس غريبة وافعال سحرية، تصحبها دوما إشارات وحركات، ويراد من هذا الاحتفال الديني والخرافي،

1- قارن هنا بالطقس المعروف في الرباط الذي أشار إليه L. Brunot في المجتمع الإسلامي والذي هو : "ربط منديل المرأة في مأدنة من المآذن والدعاء للحابل بتعجيل الولادة" وفي البلدان المسيحية، فإن العملية الأكثر تداولا لتسهيل الولادة، هي دق أجراس الكنائس، وقديما كانوا يربطون حزام الحابل في ناقوس كنيسة الربع ويدقون الأجراس ثلاث مرات" (Sebillot, Le paganisme contemporain, cité par L. Brunot)

2- نحب أن نصف هذه الشعيرة التي لها بعض الأصالة، والتي بدأ استعمالها يندثر في مجتمعاتنا الحديثة، وصفا به نعرف مظاهرها ذات الدلالات. وقد أشير ألى الظاهرة مرة أو مرتين في بعض دراسات المغرب الأتنوغرافية، ولم تدرس دراسة تحليلية تستحق الاعتماد مطلقا، على حد علمنا.

حماية المولود الذكر الذي يظهر أنه أكثر عرضة للخطر من البنت، أثناء الأيام السبعة الأول، أي قبل دخوله في العهد الإبراهيمي وختنه الختان المنقذ الذي لابد منه، مادامت حياته مهددة طوال هذه المرحلة التي قبل الختان، خصوصا من الجنية "ليليث "

انهزام ليليث وتجريدها من سلاحها

عندما تدق الساعة الثانية عشرة ليلا، تقفل الأبواب والنوافذ، ويمر شخص ما بسيف قديم أو سكين غليظة، على جدران ومنافذ الغرفة المغلقة بإحكام، حيث توجد " النفيسة " أو أم الولد، وبعدها توضع الأداة المعدنية تحت وسادة المولود المشدود إلى أمه شدا.

ويفتتح هذا الاحتفال بآية توراتية تروي قصة نوح وسفينته التي التجأت إليها بعض المخلوقات الحية لتنجو بنفسها من الطوفان، وهي المذكورة في سفر التكوين (1) وفي هذه اللحظة بالذات، حيث تنتهي قراءة هذا النص، تغلق كل المنافذ لمنع تلك الأخرى من الدخول إلى الغرفة (الأخرى التي تسمى، ليليث ولا يجب أن يذكر اسمها)

وشعيرة " التحديد" (2) هذه والأساطير التي تصاحبها، حية في كل جهة من جهات العالم اليهودي، في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وفي الغرب والشرق الإسلاميين، ويشهد على ذلك، إذا كان الأمر يحتاج إلى شهادة، هذه القصة التي رواها لنا، منذ عدة سنوات، رسام حالم

1- أقيم عهدي معك فتدخل التابوت أنت وبنوك وامرأتك ونسوة بنيك معك، ومن كل حي من كل ذي جنس اثنين، ومن كل تدخل التابوت لتحيا معك، ذكرا وأنثى تكون البهائم بأصنافها، ومن جميع ذبابات الأرض بأصنافها، يدخل إليك اثنان من كل لتحيا (التكوين إصحاح 7 آ 18 19 29)

2-ويعني التحديد أيضا وضع الحدود لمساحة ما وتعيين مكان ما، بعلامات بحيث يمنع على الأجنبي، وهو هنا ليليث بالذات.

يدعى يوسف مانور، وهو يهودي من أصل عراقي إسرائيلي الجنسية، ويعيش في باريس، قال وكله إيمان بما يحكي، إن جده استطاع أن يقضي على الجنية ليليث التي تسببت في موت عدد من الصبيان اليهود في بغداد، بعد أن نزع منها سيفها القاتل. وسلم السيف لعائلته التي لا تزال تحتفظ به بعناية حتى ساعتها. وبطل هذه المعركة التي انتهت بانهزام ليليث وتجريدها من سلاحها، كما جاء في قول محدثنا، كان شيخا من شيوخ " القبالة " التطبيقية، ومن العارفين بالنصوص الباطنية والأسرار الخفية، وتحققت على يده معجزات شفاء المرضى. وتعرفنا على هذا النوع من الرجال الذين كانوا يجمعون بين صنع المعجزات والمعرفة العميقة بالعلوم الربية والتطبيب، في المغرب بالصويرة ومراكش وغيرهما.

ولا يخلو هذا الاحتفال من ترتيل نصوص توراتية تليق بالمناسبة، من مثل ما جاء في سفر التكوين، الإصحاح الثامن والأربعين آ 16، والتاسع والأربعين آ 22 (مقتطفات من مباركة يعقوب)، والإصحاح الواحد والتسعين والواحد والعشرين والمائة من سفر المزامير، والإصحاح السادس من سفر العدد 27-22 (المباركة الكهنوتية)، والأمثال (3 و 24). وينتهي الاحتفال بالموسيقى والأغاني والألحان العبرية، و"البيوطيم " أو الأشعار الدينية والموشحات والقصائد الغنائية والعروبيات باللهجة العامية، والأغاني الأمازيغية أو القشتالية، حسب أصول المحتفين العرقية واللغوية.

ورغبة في عدم الإطالة، نكتفي بنماذج من هذه الأدبيات، نظرا لأهميتها، من ذلك مباركة يعقوب المشهورة، لابنه يوسف وحفيديه إفراييم ومناسي، وترتل ثلاث مرات متتابعة، ونصها :

" ليبارك الملاك الذي خلصني من كل شر هؤلاء الصبيان، وليحل فيهم ذكر اسمي واسم آبائى إبراهيم وإسحاق، وليتكاثروا تكاثر السمك، ولينتشروا في البلاد." (التكوين، الإصحاح الثامن والأربعون، 16). و" يوسف فرع خصب على حافة العين، يتجاوز كل الفروع الأخرى على طول السور." (التكوين، الإصحاح التاسع والأربعون، 22)."

ويعد الإصحاح الواحد والتسعون من سفر المزامير، أنسب النصوص لحفظ الإنسان، وهو المفضل عند " القباليين" الذين يمارسون السحر، منه يكتبون "الشميروت" أو الأحجبة و" القمعوت " أو التعاويذ وغيرها..وذلك بتركيب الألفاظ التوراتية في كتابات رمزية ومربعات سحرية، تعتمد علم حساب الجُمَّل.والطلاسيم. وهذه بعض آيات مما يعتقدون فيه خصوصية الحفظ : " الله يحرسك من شرك القناص، ومن الطاعون القاتل.... لن يرعبك الليل، ولن يصيبك السهم الذي يخرق النهار، ولا الطاعون الراكض في الظل، ولا الوباء الذي ينشر أهواله في وضح الظهيرة .لن يقرب ساحتك الشر ولا البلية، ولن تقترب خيمتك آفة..."

وجاء في المزمور المائة والواحد والعشرين على الخصوص: "الرب حافظك، الرب ظلك، عن يدك اليمنى [هو]، فلا الشمس تؤذيك في النهار، ولا القمر في الليل. يحفظك الرب من كل سوء، ويحفظ روحك..."

وليس خاف ما تتمتع به المباركة الكهنوتية من قوة وبأس، وهاتان فقرتان منها : " سيباركك الرب ويحفظك، وسيتلألأ نور بهائه فوقك ويمنحك فضله..."

والآية الرابعــة والعشــرون من الإصحــاح الثالث فـي ســفـر الأمـثال، ليســت إلا هـذا الدعـاء البـسيط :" إذا اضطجـعـت فلا تُذعر، بل تـضجع ويكـون نومك عـذبا "

ونقتطف من أحد هـذه الأناشيد العـبرية، المعروفة بــ "البيوطيم"، الأكثر شعبية، المقدمة اللازمة التي تتصدر المقطع الأول

مقدمة

ليباركـكم الله جميعا يا مجلس أوفيائـــي
فـــتــــبـــــارك اســــم الـــلــــــــه
المقطع الأول :

ليكـــن الـــولــيـــد بــشـــــارة خــيــــر
ليتــرعـــرع، مثـــل بستـــان نـــدى ويكـبــر
ليعلـــو، ويتفــوق وينجو مـــن كـــل شــر
أمين . لتكـن مشيئة الله هـكذا وكـما يأمر

ونخـتـم هذا الجزء بمقـاطـع اخـترناها من بـين عدة أغـاني عبـرية - عربية، تغنى للقابلة (أغنية القابلة)

يا القابلة يا السـوسيـــة (أيتها المولدة من قبيلة سـوس)
كل ما سديت شوية (كلما نسجت قليلا)
نقوم نهار السابع نخرجك مكسية (سأنهض اليوم السابع وألبسك كسوة)

يا القابلة يـــا المقبولة (أيتها المولدة المحبوبة)
يا المبشرة يا ميــمونة (أيتها المبشرة الميمونة)

بشرتني الله يعطيك الخير (بشرتني جزاك الله خيرا)
نعطيك حاجة مضمونـــة ([أما أنا] فهديتي إليك أكيدة)

وتمتـد السـهرة التـي تبدأ مـبكرا فـي المسـاء. إلـى مـا بعـد طقس "التحـديد" . فـي جلسـة طـويلة. تروي فيهـا النسـاء. وعلـى رأسـهن راويّة قصص متمرسة. قصـصا وخرافات تناسب المقام. فـي الوقت الـذي يقـوم فـيه نسـاء أخريات بإعـداد دقيق لحـفل الختـان وما يرافـقه من احـتفـال. ويصبح " التحديد " " حديثا. وخلق حكايات وتجاذب أطراف الحديث "

الختان: طقوس احتفالية، خرافية ، وشعر

حفل الاختتان. الذي يقع عادة. فـي اليوم الثامن بعد الولادة. مناسبة دينية كبرى. وحفل عائلي ترافقه الأفـراح السعيدة والبهجة والسرور. وهو مناسبة يعبر فيه الفقير والغني. عن فرحته بمقدم المولود الجديد.

تجري مراسيم الاحتفال عادة. فـي بيت الأبوين (1). فـي غرفة الواضع التي تزينها الستائر الملونة وتتصدرها " السفاريم " أو لفائف التوراة التي تستعار من البيعة للمناسبة. كما تفرش بالطنافس الملونة الغالية.

لفظ " مُهيلَه " العبري يعني عمليـة الختان. التي هـي استـئصال القلفـة. وهو باللهجـة المغربيـة " لَختَانَ ". أو كـما تسـمى فـي الوسـط الإسلامي. حـيث يقع عادة فـي سن السـابعة أو التـاسعـة." طُهارَة " أو" ازْيانَه ". ويمثل هذا البـتـر الشعـائري أو قـربان الختـان. لدى الأم. فـديـــة تحفظ طفلهـا من الموت. والجد عـادة هو" السَّنْدَق " أي الذي يضع الطفل على ركبتيه. وقد تباع هذه المهمة بالمزاد العلني لصالح صندوق الطائفة

1- وقد يكون في البيعة التي يصلي فيها الأب عادة.

الخـاص بالفـقراء. ويجلس " الـسندق" فوق (كـرسي النبي إيلـيا) ويأخـذ الطفل بين ركـبتـيه. في حـــين يـتولى " الــمُـوهل" المتمـرس المتطوع، الذي سيختن الطفل. مـهمته ويستخرج دم الخـتانة ثم يرش محل الختن بشراب كـحولي يسمى الروم أو بـــ "ماء حيـا " أو العرق. موقـفا النزيف بضماد مسكن (1). وعندها يردد أب الطفل حمد الختان . شكرا لله الذي أتاح له : "أن يُدخل عضوا جـديدا في العهد الإبراهيمي ". وبعد مـباركة الخمر التقليدية ومبـاركة النباتات المعطرة. وهي أوراق الورد اليابسة. تبدأ المشاورة في شأن اختيار تسمية الطفل.

ولا بد من إتباع قواعـد معينة لاختيـار الاسم. وتتنوع هذه القواعد حسب الأعراف وتبعا للأصول العـرقية. من ذلك أن "المكورشيم" أو أحفاد المهجرين من شـبه الجزيرة الإيبيرية. يسمـون الوليد باسم الجد الحي. في حين يسميـه " التوشابيم " أو السكان الأصليون. بـاسم الجد المتوفى ولا يريدون به بديلا.

ويرفق احتفـال الختان. كباقي الاحـتفالات الأخرى إجباريا. بشـعيرة أخـرى هي إنشاد " البـيوطيم" أو الأشـعار الخـاصة بالخـتان. يشـارك في إنشـادها كل الحاضـرين. وخص المغنون والتريادور المغـاربة. هذه المناسـبة. بعديد من المنظومـات الشعرية العبـرية وغيرها من منظومات الـلهجة

1- يعتقدون أن لدم الختان فوائد نافعة. وتشهـد هذه الشعيرة. كغيرها من الشعائر الأخرى. على التقاء الخـيال الاجتمـاعي والاعتقاد الروحي الشـرعي الديني. وحكى الربي يوسف بنئيم في مؤلفه الببليـوغرافيي "ملخي ربنان" (الأمرا الأحبار) "أن أحد حكمـاء مدينة صفرو. الربي إسحاق هكوهن. المعروف بربي يسحق مول الميلا (يسحاق الذي خص بإجراء الختان)". (دفن في سفح الجـبل القريب مـن المدينة) وعرف منذ قـديم بأنه من كبـار الأولياء. وأن يهود صـفرو في فترات الجفـاف. كانوا يتوجهون إلى مزاره فـينشرون خرقة مبللة بدم الختـان على شاهد قبره. وهم يقرؤون المزامير والأدعية (لعل المطر ينزل)"

اليهودية المغربية. ومن القصائد الشعبية التي تنشد في هذه المناسبة، قصيدة يعقوب أبنصور، من شعراء القرنين السابع عشر والثامن عشر، التي أصبحت منذ عهود، مرتولة من مرتولات البيعة المغربية. وتنشد هذه القصيدة في جو من البهجة المتزايدة مع صعود أب الطفل إلى منصة " لفائف التوارة "، يوم السبت الموالي ليوم الختان. وتتضمن القصيدة أربع رباعيات قصيرة جدا، من بحر متساوي المقاطع، وهي:

لتنشرح جماعتنا! / ليستبشر جمعنا! / إن رضيعا ولد لنا، / لقد رزقنا ولدا لقد رزقنا ولدا.

الإله العلي الذي أنشأ من السحاب مطيته، / سيغذق على هذا الولد من نعمه،/ وسيمنحه كذلك، / فضيلة الدخول / في العهد الإبراهيمي، عهد أبينا .

خالقه يفعم أمانيه، / وفي السعادة يقضى أيامه، / إلى أرض المسرات يصعد، / مع بني إسرائيل إخواننا .

لينهض والده اليوم على نغمات الطرب، / ليقرأ في التوراة، / وفي ظل الإباء والكرامة، / ليبارك اسم إلهنا ".

ويكوّن البعد الأخلاقي والديني للختان، وأهميته الاجتماعية واالعرقية، وعمليته الشعائرية نفسها، التي هي " مهيله " أي الختان . و"بريئة " أي قطع الجلد وطيه لإظهار تاج القضيب، مواضيعَ كثيرة تناولتها منظومات أخرى من هذا الأدب الذي يستوحي مواضيعه ومعجمه اللغوي، من الكتاب المقدس والتلمود و" المدراش "، أو التفاسير التلمودية و" الهلاخا "، أي التشريع التلمودي. ويُظهر تناول هذه المواضيع، في هذا النوع من الشعر الذي يغنى جماعيا في هذه المناسبات

والاحتفالات ، طابعَ "المهيلة" التعليمي والتربوي. ويلاحظ فيه أيضا، الاهتمامُ بإضفاء صبغة القداسة على كل عمل وفعل يصاحب هذه المناسبة ذات الأثر الكبير في الحياة اليهودية. وتعتبر القطعة التي نورد هنا مقدمتها ومقطعيها الثاني والثالث، دليلا على ما نقول.

مدخـــــــل

بختم خاتمك يا أيها القادر قد ميزتنــــا !
ليمجد اسمــك إلى الأبد يا مالكنــا !

2 – سنقطع الجلد الأغلف بموسى حادة
طبقا لإرادتك ومشيأتــك،
يا الله يا حي يا خالق كل المخلوقات. /
لكي نخلد عهدا أبرمه آباؤنا الأوفياء المخلصون. /
ولنضعف قوة نوازعنا الشريـــــرة.

3 – نخرق الغشاء الطري بيد ماهرة /
لكي نكشف حشفة كل التاج /
ولنضاعف قوة الفحولة بالتطهر والطهارة.
ذلك هو العهد الذي رسمت علامته في أجسادنا.

ويفتدى الولد الذكر البكر، بعد واحد وثلاثين يوما من ولادته، بـ "دْيون هَبنْ" بأن يقدم الأب فدية هي حلْي زوجته الذهبية والفضية ومن الأحجار الكريمة، للكاهن، وهو من أحفاد هارون. ثم يستردها منه بعد ذلك بقليل، مقابل بعض المال يحول إلى صندوق فقراء الطائفة .

شعيرة أخرى ذات طابع اجتماعي وديني، تمثلت أيضا فيما خص به الشعراء اليهود المغاربة هذا الاحتفال، من قصائد شعرية، تستوحي فكرتها من النصوص التوراتية التي تحكي قصة تقديم المولود الأول قربانا، ووجوب فديته. (الخروج، الإصحاح الثالث عشر، والأعداد، الإصحاح الثالث والثالث والعشرون)

وإذا كان المولود بنتا، يجري احتفال " التسمية "، بأقل ما يمكن من الحفاوة. ويطلق على هذه المناسبة بالعبرية " زِبِد هَبَتْ " أو قربان الأنثى، وينحصر في إقامة شعائر سريعة تقدم فيها وجبة طعام خفيفة، إضافة إلى احتفالات بهيجة ينشدون فيها " البيوطيم " أو أشعارا تليق بالمناسبة. ومن هذه الأشعار مقطوعة، تغنى عادة يوم الزفاف، وهي من نظم أحد الشعراء المغاربة، وتبدأ هكذا :

غزالة ظريفة، صبية وديعة
فيك يجتمع جمال البهاء بقوة الأجداد الخالدة

ويسجل الأب أو الجد اسم وتاريخ الولد أو البنت على صفحة من صفحات كتاب الصلوات أو كتاب التوراة، فـ "الحالة المدنية" لم تكن عندها موجودة. وكان التاريخ المستعمل في المجتمعات اليهودية في الغرب الإسلامي، هو التاريخ اليهودي، أي تاريخ بدء الخليقة.

التربيـة والتعليـــم

لـن نتـحــدث هنـا إلا عـن بعــض الملامح التي تتـمـيـز بهـا المدرســة التقليدية اليهودية فـي المغرب. ولن نفعل ذلك إلا اختصارا. لأنا تحدثنا عن ذلك سـابقا في الفـصل الخاص بــ " المسار العلـمي والروحي للطالبين اليهودي والمسلم فـي المغرب " (1).

المدرسة التقليدية اليهودية في الغرب الإسلامي

تعد المدرسة التقليدية اليـهودية التي ظلت قائمة إلى وقت قريب في الغرب الإسـلامي. صورة من صـور المدارس الأصيلة التي تمتـد جذورها حـتى بداية الاسـتـقـرار اليـهـودي بالمغـرب . أو علـى الأقل. منذ الفـتح الإسلامي .

وتعني التربية هنا أيضا. في أغلب الحالات. إعداد الفرد ليتكيف مع المجتمع ويندمج في الجـماعـة. بل يمكننا أن نقول. إنه لا يوجـد فـي الأعم الغـالب. لدى هذه الأوساط التي نتـحـدث عنها. تصـور واع للتربيـة. وأن احتـرام التقـاليد هو وحـده الذي يحكم حيـاة الطائفة. ويتـعلم الطفل بالمعـاشـرة والتـقليد واحـتـرام الأوامـر والنواهي. إن احـتـرام التقـاليـد. والتكيف مع الأعـراف والعـادات. والسـير علـى هدي المـعتـقـدات وإقامـة الشعـائر. وأخيرا إدماج البالغين في الجـماعة. بواسطة احتفالات التأهيل. إضافـة إلى المشاركة في أداء العـبادات. كل هذا يشكل مـا من شأنه أن يجعل من الفرد عضـوا نافعا في الجماعة. وشخـصا له ذهنية لا تختلف عن ذهنيتهـا. وشعور عميق بالانتـماء إليها. وبعبـارة. يجعل منه صاحب إحساس يدعو للتماسك الجماعي وتضامن كافة أعضاء المجتمع.

---

1 انظر أيضا كتابنا ...Pédagogie juive الإحالة أعلاه.

الطفل في العائلـــــــــة

ما أن يعي الطفل ويعقل حتى يجد نفسه داخل مجتمع تحكمه مجموعة من الأفعال والممارسات التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالأوامر والنواهي الدينية. وفي البيت، وسط العائلة الكبرى التي تشمل الجد والجدة وكل الأقرباء، الذين يعيشون جُماعا، في غالب الأحيان، تحت سقف واحد، يكتسب الطفل تجاربه الأولى في الحياة التقليدية اليهودية. وليس هناك فاصل يفصل الصغار عن البالغين، إذ يكوّن الطفل معرفته للنظام القائم والعوائد والقوانين، بمحاكاته لمن هم أكبر منه، أولئك الذين يحترمهم ويخاف منهم. ولذلك فهو مدعو إلى أن يتقيد بما يفعلون كل التقيد.

ويتعلم الطفل في العائلة بمقدار ما يتعلم ويتربى في المدرسة. وعمل المعلم يتجلى في متابعة تربية الطفل التي بدأت في الوسط العائلي وتستمر فيه أيضا. وتنحصر مهمته في تعليمه قراءة التوراة.

وفي البيت يتلقى الطفل تربيته الأخلاقية. والأم هي التي تلقنه أسس فضيلة الخير واحترام ما للآخر وحب الأرض المقدسة. وتعليمه كيفية أداء الصلوات ليس من مهمة المدرسة والمعلم، بل يقوم الطفل بواجبات العبادات على وجهها، عن طريق القدوة بالآباء والممارسة اليومية المواظبة.

وفي بعض الحالات الخاصة، كحال اليتيم على سبيل المثال، يكون دور الأجداد والأعمام والخالات ذا أهمية قصوى.

ولا ينتهي التعليم الحقيقي عند المدرسة، إذ الطفل أو اليافع عندما يصل إلى البيت في المساء، يجد الأب أو الجد ينتظره لإكمال

تعليمه الديني اليهودي، وإعداده لحفل الرشد الديني (بار مصواه). ومع ازدياد سنه ونمو عقله، يأخذ في تلقينه معارف لا تتسع لها برامج المدرسة، خاصة قراءة كتاب "الزهار"، أو شروح التوراة الصوفية، التي لا يُلقّنها إلا المريد، وله دون غيره، وهو في غالب الأحوال الابن المختار

احتفال ذو دلالة: الكُتَّاب

زواج الطفولة، خطوبة التوراة واختيار الزوجة

كان الآباء يهتمون، في طوائف وادي تودغا في جبل الأطلس الكبير، عندما يبلغ الولد سن الخامسة، بشيئين اثنين: تعليمه التوراة، واختيار زوجته، طبقا لأحد الأوامر التلمودية. لقد جرت العادة أن يحتفلوا ليلة "شابعوت "، التي تصادف ذكرى نزول الوحي في جبل سيناء، بنوع من زواج الطفولة " حوباه بِزْعير آنبيم ". فكان الأبوان يختاران في هذا الحفل، قرينة لولدهما من نفس سنه، فيرتبط الطفلان في حفلة زواج حقيقية تتخللها الاحتفالات. وفي هذا اليوم بعد صلاة الصبح "شخريت " يقصد الرجال بيت الخطيب، فيخط الرِّبِّي الأبجديةَ العبرية بالعسل على لوح نظيف، ويطلب من الولد أن يلعق الحروف وهو يقول: " ليكن كلام التوراة حلوا في حلقك مثل هذا الشهد ".

لقد تحدث عن هذا الاحتفال، كل من Brunot وMalka، في كتابهما (النصوص العبرية - العربية بفاس). ويبدو أنهما لم يهتما إلا بمظهر واحد من هذين المظهرين الذي هو وعد زواج الصبيين مستقبلا. وأوضح لنا من أخبرنا بالخبر، وهما رجلان أحدهما من تودغا والآخر من محميد الغزلان، بتخوم الصحراء، أن الأمر يتعلق أولا وقبل كل شيء، بعرس رمزي تُزوج فيه التوراة للطفل.

التعليم الأولـــــي

" يتجسد جوهر التعليم في البيعة وعن طريق البيعة ومن أجل البيعة " هذه العبارة التي ذكرها S.D. Goitein ، وهو يتحدث عن التعليم في اليمن، تصدق على التعليم اليهودي الأولي في المغرب إلى حد بعيد. إذ ليس من مهمة هذا التعليم إعداد الصغار للحياة، وإنما مهمته أن يستجيب لضرورة واحدة، تتمثل في القيام بالعبادة على أحسن وجه، والنظر في علم من العلوم التقليدية، والتقيد بما تفرضه الأوامر والنواهي، وترتيل الصلوات في البيعة، ليس قصرا على الحبر الإمام، بل هو واجب على كل الحاضرين، شأنه شأن " البيوطيم " أو التراتيل الدينية، أيام الأعياد والسبوت، وعلى كل واحد من المصلين أن يصعد المنبر (المكان الذي به لفائف التوراة) أو " السفر "، ليتلو بنفسه المقطع التوراتي الخاص به، إذ المفروض أن الكل يستطيع قراءة التوراة أو يستظهر "الهفطاره" أو بعضا من أسفار الأنبياء، مع نصها الآرامي وترجمتها باللهجة اليهودية - العربية أو اليهودية - الإسبانية أو اليهودية - الأمازيغية، حسب المناطق .

واستظهار النصوص المقدسة عن ظهر قلب، بالإضافة إلى شروحها وفهمها، هو المفتاح والشرط الأساس، ليصبح اليهودي رجل دين، ويتطلب منه هذا الأمر زمنا طويل من التعلم والمعرفة بجوهر الموضوع.

بار مصـــــواه [بلوغ سن الرشد الديني]

يمثل احتفال " بار مصواه " (1) ،نهاية التعليم الأولي، ويصادف هذا الختم بلوغ " الرشد الديني ". ومنذ ذاك، يصبح اليافع ملزما باحترام الوصايا التي تأمر بها التوراة، ويصبح مثله مثل الكبار، مسؤولا عن

1 - تعني عبارة "بار متصفاه" حرفيا ابن الوصايا التوراتية أو القادر على القيام بها (المترجم)

أفعاله. يؤم البيعة مثل من هم أكبر منه. وله ما لهم وعليه ما عليهم. يُحدد الرشد الديني عادة. في سن الثالثة عشرة. كما هو وارد في " مقالة الآباء " التلمودية (V 26). ويكون قبل السن المذكورة أعلاه بالنسبة لبعض المتقدمين عقليا. فقد يبلغونه قبل ذلك. إذ ذكر أحد الأحبار المغاربة أنه بلغ سن الرشد في السابعة من عمره. وذكر آخر أنه بلغه في سن الثامنة. وفي الواقع. فإن شيوخ التلمود يجيزون للأب أن يُحَمِّل ابنه " التيفلين " (1). بمجرد ما يصبح هذا الأخير قادرا على الاعتناء به. (سوكاه 44).

التعليم العالي أو " اليشِفا "

ينبغي على القضاة الربيين. وكل الذين يتحملون مهام دينية. وحتى أولئك المتأدبين الذين ليس من الضروري أن يشغلوا وظيفة من وظائف الطائفة. أو الوظائف التعليمية أو يدرسون التوراة. ممن يرغبون في تلقي تعليم أعلى من تعليم " الحدر " أو التعليم الأولي. أن يكرسوا سنوات طوالا من زهرة شبابهم. بل كل حياتهم. لاكتساب المعارف اللازمة لممارسة مهامهم وتطوير معارفهم. إذا أرادوا أن تصدق عليهم صفة " تلميذ حاخام " أو عالم.

ومصدر هذا التعليم هو " اليشفا ". وهي دوما مؤسسة خيرية أو مؤسسة تكون بقرار من مجلس الطائفة.

1- التفيلين رسعان جلديان بلف اليهودي. أحدهما على الرأس والأخر على الذراع اليسرى أثناء بعض الصلوات. (المترجم)

البنت والتربيـــــــة

لا تخفى وجـهات نظر فقهـاء الشريعة المختلفـة، والرأي العام الذي كان يسـود مـجموع الطوائف اليهودية، فـي مـوضوع تعليم البنات. وبما أن البنت مـعفـاة من المشاركـة في إقـامة الشـعائر، وهي الغـرض الأول من التعليم، فهي معفاة إذن من قراءة التوراة أو التلمود. وتكون تربيتها، حتى زواجهـا، وهو مـبكر عادة، حيث يكون بين العاشـرة والثانيـة عشـرة، في وسـطهـا العائلي، عن طريق الاحـتكاك ومرافـقة النساء الأخـريات. وهي بذلك لا تعرف لا القراءة ولا الكتابـــة، إلا في الحالات الاستثنائية النادرة. وينحصـر واجبها في السـهـر على تدبير شـــؤون البيت والاعـتنـــاء به. وإليهـــا تعود مهمـة تحمل أعبـــاء " الكشـروت ". أي المحلل من الطعام والمحرم منه. والسـهر على تـنفيذ عدد كبير من الوصـايا. مثل تلك الخاصة باحـتفـال السبت. كـإشـعـال الشـمعـدان مثـلا. وتلك الخاصـة بالأعيـاد. خصوصا عيد الفصح، والطقوس المختلفة والمحرم من الطعام.

ولا تمنع البنـت من ممارسـة المهن، كـالخـيـاطة والتـطريز وغـيـرها. وتشـتـغل الخـيـاطة أو الطرازة مع مـعـاوناتهـا اللائي لا يفـارقنهـا أبدا. لزبنائها اليـهود أو المسـلمين. فـتخيط لهم الملابس أو تطـرز لهم أغطية الأســرة بخـيـط الذهب أو الفــضـة، أو تـرقم الجلد أو تطرز عـلـى أنوال صغيرة، وهي خشبة، التطريز المعروف بالإنجليزي.

وتمتهن بعض النساء مهنا أخرى اجتـماعية. فتدعى منهن المغنيـــات والحـاكيـات المتـهنات إلى الحـفلات العـائلية المسـرة. والنادبـــات النائحـات لأمـاسـي المآتم. ومـن النسـاء كـذلك مـن يمتـهن مـهنـة " الخطابات ".أو ذوات التـوسط في الزواج. وسـبق أن رأينـا كم هي شـريفـة مـهنة "القـابلات " أو المولدات، وكم هي في الوقت نفسه ضرورية في المجتمعات المغربية .

وأمية المرأة هذه لا تلغي مشاركتها في حياة البيت الروحية. ودورها في مجال تربية أبنائها له أهمية كبيرة في معظم الأحيان. ويستحق عدد كبير من النساء صفة " المرأة المدبرة الفاضلة " (إيشيت حايل). كما جاء في سفر الأمثال. الإصحاح الواحد والثلاثون. آ10 . إنها روح البيت. وحياته اليومية ونظامه. ومن النساء شبيهات بأهل الحكمة والعلماء الأتقياء. من يصمن ستة أيام دون انقطاع. وهو الصوم الذي يسمى بالعبرية " تاعنيت هافسقاه ". ويسمونه باللهجة اليهودية المغربية " الستية ". ولهذه التسمية دلالتها. إذ الأمر يتعلق في الواقع بانقطاع كامل عن الطعام والشراب. طوال ستة أيام متتابعة. بما في ذلك لياليها. ويبدأ الصوم يوم الأحد فجرا. وينتهي باحتفال مناسب وطقس خاص يوم الجمعة مساء. عند غروب الشمس. وقت دخول السبت. وعرفت شخصيا. امرأة عجوزا من وسط اجتماعي متواضع. امتهنت التصبين في البيوت. من كن يصمن " الستية " بانتظام. وكانت تحتفظ بجزء مهم من أجرتها لشراء كفنها ومكان قبرها في مقبرة الصويرة.

وفي صدد دور المرأة في التربية. نذكر أن الأمهات الفاسيات والمكناسيات والصفرويات. وبمبادرة من ربي روسي زائر. اسمه رابي زيف هلبيران. زار المغرب في بداية هذا القرن. هن اللائي خلقن مؤسسات التعليم المسماة " أم هابانيم " (أم الأطفال)

على أي. فالمرأة لم تكن أمية مطلقا. ففي طنجة وتطوان. كانت البنت تتلقى تعليما يؤهلها لقراءة نص الصلوات باللغة العبرية. مع ترجمتها باللهجة اليهودية الإسبانية. وكانت بعض النساء تجتمعن في صحن الدور. ظهر يوم السبت أو أيام الأعياد. لقراءة فصل من كتاب

"معام لوعـز". (فـي أمة غريبة) والكتاب مـجموعة من المنتخـبات حررها باللهـجة اليـهودية الإسـبانيـة، إسـحـاق كـولي، وصـدرت أول طبعـة لـه بالقسطنطينية سنة 1730 .

ولا ينبـغي أن نتـصـور المرأة اليهـودية المغـربيـة على أنهـا نوع من النسـاء القاصرات. فـمع أنها تـعيش في مجـتمع يسـيطر فيـه الرجل، فإنها مع ذلك ليسـت غائبة، كما قد يعتقد لأول وهلة .

وفـي حضارة تخول فيها السـن للمرأة حـقوقا لا يتمتع بها غيرها، فإن هذه المرأة تكون الجهة المقصودة والقول المسموع، بل كان من بين النساء من صرن وصيفات مؤتمنات ومستشارات لنساء ولاة مدن كبرى، كفاس ومراكش والصويرة، بل صرن يخدمن أم السلطان في القصر الملكي بالرباط .

تعلم المهن

تعليم الابن مـهنة من المهن واجب شـرعي. والكتـابات الربيـة فـي هذا الصدد غنية كل الغنى (1). وكان الطفل عموما، يتعلم مهنة والده، كـالصيـاغة والنجـارة وخيـاطـة مـلابس الأهالي وصناعـة الأمشـاط لنفش الصوف وغير ذلك. وإذا اختار الولد التجارة، يبتدئ بصندوق صغير من الحلوى، يجلس به في زاويـة من زوايا زقاق من الأزقـة، أو يرافق والده أو أحد أقربائه إلى أسواق المنطقة .

ويحتـاج تعلم مـهنة من المهن زمنا طويلا، فيـه يكتسب المتـعلم معارفـه بمراقبته الصـانع وهو يشتغل. فـإذا تمرس بالمهنة، وكان لديه من

1 - بما أن المتـعلم لايحق له أن يحـصل على أي مـقـابل مـادي من علمـه الذي يتلقـاه في المدرسة، فإن عليه أن يتعلم مهنة من المهن يتعيش بها كما جاء في : (فصل الآباء) ومقالات تلموية مثل "برخوت" و "قدشين". أنظر أعلاه "المسار الفكري..."

رأس المال ما يكفي، فتح دكانه الخاص به، وإلا استمر في خدمة معلمه في نفس المعمل. ولا يتناقض التعليم وتعلم المهن في مجالات كثيرة، غير أنهما لا يجتمعان في بعضها الآخر. وفي دكان التاجر أو مكتبه، يتعلم الطفل العمليات الحسابية من جمع وطرح وضرب -وفي نادر الأحيان القسمة - وفيه يتعامل مع صرف النقود وتحرير المراسلات. وهذه أيضا فرصة لتعليم مبادئ اللغة العربية، حتى يستطيع قراءة العقود أو الوثائق التجارية. غير أن هذا نادرا ما يحدث. ومن جهة أخرى، يحرص رجال الدين والقادة الروحيون، على محاربة التعليم المهني السابق لأوانه، لما له من انعكاسات مضرة بسلامة السير الدراسي .

وليس من الضروري أن تمنع مهنة من المهن متابعة الدراسة، فقد يستمر الفتى والراشد في التعلم أثناء الليالي والسبت وأيام الأعياد، وكذا في أوقات الفراغ التي تسمح بها انشغالاته.

وأنا أتحدث مع أحد كبار علماء المغرب اليهود- وهو الربي يوسف مساس، الذي وافته المنية في إسرائيل قبل سنوات، بعد أن شغل مهام القاضي الأعلى في مدينة حيفا- عن طرق التعليم والتلقين التي كان يتبعها زملاؤه المغاربة في "الحدر" و"اليشفا" أضاف بفكاهة فيه معهودة، مزجها بنوع من الحسرة و الأسف وببعض الاستهزاء، مقتبسا من سفر أشياء، الإصحاح التاسع والعشرين . آ13 ؟ :" ليس تعليمهم إلا درسا محفوظا علمهم إياه الناس". وكيف ما كان الأمر، فإن هذا التعليم كان هو الشائع وكان يضمن الزاد المعرفي لقادة الطائفة الروحيين، كما حافظ لليهودية على أجيال من اليهود المخلصين لإيمانهم المتشبثين بتقاليد أجدادهم، ووقى اليهوديَّ المحروم من أن يسقط في الظلامية الدامسة، أو أن يصل به الحال درجة الاسترقاقية التي هيمنت

على بعض من جيرانه المسلمين. وعرف اليهودي "المتعلم" أو المتأدب، حياة فكرية وروحية كان يجد فيها دوما متعة هي عزاء لمرارة وجود مليء بالمعاناة. متعة ملأت في غالب الأحيان، حياته بضياء وبهجة لا يلحظهما ذو العين الكليلة. ولا يتوصل إليهما أبدا الطارئ الأجنبي. وإنما فيهما ما يوحي إلى الغريب بما جاء في المزمور 128. آ 50 :" هذه تعزيتي في بؤسي"

الزواج

سبق أن درسنا في الفصل المعنون "بمجال القضاء" بعضا من القضايا المتعلقة بتشريع الأسرة وقانون الأحوال الشخصية، كالصداق ونظام الزواج القشتالي، الذي ضمنه مهجرو شبه الجزيرة الإيبيرية، تشريعهم، ونصوا عليه في فتاواهم ومراسيمهم الربية المتعلقة بزواج الواحدة والاثنتين أو أكثر من ذلك.

وسنطرح هنا بعض الأمور التي تتعلق بالزواج، خاصة تلك التي تدخل في ما سميناه بالمتخيل الاجتماعي، مع ما يمثلها من مظاهر متعددة، كالأعراف والعادات والطقوس والممارسات، التي تشترك فيها أغلب المجتمعات المغاربية، أو تلك التي تستقي أصولها من الإرث الإسباني الموريسكي.

الخطوبة

يسمى حفل طلب يد الزوجة بالعبرية "شيدوخين". وهو "الْخَطْبَة" بالعربية. (1) ويليه حفل ال"عروسين" أو الخطوبة التي تسمى باللهجة المغربية "مْلاكْ" أو "رْشِيمْ". ويصادق على الخطبة بما يقدمه الخطيب لخطيبته من "سابلونوت" أو هدايا، حين تلفظه بعبارة طلب الزواج الرسمية. وتتضمن هذه الهدايا حليا، وهي سبعة أساور، ترمز لأيام الأسبوع، وخاتما به جوهرة ثمينة، وخمارا من الحرير. ويقدم في "صينية الخطوبة" زيادة على ما سبق، خمسة "قوالب" من السكر والحناء والعطور والحلويات والفواكه المجففة، كاللوز والتمر والتين. ويخضع عقد

1- انظر موضوع الخطبة أو التوسط في طلب يد البنت "كِتوبَة" في Pédagogie juive...p. 36

الزواج لأعـراف ومواثيق يـتسـبب خرقـهـا في منازعـات تظطر السلطات القضائية الدينية إلى معالجتها بالفتاوى وإصدار الأحكام شرعية.

وهذه بعض النماذج التي وجدناها في سجلات الطوائف اليهودية، خلال القرون الأربعة الأخيرة :

- رُفض خطيب بعـد مـدة من الخطبـة، لأنه لم يسـدد إلا جـزاءا من "السابلنوت"، أو هدايا الخطوبة، قدر بخمسين أوقية فضة، من عملة مملكة فاس، وعزم أهل الخطيبة لذلك، فصلها عن خطيبها وتزويجها بغيره، إلا أن القاضي أدان هذا العمل وهدد أصحابه "بالحرم" أو اللفظ من الجماعة.

- يسمح بفسخ الخطوبة لأسـباب ذات خطر، مما من شأنه أن يمس بشرف العائلة و من ذلك، اعتناق فرد من أفراد الأسرة الإسلام.

- اتفقت أسـرتان على تزويج وليديهـما مسـتقـبلا، وبعد أن كـبر الولدان لم ترق الفتاةَ الولدُ، وعليـه فإن المحكمة الربية بفاس، تعـتبر وعد هذا الزواج لاغيا وكأنه لم يكن.

- إذا توفي الخطيب قبـل الزواج، فـإن لأبـويه أو أقـربـائه الحق فـي استعادة هدايا الخطوبة أو أي شـيء آخر له علاقة بهذه الخطوبة.

- جرت العادة، في المجتـمعات اليهودية والاسلامـية، بأن يختار الآباء لأبنائهم زوجـات منذ الصغر، وعندهـا كان الفتى يسـاير اختـيار ذويه فـي الغالب، ويحدث أحيانا ألا تتوافق رغبة هذا الأخير مع رغبة الوالدين، لذلك كانت تحدث منازعات مثل الحالة السابقة التي نظرت فيها محكمة فاس. أما بالنسـبة للبنت التي لا يطلب منها رأيـها فـي مثل هذه الحالة، فـأمر الرفض غير وارد، وما عليها إلا أن تخضع لقرار أبويها وهي مرغمة.

أب الولد في العادة، هو الذي يتقدم إلى أب البنت لطلب يد ابنته دون واسطة، إذا كانت الصداقة تربط العائلتين. ويحدث، في أغلب الأحيان، أن تسند هذه المهمة إلى أشخاص آخرين هذه مهنتهم، هم "الخطّاب" أو "الخطابة".

وتعرف مجتمعات أخرى بعيدة، نفس الشيء، فقد تحدث Milan Kundera عن نفس العادة في كتابه La plaisanterie بالعبارة التالية : "لم يكن الشاب المقبل على الزواج أبدا هو صاحب الاختيار، إنما هو من يُختار له. فهو لا يتزوج وإنما يُزوج. وعليه أن لا يبدي أي رد فعل، أو يتكلم. وعوضا عنه، يتحدث كبير العائلة، بل إذا أردنا أن نصدق، فليس هذا الأخير هو صاحب القرار، من إذن ؟ إنه تقاليد الأجداد تتخطى الناس واحدا واحدا، وتسحبهم في مجراها الوديع، وهنا يصبح الواحد من أيها الناس كغيره، والكل يكوِّن مجتمع الإنسانية...".

- لا ينبغي للخطيبين أن يلتقيا أثناء فترة الخطوبة، أو أن يرى أحدهما الآخر. ولا ينبغي للبنت، تحت أي عذر كان، إن تظهر خارج البيت. أما العائلتان، فهما منشغلتان في تحضير الزفاف، من ذلك إعداد جهاز العروس وما يحتاج إليه من المربى والمعلبات التي تفرغ في القارورات الزجاجية والجرات.

نظام الزواج التقليدي

الزواج مؤسسة تنبني على الشرعية الدينية، وتقوم أساسا على المباركة الزوجية. فالصيغة التي يُتَلفظ بها عندما يقدم الخطيب قطعة نقد أو حلية من معدن ثمين، وهما معا مظهران لنفس الاحتفال ولنفس

الطقس الذي يراد منه إشهار ارتباط الزوجين ارتباطا شرعيا هو الزواج. إذن يعلن الزواج ب "القَديش" أو مباركات الخمر السبعة، وبالعبارة القائلة : "ها أنت أصبحت زوجة لي على سنة موسى وبني إسرائيل". ويصبح الزواج قائما بالاتصال الجنسي المعبر عنه على العموم باللفظ العبري "نِسُّئِين"، من جذر الفعل "نسأ"، أي حمل الزوجة إلى بيت الزوجية.

والزواج أيضا هو عقد يتضمن عديدا من التدابير التي تحفظ مصالح الزوجة المالية على الخصوص. ويمكن أن يَختار فيه الزوجان وعائلتاهما بين نظامين من التشريع مختلفين : أحدهما نظام الصداق [المغربي] وثانيهما النظام التقليدي القشتالي.

ويُحدِّد عقدُ الزواج، أو "لكتوبة" قيمةَ الصداق الشرعي، ينضاف إليه الزيادة ومهر الزوجة. وإذا تراجع الزوج أو طلق، فإن القدر المسجل في عقد الزواج مبدأ، يكون من نصيب الزوجة التي تحصل، بالإضافة إلى مبلغ ما في العقد، على قيمة الرهن الشرعي مما يناسب ثروة زوجها (1).

إضافة إلى هذا النموذج من العقود، يمكن أن يتفق الطرفان، سواء في العقد التقليدي أو القشتالي، على إضافة بنود بمقتضاها يمكن أن يطرأ بعض التغيير الذي يحفظ مصالح الزوجة.

طقوس الزفاف واحتفالاته

يتخلل الزفاف أوقات من الفرح تبلغ قيمتها يوم أربعاء، وهو يوم "المباركات السبع"، بطقس يعرف ألف "عملية وعملية". إنه زمن طويل

1- توقيا من الطلاق، يسجل على الزوج في عقد الزواج، مبالغ كبيرة من المال، ويضطر إلى أدائها عند الطلاق، وهذه هي المقصودة هنا. (المترجم)

فيه ما يكفي من الاحتفالات والبهجة التي تمتد على مدى ثلاثة أو أربعة أسابيع، وما لا يقل عن ثمانية أيام، تتنوع بهرجة وبذخا وأبهة، تبعا لإمكانيات العائلات وما يرضي تباهيها. ونشير هنا إلى أنه باستثناء الإجراء المزدوج للعقد، الذي هو "عقد زواج" و"مباركة الزواج"، وهما الميزة المشتركة للقران اليهودي، فإننا نجدنا أمام مجموعة من الممارسات والعادات والأعراف، وهي منظومة كاملة من الشعائر التي تكتسي طابعا مقدسا أو رمزيا، وتنتمي إلى محيط يجمع بين المظاهر السحرية والطقوسية، حيث تلتقي كل المجتمعات المغربية، بغض النظر عن أصولها العرقية أو الدينية، سواء كانت عربية - أمازيغية أو يهودية - إسلامية، إنه عالم فكري خاص و"ملتقى مشترك" لكل الأعراق، حيث تلتقي مجموعات إنسانية من الأهالي الأصلاء، أمام الرهبة من عالم تحكمه أسرار الجن وسكان ممالك القوى الخارقة، ذلك أن فترة الزواج تعتبر مرحلة خطرة جدا وصعبة، مثلها مثل كل منعطف من منعطفات الحياة، ويعتبر الزوجان فيها هدفا سهلا يمكن أن تصيبه كل أنواع الأذى وشرور الرقيى وكل الأعمال السحرية المؤذية، وعلى الخصوص "اثْقافْ" أو عجز الرجل ليلة العرس، أو "ارْباط" أو اعتياص فرج الزوجة في ذات الليلة، والمقصود من هذه العملية السحرية، إحداث حالة من العجز الجنسي ومنع الإتصال، وعليه ينبغي حماية الزوجين بالتعاويذ والتمائم و"الشيمروت"، وهي أحجبة سحرية شبيهة بتلك التي تحفظ الأم ووليدها عند الولادة، وينبغي كذلك الدعاء بالبركة والسعادة والنجاح للزوجين، دعاء تشترك فيه المجتمعات العربية الإسلامية، وهنا يكمن هدف الطقوس المتعددة والمتنوعة، والتي تكون مصحوبة دائما بالموسيقى والأغاني والرقص أيضا، وهذه كلها تقوي الطابع السحري في

القصيدة و"لَعْروبي" باللسانين العربي والأمازيغي و"cantigas" و"canciones" كما هو متبع لدى الطوائف الأندلسية ذات الأصول القشتالية، وعلى الأخص "البيوطيم". وهي قصائد العرس العبرية اللسان، التي أصبحت جزءا من طقوس الاحتفال بالزواج وتغنى في البيعة، أو أثناء القداس الذي يقام في بيت العروسين.

ونتعرض هنا، مع اختصار شديد، إلى بعض العلامات الدالة والسمات البارزة الخاصة بهذه المراسيم الطويلة والمعقدة، التي تختلف عناصرها وتتنوع من مدينة إلى أخرى أو من "ملاح" إلى آخر.

فعلى سبيل المثال، تبدأ الاحتفالات في السبت الثاني الموالي ليوم الزواج الحقيقي الذي هو يوم الأربعاء، ويسمى هذا السبت "سبت ارْشيمْ" أو "سبت الاختيار". ويحتمل أنه سمي هكذا، لأن الخطيب، هو هنا "السلطان" أو "أسلي" بالأمازيغية، يعين في هذا اليوم وزراءه أو "إسْلان" -جمع "إسلي" بالأمازيغية-، أو "بحوريم" بالعبرية، أو "لَعْزارة" بالعربية، وتعني هذه الألفاظ "الفتيان العزاب".

والخميس التالي، هو يوم "ازْموميغْ" وهذه اللفظة أمازيغية، من الفعل "زيم" الذي يعني "ربط" أو "عصر"، ذلك أنه في هذا الاحتفال، تكسر بيضة على رأس الخطيبة، فيسيل سائلها على الشعر المسدل، وعندها تخضب الحاضرات أيديهن من إناء الحنة واحدة بعد الأخرى، ثم يضعن العجين المُطَيّب على رأس العروس، بعد ذلك يُشد شعر العروس بقماش من القطن ويحتفظ به كما هو إلى غاية يوم الثلاثاء الذي هو "يوم الحمام والحنة".

ويسمى عادة يوم السبت الموالي "سبت إسْلان" أو سبت الملك ووزرائه. وهو يوم يتميز باجتماع العروسين وأصدقائهما من العزاب. ويتميز أيضا "إسلان" في مدينة الصويرة بهدية نقدية تقدمها العائلة والأصدقاء لوالدي الخطيب. ويسمى هذا السبت أحيانا "بسبت الرِّي" أو سبت التداول والمشورة.

ويوم الاثنين الموالي هو يوم "أداء اليمين" أو "نهار شيبوعا" أو "نهار القنْيان". وتعني "شيبوعا" اليمين ويعني "القنيان" التملك الشرعي، عقد التملك. ويحرر عقدَ النكاح "سوفر" أو "عدول". يمثل السلطات الربية، ويُصادق على مضمون العقد قبل حفلة الزواج. و"لَكْتوبَة". عقد "شطار". و"قنيان سودار" في آن واحد : "قنيان شطار" لأنه عقد تملك موثق، يسلمه الخطيب بيده لخطيبته، ويحتفظ به والداها بعناية فائقة. و"قنيان سودار"، أي عقد تملك رمزي، يعلن فيه الزوجان أنهما يقبلان الشروط المثبتة في "لكتوبة" أو العقد. في لحظة يشدان فيها معا على منديل أو "سودار" يبسطه لهما "لَعْدول" أو الموثق. ويجسد شد المنديل هذا اتحادهما الحقيقي. وقد تغير هذه العملية الرمزية أو ينضاف إليها غيرها. ففي فاس مثلا يتمنطق الخطيب بثوب أبيض يلفه حوله سبع مرات. وهو الثوب نفسه الذي لفت به العروس رأسها عشية اليوم المسمى ب "نهار الطرف الأبيض". ومثل هذه العمليات ليست غريبة عن المجتمعات الأخرى. كما جاء عند Jacques Soustelle إذ يشير إلى أن Les Aztèques كانوا يلفون معطف الزوج وصدارية الزوجة معا...

وحُدد مقدار [صداق] الزواج في فتوى جماعية مؤرخة في سنة 1497 . بحد أدنى هو عشرون أوقية فضة، موزعة حسب العرف، إلى

"توسيفت" أو زيادة على المهر، و"مَتَنَه" أو هدية ثمينة من الزوج، "وندونيا" أو "جُهاز الزوجة" وما إلى ذلك. إضافة إلى مائتي "زوز". (1) مهراً للعذراء، ومائة "زوز" مهراً للأرملة والطالق. ولم يوضع للصداق حد أقصى، فهو يتنوع تبعا لثروة الخطيب ولشروط العروس وعائلتها، وتبعا لواقع المرحلة والظروف الاقتصادية.

ويذكر قاضي محكمة فاس، يعقوب أبنصور، في نهاية القرن السابع عشر، أنه جرت عادة بعض العوائل، أن يسجلوا مقادير خيالية في عقد الزواج للتباهي والتفاخر. فقد سجل في عقد من عقود مدينة فاس مثلا، 5100 أوقية، و15000 في سلا، و18100 في تطوان. وظل مجمع الأحبار يلفت نظر المعنيين إلى خطورة هذا النوع من الممارسات التي تنتج عنه منازعات خطيرة كلما تعلق الأمر بتصفية قضية من قضايا الزواج. وبلغ المسجل في هذه العقود ما يقدر بالملايين من الفرنكات، إلى غاية العقود الأخيرة (حوالي 1940-1950).

وجرت العادة بأن تذبح ذبيحة في احتفال تقديم اليمين، وتستقدم البقرة التقليدية، التي تزين بحلي النساء وبمنديل من الحرير والجواهر والأشرطة والورود، إلى صحن الدار في موكب كبير من النساء، ويذبح "الشوحيط"، المأمور الرسمي لهذه المهمة، البقرة على الطريق الشرعي، ومن لحمها تعد المأكولات المختلفة التي تقدم للمدعوين.

وتستحم العروس استحمامها الذي يمثل الشعيرة الرئيسية "في تطهيرها" يوم الثلاثاء، في صهريج الطائفة المعد لهذا النوع من

1- "الزوز" قطعة نقدية فضية قديمة يعود عرف استعمالها إلى العهود التوراتية والعهود التالية لها مباشرة، ويساوي "الزوز" ربع شاقل الذي قيمته حوالي 5، 3 غ من الفضة.

الاغتسال في الملاح. وهذه أيضا مناسبة لممارسات سحرية يقصدون منها حماية العروس من القوى الشيطانية الغيور من سعادتها. وترمي أسن النساء المصاحبات للعروس، في ماء الصهريج، قربانا للشياطين "شديم" هو عبارة عن طبق من المربى وكأس من الخمر ومشط وخضاب. ثم يغسلن رأس العروس. وكل ما يسقط منه من شعر وحناء وفضلات البيض، يخلطنه بالسكر والقمح، ويوضع في صرة من القماش بيضاء تحشى في فراش الزوجية. وبعد عودة العروس من الحمام مباشرة، يمشطن شعرها ويلبسنها ملابسها ويزينها ويعطرنها ويحلينها بحلي الفضة والذهب، مما ثقل وزنه. وبهذه الصورة تكون العروس معدة للاحتفال الكبير، المسمى "لُحَنَّ" الذي تجري معالمه مساء يوم الثلاثاء "ليلة الحناء" أو "الليلة لكبيرة".

وفي يوم الأربعاء تفتتح مراسيم احتفال العرس ب"المباركات السبع" وبتلاوة عقد النكاح جهرا. وفي هذا اليوم تلتحق الزوجة ببيت الزوجية ويصبح الزواج شرعيا إذا حضر الحفلَ عشرةُ أفراد من الذكور البالغين، أي "المنيان". و"لمنيان" هو اكتمال النصاب، أي حضور عشرة من البالغين الذين بهم يصح قيام الصلاة عادة. ويلزم أن يكون من بين الحاضرين حبر أو قاض، ينضاف إليهم أحد أعضاء "المعمد" (مجلس الطائفة). و"إن أي شخص لا يحضر زواجه إلا شاهدان، يغرم غرامة، يترك تقديرها لـ"نكيد" أو شيخ اليهود وللقضاة. ويسجن أياما، بما في ذلك أيام السبوت والأعياد حتى يوافق على طلاق زوجته. وإذا وافق والدا البنت على زواجها منه رغم ما تقدم، فإن أقل ما عليه هو القيام بإجراء الطلاق الشرعي، قبل زواجه بها من جديد، احتراما للشرع. ولا ينجو الشاهدان

أيضا من العقوبات الجسدية والغرامة المالية الكبيرة التي قد تبلغ 50 أوقية فضية".

وظلت المحاكم الربية تدين هذا النوع من الزواج "المخطوف". إلى عهد قريب. كما ظلت تحارب إصرار الأوساط ممن يرفضون التقيد بالوصايا التلمودية الكثيرة في هذا الباب. ممن سهلوا مناورات مدعي الزواج الذين استغلوا ثقة البنت باعتمادهم شاهدين من عديمي الثقة.

وبعد حمام التطهير أو "طبيلة". وبعد القيام بشعيرة خاصة يقودها أحد المغنين. حيث تعد المقطوعات المغناة أكثر أهمية من الشعيرة ذاتها. يرتدي العريس كسوة الاحتفال. وهي لباس محلي يتكون من سروال عريض وصدرية "بدعية" مطرزة مزررة بأزرار من الحرير. وسترة طويلة مشدودة على الخصر بحزام من الحرير "زوخا"...

تستوي العروس على "كرسي الزوجية" المعروف ب"تَلَمون". [ذي الأصل الإسباني : Talamo. الذي يعني أريكة - وهذا عرف حمله معهم مهجرو قشتالة من الأندلس.-] يضمخها العطر ويزينها حلي الذهب والأحجار الكريمة. فتتألق في كسوتها البهية الفاخرة الزاهية. "الكسوة الكبيرة" التي تتكون من : صدرية مخملية مطرزة بالذهب "كُتَف". وصدار مخملي أحمر رماني أو أخضر مزين بإشارات مذهبة. وأزرار فضية "الخونباج". وتنورة مخملية من نفس اللون. "زلطيطا". مزخرفة مذهبة. تستبطن داخلها عددا من التنورات "صايات". وحزام عريض مقوى من المخمل المصرز بالذهب واللؤلؤ. "حزام أو مضمة". وحذاء "بلغة" مطرزة بخيوط الذهب "الشربيل". وأكمام واسعة من الحرير المطرز "أكمام وتشميرة". وإكليل مثقل بالجواهر والزمرد والياقوت. وقطع من الذهب

وغيـر ذلك، و"اخُمـار أو سـوالف" ووشـاح من الحرير الرفـيع. يشد الشـعر "فسـتيل". وخمـار من الحرير الأبيض أو الأخـضر "سـبـينيا" يسـدل عليه حجاب شفاف أبيض "إلُبلو". [من الإسبانية Velo] يدلى على الوجه.

وليس في متناول كل سـاكني الملاح هذا النوع من اللباس، فكانت بعض العائلات الغنية تملك منه نماذج تعيرها لمن لا يستطيع اقتناءه.

وتحرر "لكـتوبة" أو عقـد النكـاح، على ورق قـشيب، يزخرفـه ناسخ موهوب. - والعـقد بهذه الصفـة صور من صورة الفن اليهـودي - ويقرأه الحبر، أو أحـد النابهين من العائلة جهارا. ويتلو المباركـات السبع شخص آخـر، في حين يشـرب العريس "الخـاتان" الخـمـر المبارك الذي يقـدم منهـا للعروس "كالاه" لتشرب هي أيضا. ويكسـر العريس الكأس تذكارا بخراب هيكل القدس، ثم تبـدأ شعيرة التطواف "الهاقـافوت". وهي سبع دورات في صحـن الدار، تحمل بعدهـا العروس في موكـب إلى مسـكنهـا الجديد لتـقضي فـيه ليلتـهـا الأولى التي يطلق عليـها "ليلة الراحـة" أو "ليلة رْواحْ". ليلة حمل العروس إلى فراش الزوجية.

ويصوم العريس حتى المساء، حيث يتقاسـم وزوجته وجبة شعائرية حضـرت لهما خاصـة وهي عبارة عن حمـام محشـو باللوز والزبيب فائق التتبيل.

ويعتبر اليوم التالي "نهار اصبُوح". يوما هاما في حياة الزوجين. وإذا كان "اصبـوح" يعني حرفيا "الصبـيحة". فهو يعـني أيضا الثوب الذي به قطرات من الدم، أي البرهان الساطع على عـذرية وطهارة الزوجة. إنه رمز شرفها وافتخارها واعتزازها. ويعني "اصبوح" ثالثة هدية العرس النقدية، التي يتقدم بها الأصدقاء والوالدان والأقربون والأبعدون إلى الزوجين.

تستغرق مراسيم العرس، وهي دائما مصحوبة بالاحتفالات، الأيام التالية : "سبت لَعْروس" و"نهار الربطة". وفيه يشد الرجل المرأة بحزام "المُضَمَّة"، ويطأ برجله قدمها، ويوم الأربعاء "نهار الحوت". ويكون اليوم السابع يوم الخروج الأول للعريس، حيث يذهب برفقة جوقة من فتيان الشرف وعائلته وأصدقائه إلى الحدائق المجاورة بعد صلاة الصبح. ويتميز مساء هذا اليوم بطقس له دلالة كبرى، إذ فيه يقدم لكل من العروسين سمكة من الشابل أو أي نوع آخر من السمك، ومن منهما يقطع ويفسخ سمكته قبل الآخر، يفرض إرادته في تدبير شؤون المنزل. ومع ذلك، فإن هذا الاختبار لا يخلو من بعض التحايل، لتناسب النتيجة ما يجب أن يقوم به كل واحد من المتنافسين من مهام مستقبلا. ويعرض فتيان الشرف يوم "سبت انْدامَة" مسرحية درامية، يسخرون فيها من الزواج كلا. وتتميز "تونابودا" - وهي كلمة إسبانية Tornaboda تعني "عودة العرس" - بأول حمام طقوسي، تغتسل فيه الزوجة بعد الزواج، وبهذه العملية تكون نهاية مراسيم العرس وفترة الأفراح التي رافقته.

قصائد العرس - شعر الأعراس وأغانيها

تنتمي أغاني الأعراس العبرية، مما سندرجه هنا، إلى المجموعات الشعرية القديمة التي استوحى أصحابُها أسماءهَا من التوراة ومن سفر إرمياء، نبي المراثي، بل ومن مراثيه، مع ما في ذلك من مفارقة كبيرة. إنها ابتهاج العروسين : "صوت الاستبشار"، "وصوت الفرح، صوت العروس والعريس" (إرمياء إ. 7 آ. 34). ونجد نموذجا لهذه الأشعار متمثلا في قطعة منتشرة جدا في مجتمع المغنين اليهود المغاربة وفي منتخبات الشرق والغرب الإسلامي، وهي شبيهة جدا بأشعار نشيد الأناشيد. وسجلنا

منها سنة 1957 لحنا أداه أداء رائعا المغني المغربي المشهور الربي دافيد بوزاكلو. ويبدأ بهذا اللحن :

"إنه زمن الحب واللوعة. تعالي أيتها الخطيبة إلى حديقتي.
لقد أزهر الكرم. وبرعمت رمانة"

تدور المواضيع الأساسية. مثل معظم الشعر العبري الخاص بشعر المناسبات. سواء في المقطوعات المغناة بمناسبة الختان "بريت ميلا". أو تلك التي تخص مناسبات بلوغ سن الرشد الديني "بار مصوا". حول الاهتمامات التعليمية. وهذا ما يهيمن على المقطوعات الشعرية الخاصة بالزواج تلك التي تحتفي بارتباط الزوجين "الحتن"و"الكالة". والأشعار التي ترتبط ارتباطا وثيقا بأفراح الزواج وما يرافقها من مظاهر مختلفة. مما وضعه الشعراء اليهود المغاربة. كثيرة جدا. ولعل ذلك يعود إلى طول الفترة التي تستغرقها حفلات الزواج المتعددة التي تميز أسبوع اعتزال العروسين والفترة التي تلي مباركات الزواج المتعددة التي يمنع فيها الزوجان من مغادرة بيت الزوجية. ومن هذه الأشعار منتخبات يعقوب أبنصور، وتتضمن ثلاثا وعشرين قطعة. عنوانها "بركات حاتانيم" (مباركة العروسين). وقد أعدت أغلب هذه المقطوعات. وهي عبارة عن مقدمات "ريشويوت" لكي تكون أول تسابيح الشكر ومرتولات ما بعد الوجبات. وقبل مختلف مقروءات ما قبل صلات الصبح أو المغرب. (التكوين إ. 24 آ 1-7). وتتلى أيضا مع غيرها عندما يصعد العريس إلى منبر البيعة "سوفر". وتتغنى إحدى هذه المقطوعات الأخيرة. وهي من نوع الموشحات. بمتع الحياة الزوجية كالآتي :

لتنعم روحك من كل طعام لذيذ المذاق شهي،
من قمح المَن، من العسل، ومن كل الأطايب

ونذكر من بين هذه المجموعة، مقدمة شعرية زعم ناظمها أنه نظمها حلما، ومقطعها الأول، وهو أبيات كثيرة، ذو طابع صوفي خص به الزوجة التي ترمز هنا وكذا في القبالة، لشيئين اثنين : التوراة وجماعة بني إسرائيل المتحدة في الله حبيبها. والنص المدخل لهذه المقطوعة ذو دلالة كبيرة في هذا الصدد، وهو كما يلي :
"انه صوت حبيبي، ها قد وصل زوجا منتصبا أمام زوجته، يخاطب قلب البنت الصبية، عذراء إسرائيل، في ميثاق الزواج"

وبالإضافة إلى ذلك، هناك قصيدة عرس أخرى، لها غاية تعليمية نظمت لترافق "موكب الزواج".

ويعود عرف "تقديس الزواج الشرعي" الذي يجري على يد أهل العروس قبل مرافقتها إلى منزل زوجها مساء، إلى تقليد يبدو أنه كان من تقاليد العائلات المهجرة الأندلسية الأصل. ومهما يكن من أمر، فإن "حمل" العروس في موكب التطواف يتقيد بمظاهر دقيقة ويخضع إلى شعائر معينة تصحب فيه الموسيقى السير البطيء. وإذا كان الزوجان من عائلة الأعيان أو الأحبار، يأخذ الإحتفال طابعا رسميا جدا، ويكون شرف مرافقة العروس لاجتياز عتبة منزل أهلها، إلى القاضي الأول بالمحكمة الربية، ويسير الموكب على وقع أهازيج الأعراس العديدة والمتنوعة والأناشيد التي حددتها الشعائر منذ تاريخ طويل، أو الألحان المقتبسة من التقاليد البلدية واللغة القشتالية أو اللهجة اليهودية - العربية التي أغنت، على مر الأجيال، فلكلور الزواج. وقد ينظم بالمناسبة

شاعر محلي مشهور قصيدة العرس، ويغنيها هو نفسه بصحبة تلامذته. وتنتمي القصيدة العرسية التي نتعرض لها هنا، إلى هذا النوع من الإنتاج الأدبي. وجعل الشاعر يعقوب أبنصور، الذي كان قبل كل شيء، أبا روحيا للطائفة بوصفه رئيسا للمحكمة الربية بفاس، وهي صفة جعلته حارسا من حراس الشرع والتقاليد، من شعره "بيوط" منبعا للحكم المسجوعة التي تعلي من شأن القيم الأخلاقية الدينية اليهودية، وقولا بليغا يرسخ بما يكفي، أهمية الأوامر والوصايا التي أصبحت المرأة منذئذ ملزمة بها في بيتها الجديد، مثل : "مناسك الطهارة والاغتسال والحمام الشعائر ي وأنوار دخول السبت وإزالة "الخله" من عجين الخبز الرمزي الذي يذكر بخبز الحبر الأكبر على عهد هيكل القدس، والفضيلة والحشمة والعفة والحلم والإحسان وواجب الرأفة ومساعدة المعوزين ممن يطرقون الباب وغير ذلك، فإذا هي امتثلت لهذه الأوامر، فإنها تستحق أن تكون أما لنسل من العلماء وأن يباركها الله..."

وغير مجد أن نعرض هنا هذه القصيدة التعليمية، فخطوطها العريضة واضحة للعيان.

ونقدم في المقابل، النص الكامل لمقطوعة شعرية جميلة، سبق أن أوردنا بيتيها الأولين. القصيدة نظم مجازي يتغنى بالتوراة وجماعة بني إسرائيل، وتغنى في مناسبة تسمية البنت ومباركة الزوجية و"سمحة توراه" أو الاحتفال بالطفل الذي يحفظ جزءا من التوراة، وفي العيد الذي يصادف اليوم التاسع لسكوت، أو عيد الخيام، وهذه هي :

غزال ناعم، حلوة أنت
في جمالك الفاتن، فيك أنت يا بنت
قوة أساطير الأجداد الخَدت
قومي، هذه ساعة نورك وبهائك قد حلت
قومي، هللي، غني أغاني الطرب
قومي، وتزيني بتاج الملك
والبسي رداء قرمزيا
وأقمصة من نسيج مزركش بخيوط رفيعة وديباج
أنت من بين كل البنات
أجمل منك لا
أنت أكثر بهاء وجمالا
أنت مشدودة من عصور خاليات، بسلاسل حبك العتيق
وها كل العذارى ينشدن هناءك
على نغمات الطبل والقيثارة
والدف والمزمار
أيتها البنات، ماذا تقلن عن عشيقي ؟
أنا لعشيقي، وعشيقي لي
لا عشق، لا غرام له، إلا عشقي وغرامي
أنت الكافور، أنت العبير، والشذا
وأنت ناصع الرخام وأنت الزمرد
أنت لؤلؤ يتلألأ من البريق شعلة
عيناك أنت، عيناك كنانة ترشق المناصل والرماح
وثناياك البلور، وخدك جنان نبت رمان
وهاهر قوامك، لا أروع منه في النخيل
يا أنت يا أروع وردة في الورود.

وما زال التقليد الموسيقي الأندلسي شائعا في المجتمع اليهودي المغربي، إذ حرص السكان المسلمون واليهود في المغرب الكبير، وخصوصا في المغرب الأقصى، كل الحرص على تقاليد الموسيقى الأندلسية العربية، التي حملوها معهم من المدن الأندلسية، عندما هُجِّروا من هذه المدن تهجيرا. لقد أعجبوا بهذه الموسيقى وتعشقوها وشغفوا بها جميعا إلى درجة الإجلال. وكان اليهود في الأندلس والمغرب على السواء، الحفظة القائمين على الموسيقى الأندلسية، والحرس الغيورين على تقاليدها العريقة. وكانوا هم، في كثير من الأحيان، ملجأها الأمين، كلما سقطت في دائرة المنع، أو كلما بدا لسلطان من السلاطين أن يتقيد بحرفية الشريعة الإسلامية وقوانينها التي تحرم الموسيقى، إلى حد أنه كلما رغب سلطان في إحياء تقاليد هذه الموسيقى الآفلة، وكلما أراد أن يكون جوقة القصر أو "الستارة"، فإنه غالبا لا يجد موسيقييه الجدد إلا في الملاح.

لقد حافظ اليهود المغاربة على التقاليد الموسيقية الأندلسية بطريقتين : فقد كان "المسمِّعون" أولا يعزفون ويغنون "نوبات" وألحانا شعبية، في الأعراس والحفلات العائلية المتنوعة، دون أن يغيروا شيئا من نصوصها الشعرية، وكانوا ثانيا يغنون موشحات وأزجالا وضعت أصلا بالعربية الفصحى أو باللهجة الأندلسية.

وكانت تنقل هذه النصوص عن طريق المشافهة شخصا شخصا وجيلا جيلا. وهذه قاعدة عامة نجدها عند اليهود كما نجدها عند المسلمين. وكان المنشدون اليهود أيضا ينقلون هذه النصوص العربية بحرف عبري ويحرصون على امتلاكها كل الحرص.

لقد كيف اليهود المغاربة، مثلهم في ذلك مثل إخوانهم في الطوائف الأخرى في المغرب الكبير والشرق العربي، الموسيقى الأندلسية لتلائم "البيوطيم" أو الشعر العبري الديني أو الأشعار الأخرى التي تنشد في أعز المناسبات في الحياة العائلية، كحفلات الختان وحفلات بلوغ الرشد الديني وحفلات الزواج.

وهذه ثلاثة نصوص تقدم لنا صورة عن هذه الأعمال وهذه الطقوس المستوحاة خصوصا من علم الباطن القبالي والحياة الصوفية (1).

ثلاثة نصوص صوفية :

1-خلق الرجل والمرأة، حماية فراش الزوجين، الدعاء والتضرع لإبعاد ليليث عن فراش الزواج أثناء التهيؤ للجماع (زوهار III 19أ)

افتتح الربي شمعون موعظته قائلا : "أيتها النساء التائهات، انهضن واسمعن قولي" (أشعياء إ .32. آ 9). كم هو ابن آدم في حاجة إلى أن يشعر في قلبه بالسعادة والمجد تجاه الرب، حتى يعرف نفسه، ويشعر بالكمال أمام الخالق. فالله تبارك وتعالى، عندما خلق آدم، خلقه في أحسن تقويم، قال "ها أن الله قد صنع آدم مستقيما..." (سفر الجامعة إ.7 . 29) والمقصود ب"آدم " هنا الذكر والأنثى. وكانت هذه في ذاك، وعندها كُتب : "مستقيما"... تعال وانظر، في عمق الأعماق السحيقة، تراءت جنية رجيم، ريح الرياح، ليليث اسمها. لقد كانت في الأصل رفيقة آدم، تعيش بجواره، كانت تربطه بها رابطة الزوجية. كان ذلك قبل أن تكون له حواء زوجا، إذ حدث أن آدم لما خلقة الله ومنحه جسما كاملا، تجمعت آلاف الأرواح حول جسمه، من شماله، وحاول كل

1-انظر كتابنا. "Kabbale, vie mystique et magie"

منها عبثا نفاذه. إلى أن غضب الله تبارك وتعالى. ظل آدم ممتدا شاحب الوجه جثة هامدة دون روح. وبقيت الأرواح تتحرش به إلى أن نزلت سحابة من السماء وطردتها. فقال الله :"لتُخرج الأرضُ ذواتَ أنفس حية بحسب أصنافها..." (التكوين إ .1 آ .14) وكانت روح. فنُفخت هذه في آدم ومن ثم صار كاملا. كما جاء في التوراة "ونفخ في أنفه نسمةَ حياة. فصار الإنسان نفسا حيةً". (التكوين إ .2 آ .7). فنهض آدم وبقيت زوجته لصقة به. ففاض الروح القدس ميمنة وميسرة (من جهة الذكر ومن جهة الأنثى) فشق الباري تعالى آدم شقين. وصنع المرأة التي جعلها له من الشق الثاني. إذ جاء في التنزيل "وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة فأتى بها آدم" (التكوين إ .2 آ .22). فأتت وعليها من الزينة ما يكون ل"الكله" أو للعروس التي يُصار بها إلى "الحفة" أو "سرير الزوجية". ولما رأت ليليث ذلك. أطلقت لرجلها العنان. واتخدت لها مصاب البحار سكنا إلى يومنا هذا. وهي دوما على أهبة أن ترتكب جرمها في حق الإنسانية. كلما وجدت لذلك سبيلا. وفي مقبل الدهور. سينزل الله بروما الخراب. وسيخرج ليليث من أعماق المحيط. لتستقر في أنقاض المدينة الكافرة التي لن تقوم أبدا. فقد جاء في التوراة : "وهناك تقر الغول [ليليث] وتجد لنفسها محلا" (أشعياء إ .34 آ .14) وجاء في الكتب القديمة أن ليليث تركت آدم قبل أن تخلق حواء. غير أنا روينا عمن سبقنا أنها ظلت تصحبه وترتبط به رباط الزوجية إلى أن خلق الله حواء لآدم. وعندها فقط. هربت ليليث لتستقر في أعماق البحر. عاقدة العزم على أذى الإنسان...

فكيف يتقيها الرجل ؟ عندما يرتبط الرجل بامرأته ارتباط الزوجية. عليه أن يملأ قلبه بذكر الله وأن يتلو هذه التعزيمة : "يا تلك (ليليث) التي تتدثر بإزار. وتحضر معنا الآن. ابقي (في مكانك) لا تدخلي

(هنا) ولا تُخرجي منه شيئا. لا شيء هنا في ملكك. ارجعي. ارجعي إلى مكانك ! فالبحر هائج وأمواجه تناديك. أما أنا فأمري إلى الله ومن قداسة الملك اتخذت حجابا"(1).

ويخفي الرجل وزوجته رأسيهما لمدة زمنية معينة... وجاء في الكتاب الذي قدمه اشمداي للملك سليمان. أنه : "على الرجل بعد الاتصال بزوجته. أن يصب الماء الصافي على جوانب سريره. فهذه وقاية من كل أنواع الرقى والتمائم السحرية. وعلى المرأة المرضع أيضا أن لا تجامع زوجها إلا بعد نوم رضيعها. ويجب عليها أيضا أن لا ترضعه ثديها مباشرة بعد إنهاء الجماع. وعليها أن تتريث ردحا من الزمن. مما يقدر بمسافة ميل أو ميلين قبل أن تسكته من بكائه أو تهدئ من روعه ومن شأن هذه الوصفة أن تبعد الخوف عن الطفل من ليليث إلى الأبد.

1- إننا هنا أمام مثال للرقى والتعازيم التي كتبت بلغة تعتمد الرمز. ويلجأ عادة محرر "الزهار". في بعض المناسبات. لهذا النوع من الكتابة. وسنقدم هنا ترجمة حرفية لنموذج منها. ومعنى ذلك فهذه الترجمة تبقى تقريبية. نظرا لطابع النص المعمى. وكذا لطابع التأويل الذي تسرب إليه بعض تأثير هو من آثار المذاهب القبلية المتأخرة : "تتزمل ليليث في ثوب شفاف أثيري يشبه "نورا يغشى ما دونه". ما هو من ملكة القداسة. لكن من الذي طبعه بطابع الدنس؟ ليليث إذن حاضرة تطوف بسرير الزوجين. وتسعى إلى التلذذ من جماعهما والاستحواذ على بعض القوة والشدة... فيتوسلون إليها بدعا بأن لا تترك مرسمها في أعماق البحار. وبما أنها بعد في عين المكان. يأمرونها بأن لا تدخل بيت الزوجية. فإذا حدث ودخلت. يطلبون منها أن لا تأخذ منه شيئا. لأن لا شيء مما فيه هو ملك لها. عليها أن تولي الأدبار إلى حال سبيلها في الأعماق السحيقة. لأن الأمواج الهائجة تدعوها إليها. أما الزوجان فيربطهما رباط القداسة. قداسة ملك العوالم. قداس "النور الذي يغشى ما دونه" الذي من فضائله أنه يطرد "الأجانب". أي العفاريت النجسين الذين هم من عوالم "القشور" المشؤومة. ويلزم أن تطرد ليليث الدخيلة الأجنبية من بيت الزوجية ومن بيت المرأة الولود ومن بيت الوليد وهذه مهمة الحجاب وشعائر أخرى يراد بها الحفظ والتوقي" أنظر Kabbale... p. 169-169

2- أسرار خضوع المرأة للرجل أو العكس. بعض الأعراف والعادات الزوجية القمينة بخلق حالة الخضوع هاته أو انتقالها من أحد الزوجين إلى الآخر.

في يوم حفل القران، وفي الوقت الذي يكون فيه الزوجان في خدر الزوجية، لحظة قراءة المباركات السبع، (1) على الزوجة أن تقف على يمين زوجها، إذ جاء في المزموز الرابع والأربعين، آ 10: "قامت الملكة عن يمينك مزينة بذهب" "أوفير" (2). ومعروف أن هذا المزمور هو ما يقرأ خاصة للعروسين، لما له من فضائل خاصة وقوى خارقة. وإذا استطاع الزوج في هذه اللحظة عينها التي ترتل فيها المباركات السبع، حيث هو وزوجه في خدر الزوجية، أن يضع رجله اليمنى على رجل زوجته اليسرى فذلك يدل على أنه سيكون سيد زوجته، وأنها ستخضع له طيلة حياتها، وأن الانقياد إليه وامتثال أوامره أمور لن تزول أبدا، وعلى العكس من ذلك، إذا علمت المرأة مسبقا معنى هذه العملية وما لها من قوة، فإنها هي التي تضع رجلها اليسرى فوق رجله اليمنى، وفي هذه الحال، تكون هي المطاعة وهو الخاضع لسلطانها ما داما رفيقين (3). وقد يحدث أن تخبر الزوجة أباها، بعد حفل الزفاف، قائلة إن زوجها قد وضع رجله اليمنى على رجلها اليسرى.... إلى آخر القصة. وعندها يحذرها الأب من فعل هذه الخطة، مبينا لها الوسيلة التي بها تتفادى عواقبها بقوله : "قبل أن يتصل بك اتصال الزوج بزوجته أول مرة، اطلبي منه أن يناولك إبريقا من الماء". فإذا فعل، يصبح ما سبق أن عمله باطلا، وبهذا لن يعود له

1- حول الزواج شعائر واحتفالات، العمل والعوائد، أنظر، Mille ans de vie juive au Maroc, p. 78/91

2- أصبح هذا المزمور جزءا من شعيرة الزواج.

3- أنظر ما قلناه سابقا في موضوع العلاقات الزوجية. يعتقد القبليون أن مظهر الرجولة يمثل عادة الرحمة ومبدأ الأنوثة يمثل مظهر الشدة الربانية. واقتطف هذا النص من كتاب أبراهام أزولاي، "حسد لأبراهام" IV 48. وانظر Kabbale... p. 237-238

سلطان على زوجته. وتنفلت من حال تبعيتها له. ويلتزم هو بخدمتها... ومع ذلك. على الزوج أن يتقيد بالنصائح التي تتضمنها خفايا النص المقدس السابق الذكر. وبتأويله الباطني : "ملكة تقف على يمينك" ومعنى هذا النص أنه يجب على الرجل أن يبذل قصارى الجهود حتى يضع هو الأول رجله اليمنى على رجل زوجته اليسرى. لتصبح تحت إمرته. وليكون أمر البيت من اختصاصه. ويل للبيت الذي تسوده امرأة. فالمرأة في واقع الحال من ضلع أعسر. ومن صفاتها التسلط "دين" والجبروت "كَبوره". وهي صعبة الانقياد شديدة المراس . وكل ما يصدر عنها شؤم. والبيت الذي تحت إمرتها يكون مظنة للمرض والعوز. ولأشد الآفات ضررا. وعلى العكس من ذلك. سعيد البيت الذي يحكمه رجل. إذ تظلله الرحمة ولا تلحقه الشرور ولا يصيبه مكروه. لأن السكينة تعمه وعلائم الرحمة تحفة.(1)

3-الوصفات السرية التي علمها يعقوب [النبي] لراحل [زوجته] : عجائب لحمة الأذن اليمنى وإبهام الرجل اليمنى، والطريقة التي يجب أن تتبعها المرأة لتثير رغبة الجنس لدى زوجها.

"اعلم أن هناك ثلاثة من ملوك الظلام العظام. إنهم ثلاثة شياطين مصدرهم الضلع الأعسر. وهو الضلع النجس. ويعملون ثلاثتهم على إثارة الرغبات والشهوات الجنسية لدى الرجل. فأحدهم

1- يقارن بكتاب Israël Joshua Singer, Les frères Ashkenazi, ed. Stock, Paris 1982, p. 60. "تحت قبة الزوجية... وضع سمحه ميير رجله على رجل زوجته. دليلا على أنه هو رب البيت المتحكم فيه" فهذا الاعتقاد الرمزي شائع لدى اليهود الإشكناز والسفرديين. وكذا في مجتمعات البحر الأبيض المتوسط. لدى غير اليهود ممن نعرف. ويضفي A.Azulay على هذا المعتقد بعداً صوفيا.

يدغدغ لحمة الأذن اليمنى. وهو أخطرهم. والثاني يتحسس إبهام اليد اليمنى. أما الثالث فإنه يضغط على إبهام الرجل اليمنى حتى يثير اللذة والشهوة لكن عندما كان الحبر الأكبر (1). زمن هيكل سليمان. في بيت المقدس. ينضح هذه الأعضاء الثلاثة بدم الكفارة والاستغفار. كان هؤلاء الثلاثة يبتعدون. ولعملية نضح الرَّجُل الذي صار نجسا بلمسه الميت بالدم والماء أو ربت قربان الكفارة أيضا. القدرةً على إبعاد الروح النجس المتفرع من الضلع الأعسر. وكذلك من الملائم وضع دو ديك الكفارة. ليلة الغفران "كبور". على لحمة الأذن اليمنى للمكفَّر عنه. وإبهام يده اليمنى والإصبع الكبير في رجله اليمنى. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها الرجل الانفلات من شياطين الغواية التي تثير فيه الشهوة واللذة. والتي بها يقمع شياطين الشبق. لضمان سلامته. إنها عجائب وأسرار العلاقة الزوجية (1).

وعندما يحس الرجل بميل للمعاشرة الجنسية. لا يكون هذا الميل جزافا. ولا يكون الميل لذات الميل "لشم شمايم" وإنما يكون ذلك رغبة في إشباع اللذة الجنسية التي تبدأ أساسا من عضو التناسل أو "الغرلة".

لكن إذا ما حظي زوج بامرأة صالحة وطاهرة "كشره". فمن جهة. تكون كل رغبة من رغباتهما الجنسية بوازع منها. فهي التي تثير رغبته بلمس لحمة أذنه اليمنى. وإبهام يده اليمنى وكذلك إبهام رجله اليمنى.

---

1 - تمت كهنونية الحبر الأعظم أهارون وأبنائه وتكريسهم لخدمة الرب. بمثل هذه الشعيرة "(1 - ثم تأخذ الكبش الثاني ليضع هارون وبنوه أيديهم عليه) 2 - ثم تذبحه من دمه وتضعه على شحمات آذان هارون وبنيه اليمنى. وكذلك على أباهم أيديهم وأرجلهم اليمنى". (الخروج إ. 29 آ2). ونفس الشيء يعمل بدم كبش الأضحية والتولية (سفر اللاويين إ. 4 آ.25/24). واستخدم دم الكبش في حال الأبرص وتطهيره (سفر اللاويين إ. 14. آ .14و17). واستخدم في تطهير من لمس جثة الميت. الاستحمام بالماء المخلوط برماد بقرة حمراء... (أعداد إ. 19).

ومن جـهـة أخرى. يكـون بـعـث هذه الرغـبة بإثارة الأمـاكـن الثـلاثة لمسـا. بحـضور قلبـي كـامل. وعـندها يبـتعـد الشيـاطين الثـلاثة الذين يثيـرون شـهوة الرجل. عـن الزوجين. فيـمـارس الزوج علاقـتـه الشـرعـيـة قـصـد الحـصول عـلى الـذرية الصالحة. لا رغـبة فـي إشـباع شـهوته الجـنس...(1)

والجـنين ثمـرة مـثل هـذه العلاقـة. يسـتـحق أن يكـون من بين الذين يخرجـون من بطـون أمهاتهـم مخـتونين. وهـذه هـي الـوصـفة التـي علـمها

---

1 - أنظر G.Vajda L'ammor deDieu dans la thèologie juive du Moyen-Age, Paris, 1957,p.222 تبادل المشـاعر والرغبات بين المرأة والرجل. ضـرورة ملحة لوجود الإنسـجام الكامل في علاقتهـما. غير أن الآلية التي يتم بها ذلك. دقـيقة جدا. إلى حد أن طبيعـة العلاقات تختلف اختلافـا كبيرا. وتتعلق بما إذا كانـت الرغبة الجنسية تأتي من قـبل الرجل أو من شريكه المرأة. فإذا بدت الرغـبة من المرأة. تكون العـلاقة الجنسيـة مطبوعـة بالحنان. وإذا كان الحـال عكس ذلك. ولم يتعـد فعل المرأة أن تكون مسـتـجيبة لرغـبة الرجل الجنسيـة. فإن العلاقة الجنسـية لا تخلو من الشدة والصرامة. والسبب في ذلك هو أن مبدأ الذكـورة يمثل عادة. عند القباليين. مظهر الرحمة. ومـبدأ الأنوثة يمـثل مظهر الشـدة الربانيـة. ومن جـهة أخـرى. وهذا رأي مـتناقض. فـإن العلاقـة الجنسية تتلقى خصيصتـها من أحد الزوجين. هو الذي يمثل الجانب السلبي وعلى كل حال. فهذا نص من كتاب الزهر يوضح هذه الفكرة توضيحا بينا : "في الوقت الذي يكون فيه القدوس تعالى مع جـماعـة بني إسرائيل. يتـوحد الجـلال مع الملوكـية في ذات اللحـضة. وتشـتاق جـماعـة بني إسرائيل هي الأولى إلى عطف القدوس فتجذبه نحوها بعـشق ومحبة كبيرين. وعندها تقبل من الجـهة اليـمين وفي هذه الجـهة من العـالم تتـواجد المخلوقـات. وعندها يكون الوصـال تحت جنح الرحمة. أما عندما يكون القدوس تعالى هو الذي يظهر المحبة والرغبة أولا. فإن المجموعة تستجيب بعـد ذلك لا في نفس الآن. وعندها يكون الكل في جـانب الأنوثة. وعندها تشـتد حـميـة الجهـة اليسرى وتتدفـق كثير من الموجودات وتتدافع جهـة اليسـار في جميع العوالم. وهذا مـا يعبر عنه النص الديني: "فـعندمـا تكون المرأة أسـبق في القذف يـكون الوليد ذكـرا" وفي الواقع. نعـرف أن العالم السـفلي هو أشبه بالعـالم العلوي. وأن أحدهما صـورة للثاني وعليـه فإنه بناء على هذه القـاعـدة. يحـدد الله جنس المولود حـتى يعم الحنان والمحـبـة العـالم...". أنظر في هذا الصـدد Kab-bale...p.120 وبرخوت. 60 ب. حيث جـاء ما معناه أن جنس المولود يكون من جنس مـعـاكس لمن بلغ لذة الجماع أولا.

يعقوب [زوجته] راحيل.. وتجدر الإشارة إلى أن هذه العملية يجب أن تطبق بالترتيب الذي حدده يعقوب نفسه : "أي البدء بالعضو السفلي الذي هو إبهام الرجل اليمنى ثم إبهام اليد اليمنى فالانتهاء بلحمة الأذن اليمنى" (1).

1 - أنظر أبراهام أزولاي السابق الذكر. ج.II 6 و Kabbale...p.233-234.

الطلاق

- تفسخ الرابطة الزوجية بوفاة أحد الزوجين، أو بطلاق مكتوب "گيت ". والزوج وحده هو القادر على فعل هذا من حيث المبدأ.

وحماية لحقوق المرأة ونصرة للأخلاق الحميدة، لم تتوان الجهود، عبر العصور، وبمختلف الوسائل، للحد من ممارسة هذا الحق الأحادي الجانب الذي يخوله التشريع الربي التقليدي للزوج وحده.

- ويبقى هذا الحق مع ذلك مجحفا، وقد تكون أسباب الطلاق التي يتضرع بها الزوج، أو الزوجة في حالات نادرة، أسبابا هي بين الأمر الخطير والأمر التافه، من ذلك:

- الزنا، وهو أشدها خطورة، وبسببه تصبح المرأة محرمة عن زوجها الذي عليه أن يسلمها عقد طلاقها " گيت"، وتصبح محرمة كذلك على العاشق الذي تفرض عليه ذعيرة، والذي يجد نفسه، بالإضافة إلى ذلك، معرضا إلى عقوبة النبذ من الجماعة في حالة الاتصال بها من جديد .

- ويعد الامتناع عن المعاشرة سببا ثانيا من أسباب الطلاق، ويتمثل في مظاهر منها :

* رفض الزوجة الاتصال بزوجها، مدعية أحيانا أنها ضحية سحر، أو لمغادرة بيت الزوجية، فإذا جرم الزوج تقضي السلطة الشرعية لغير صالحه بالطلاق، أي عليه أن يسلم زوجته عقد الطلاق، وأن يؤدي مجموع ما عليه من حقوق، تبعا لما جاء في عقد النكاح أو" لكتوبة "

* ويعتبر العيب أو العاهة من بين أسباب الطلاق أيضا، والعقم أكبر العيوب. وكانت فترة الانتظار الشرعية للتيقن من عقم المرأة تمتد حتى عشر سنوات، ثم انحصرت في سبع، وبعدها في خمس. ونشير إلى أن باستطاعة المرأة أيضا، أن تحصل على الطلاق في حال عجز زوجها جنسيا.

ولم تتفق الأحكام فيما يتعلق برفض الزوجة مصاحبة زوجها في سفره. وهكذا تختلف الأحكام كما يأتي :

إذا ما رفضت الزوجة مصاحبة زوجها الذي اضطر إلى كسب رزقه في مدينة أخرى، فإنها تلزم بصحبته. ولو كان نص عقد النكاح يتضمن الشرط القائل : "ينبغي على الزوج أن يحصل على موافقة زوجته في حالة ما إذا أبدى رغبة في تغيير محل إقامته ".

وحدث عكس هذا في حالتين غير الأولى، إذ حصلت فيهما الزوجة التي رفضت أن تصحب زوجها إلى فلسطين على الطلاق، إضافة إلى القدر المنصوص عليه في عقد النكاح جزءا أو كلا .

ولقد وقفنا على حالات لا تخضع لمنطق في مجال الطلاق. من ذلك حال الزوج الذي يطلق زوجته لأنه وجد امرأة أخرى أجمل منها، أو لمجرد إهمال الزوجة واجبات بيتها .

ومما كان ساريا به المفعول عند اليهود، في المجتمع المغربي، الإلتزام بشريعة " اليبوم " أو بوجوب زواج الأخ زوجة أخيه المتوفى إذا لم يخلف ولدا، طبقا لما جاء في التوراة، مما نص عليه في الإصحاح الخامس والعشرون ، الآية الخامسة من سفر التثنية.

وتعتبر "الحاليصا" أوخلع النعل، سبيلا من سبل تحرير الأخ من التزوج بامرأة أخيه المتوفى. و غالبا ما يشجع عليها فقهاء اليهود. والذي تفرضه الشريعة هو الطريقة التي على الأخ الرافض للزواج أن يتبعها، وهي عملية تعود إلى العصر التوراتي. إذ جاء في سفر التثنية، الإصحاح الثامن والعشرين، الآية 9-10 : " فتتقدم إليه امرأة أخيه بحضرة الشيوخ، وتخلع نعله من رجله وتتفل في وجهه وهي تقول : "هكذا يصنع بالرجل الذي لا يبني بيت أخيه، فيدعى في آل إسرائيل بيت المخلوع النعل"

وإذا كانت الزوجة ميسورة نسبيا، فإن الطلاق، ليكون صحيحا، يخضع إلى إجراءات متعددة تتطلب الكثير من الوقت، مما يتيح للزوج فترة للتفكير قد تجعله يتراجع عن قراره السريع الذي غالبا ما يكون ناجما عن خلاف بسيط أو غضب عابر.

ويتخذ الكثير من الحيطة والتشدد في تحرير عقد الطلاق، سواء تعلق الأمر بشكله أو بنص عباراته أو بكتابة الأسماء الواردة فيه، والقصد من كل هذا التشديد هو التوقي من كل ما من شأنه أن يطعن في صحة عقد الطلاق، الذي يسلم للمرأة بمجرد تحريره. ذلك أن المرأة المطلق إذا تزوجت مرة ثانية، ثم ظهر عيب في عقد الطلاق الذي بموجبه طلقت من زواجها الأول، يصير زواجها الثاني زواج زنا، ويعتبر كل مولود منه مولودا غير شرعي.

قد تثير أحيانا، تصفية شروط عقد الزواج، سواء في النظام التقليدي أوالقشتالي الخاضعين للتشريع التلمودي، بعد الطلاق وكذا بعد وفاة الزوج، صعوبات ومشاكل، على الرغم من قوة صحة العقد

المكتوب. لذلك ينبغي مراعاة الأعراف والتقاليد التي لها تأثيرها في مثل هذه الحالات .

ونتعرض هنا سريعا لقضيتين مرتبطتين بهذا الموضوع. وهما وضع "العاگونة" أو المرأة التي غاب زوجه ولم تثبت وفاته. ووضع المرتد. ويطلق يطلق عليه بالعبرية "مومار" أو "مشماد".

" العاگونة " هي الزوجة " المرتبطة بزوج غائب " اختفى أثناء سفر من الأسفار. ويكون في أغلب الأحيان. ضحية مغامرة ربما أفقدته حياته. وفي هذه الحالة لا يمكن للزوجة أن تتزوج إلا إذا ثبت الدليل القاطع على الوفاة .

وظلت قضية " العاگونات " التي يتسبب فيها موت محتمل غير مثبت. من القضايا الحادة. وعلى الخصوص في بلد مثل المغرب إذ ذاك. لانعدام أمن الطرق. وكان الزوج عندما يعتزم القيام بسفر طويل بحرا. يترك لزوجته عقد طلاق محتمل (طلاق مشروط). حتى إذا لم يعد في تاريخ محدد. أمكنها أن تتزوج.

وتعامل الأحبار المغاربة دوما. بقدر من التساهل. مثلهم مثل إخوانهم في الطوائف الأخرى في الشتات . مع شروط إثبات الوفاة. بشكل يسمح بفسخ روابط الزواج الأول. لتتمكن " الأرملة المفترضة " من الزواج ثانية. إذ كان وضعها في حال الانتظار أشنع من الموت .

وإذا ما اعتمدنا النصوص الموجودة في حوزتنا. فإن إثبات الوفاة غالبا ما يستند على شهادة يؤديها أحد المسلمين طواعية. تثبتها المحكمة وتسجلها كما هي باللهجة المحلية.

أما حالات اعتناق الإسلام في المغرب، فهي أمر مألوف في الكتابات الفقهية الربية المغربية. وجرت العادة، كلما تعلق الأمر بالإرث، بتحويل نصيب المرتد إلى أهله الأبعدين وبالإضافة إلى هذا الميز في المعاملة، تعتبره عائلته في حكم الميت، ولا تعلن الحداد عليه يوم وفاته بل "يرتدي أهله الأقربون ملابس بيضاء ويشربون الخمر، ويبتهجون لهلاك أعداء الله".

لقد جعلت إشكالية المرتد - التي عرفتها أجيال الأحبار المتعاقبة منذ بداية التاريخ الميلادي تقريبا - سعديا كؤون (مصر والعراق في القرن العاشر) يميز بين مفهومين من الارتباط، أحدهما ديني، والآخر عرقي. فمن الناحية الدينية، لم يعد المرتد في نظر العقيدة الدينية وما يترتب عليها، كالمشاركة في الصلاة ومصداقية الشهادة، يهوديا. ومن جهة انتمائه العرقي الذي يثبته نسبه إلى أمه، فإنه يبقى خاضعا للقوانين المتعلقة بالأحوال الشخصية (الزواج والطلاق) ويعتبر هذا التمييز دقيقا جدا، ويساهم في حل مشاكل غالبا ما تكون معقدة .

الموت: عقيدة وشعائر ومعتقدات شعبية

ديـــن وســحـــر

الموت الذي يباغت المرء بسبب حادث أو على إثر مرض، مناسبة لعدد هائل من الشعائر الأرتودكسية والهرطقية. وهو مناسبة لعديد من الطقوس والفرائض. إنه مظهر الخلاص اليهودي الطائفي والديني والشرعي، لهذه الشعيرة التي تتمثل شعائر أخرى تستقي من المتخيل الاجتماعي ومن معتقدات العامة ومطلق الناس، ومن الفلكلور المحلي والسحر، مع بعض أفعال تعبدية واحتفائية، حيث يلتقي العامة ويتفاهمون ويأمن بعضهم بعضا، بغض النظر عن انتمائهم العرقي والديني، فهم جميعا، عربا وأمازيغ، يهودا ومسلمين، لا يختلفون في بُناهَم الذهنية وإن اختلفوا في مللهم وعقائدهم. وفي هذا الفضاء المتميز، فضاء الموت، كغيره من الفضاءات الأخرى، مثل الولادة والزواج، تتجلى تكافلية ذهنية، بل توافق على أرضية دينية، يعبر عنها بنفس المعتقدات ونفس الأفعال ونفس صيغ الابتهالات، وأحيانا بنفس النواح ونفس التضرع، وخصوصا أمام قضاء الموت .

إن الاعتقادات والأفكار حول الموت، والتي وصلتنا عن طريق الكتابات اليهودية التوراتية والربية، المتمثلة في التلمود و" المدرشيم " [التفاسير الملحقة بالتلمود] والأساطير وكتاب " الزّهَرْ ". أو عن طريق الروايات الشفوية والشعبية والعامية، التي تنتمي في معظمها إلى الذاكرة الجماعية الخاصة بالشعوب السامية وشعوب حوض البحر المتوسط ، أندلسيين ومورسكيين ومغاربة، والتي توجد منها روايات متعددة ومختلفة، كلها صيغت في غالبيتها، انطلاقا من تقاليد مكتوبة سابقة .

وفضلا عن ذلك، ليس من السهل دوما فصل المكونات التي منها ينبني هذا الطقس الخاصة بالموت. ولا تسمح بنيته المعقدة بتمييز مكوناته الدينية السليمة عن باقي العناصر الأخرى التي أتته من السحر والفلكلور وموروث الأعراف والعادات المتعددة والاستعمالات ذات الأصول المختلفة .

ويجب أن نعرف أيضا، أن الموت بالنسبة للفرد، في الفكر اليهودي، هو مسألة ذات أهمية كبرى، إنه خلاصة الحياة، إنه يوم الدين وتقديم الحساب " يوم ها دين يوم دين وحشبون " إنه اللحظة التي سوف تتقرر فيها نهائيا الصفة التي سيكون عليها وجوده الأبدي: العقاب أو التواب. ولا يعتبر الموت قضية في حد ذاته مادام مرتبطا بالخلاص والنجاة. والموت لحظة من التأثر العميق، وهو كذلك لحظة من لحظات التعظيم والإجلال، عند المؤمن الزاهد في ملذات الحياة اللامبالي بتفاهة الدنيا، وهو بالنسبة إليه باب تطل على العالم الجديد: الحياة الأخروية " عولم هبا ". إنه طريق نعيم الآخرة الذي يهفو إليه كل مؤمن تقي .

سكرة الموت وساعة الاعتراف والبوح (1) . التوبة والندم

" على المحتضر " أن يعود إلى نفسه " قبل أن تلتحق روحه بخالقها، وعليه أن يتوب ليموت مطمئن النفس، وأن يردد كلمات الملك سليمان : " الكل إلى نفس الغاية، الكل من تراب ويعود إلى تراب ". إنها اللحظة التي سوف يُودِع فيها روحه لرب العزة وهو راضي النفس خاضع

---

1 - نجمع في هذا الفصل ما نعرفه نحن في موضوع الموت وما شاهدناه، وما اطلعنا عليه خاصة في كتاب " نحلت أبوت " (تراث الأجداد)، الذي نشره في Livourne سنة 1898 حبر مغربي صويري، هو إسحاق قرياط. وفيه جمع النصوص الشعائرية الخاصة بأيام الحداد وأخرى حول الطقوس الجنائزية التي مارسها يهود المغرب.

لإرادة خالقه. وليتذكر أنه ليس خيرا من آبائه. وأن الروح إنما تغادر دنيا الظلمات ليجللها جلال الأنوار. وتترك دنيا العبودية إلى دار القرار ... وإذا مات الإنسان فإن أعماله وما فعلت يداه. تعرض أمامه واحدة بعد الأخرى. وتقول: " لقد فعلت كيت وكيت. وهذا وذاك. في ذلك المكان وفي ذلك اليوم " فيجيب الإنسان: أن نعم. وكان ذلك . وهذا ما جاء في سفر أيوب. الإصحاح السابع والثلاثون.: " كل بني آدم بأيديهم يختمون. وبما كانوا يفعلون يعترفون ".

مات في قبلة (1)

أن يموت المرء في سن متقدمة وفي جلال العمر. تلك نعمة. أما أن يموت شابًا أو في زهرة العمر. فتلك تعاسة ولعنة من اللعنات (2) .ويموت الإنسان بسبب الخطيئة الأولى. خطيئة آدم الذي أكل الفاكهة المحرمة. ويموت كذلك بسبب الآثام الشخصية التي يرتكبها هو. ومع ذلك يسرد الربيون أسماء كثير من الأبطال والقديسين الذين ماتوا دون أن يرتكبوا آثاما. إنما بسبب سم حية حواء.

ويموت الإنسان لأسباب مختلفة. فيموت موتا طبيعيا أو مفاجئا. بعد احتضار طويل أو قصير. كل حسب أفعاله وما يستحق. فهناك "موت في قبلة" " مته بنشقه". تشبه سل الشعرة من كأس الحليب. أو القطرة من سطل الماء .أن تمر من الحياة الفانية إلى الحياة الأخرى دون

---

1 - يتعلق الأمر هنا بمعتقد مؤداه أن بعض الأتقياء. وخصوصا موسى. لن يعانوا من زفرات الموت. وأنهم يتوفون في حال من الطمأنينة وسكون الروح. مصدرهما قبلة إلهية. وتعرض لهذه الفكرة نصان في كتاب " الزهر " (II. 124ب و146 أ/ب). فهذه العلاقة الروحية هي علاقة اتحاد. وجد القبليون ما يشير إليها في نشيد الأناشيد: " يقبلني قبلات من فيه " (الإصحاح الأول آ 2). وهكذا فالذي تخرج روحه " بقبلة " يتصل بروح آخر لا يفارقه أبدا...روحه يتصل بالروح القدس.

2- قارن في هذا الصدد سفر التكوين إ 15 آ 15 وأشعياء إ 38 آ 10,

عذاب. تلك هي السعادة. وهكذا يموت الأولياء والصديقون. وهكذا مات موسى " حسب قول الرب " (التثنية إ 34 آ 5).

يدخل الجنة بعيون مفتوحة

إنها نصيب العادل الذي يدعوه الله إليه دون عناء. ويتلقاه الموت بعينين مفتوحتين .أو كما يقول مثل مأثور يهودي - عربي بالمغرب. " دخل الجنة بعيون مفتوحة" وصاحب هذا الحظ في المجتمع الإسلامي. هو الحلاق الذي يختن الأطفال تطهيرا لهم بهذه الفريضة الإبراهيمية. وصاحب الفرن الذي يعرض نفسه طوال حياته إلى لهيب فرنه. أما في المجتمع اليهودي. فأصحاب هذا الحظ هم الرجال المتواضعون الذين كرسوا حياتهم لخدمة الدين. والذين امتهنوا مهنا صعبة قاسية.

الإخبار بالموت : الظل والحلم ، ملاك الموت والرّبّي

أن تفقد ظلك. وأن تحلم بوالديك وأصدقائك. وأن ترى في منامك لفائف التوراة. فتلك علامات النذير بموت مقبل. وإيذانا في نفس الوقت بالدخول في خدر ملاك الموت .

وتعْرض قصة شعرية قُدَّاسية. بلهجة يهود المغرب. تُروَى في تنغير بالأطلس الكبير (1). بعض التصورات والمعتقدات وبعض أفكار ترددت كثيرا عند القباليين. بل أوردها كذلك فقهاء " الهلاخا " أو علماء الشريعة. بما يتلاءم مع عقلية السكان يهود طوائف الأطلس والمغرب على العموم. ومع تقاليدهم المحلية وفلكلورهم الخاص. في تصورهم لعالم الموت وأساطيره. والجنة وملكوت السموات. وقوة شفاعة

1 - سبق أن نشرنا هذه القصة في

Littératures populaires et dialectales, p .164-184; Kabbale...p .81-83, 162 et 423-433.

الأولياء، والشعائر الجنائزية، وفريضة تعليم التوراة للابن، وحقوق واجبات الجمعيات المختلفة. ولقد وجد صاحب القصة كل هذه التصورات في نصوص يعرفها جيدا، أي في كتاب "الزهار " (I 217ب 218 ا). جاء في القصة: " في أحد الأيام، كان الربي إسحاق جالسا بباب بيت الربي يهودا، وقد استغرقه حزن عميق، وعندما خرج الربي يهودا ووجده على هذه الحال، قال له : " ماذا ألم بك اليوم؟ ". أجاب الربي إسحاق : "جئت لأطلب منك ثلاثة أشياء: إذا كنت تدرس التوراة وحدث لك أن أوردت بعض أقوالي، فعليك أن توردها باسمي، وأن تذكر من رجعت إليهم فيها. وعليك أن تتفضل وتعلم ابني التوراة، وأن تذهب لتصلي على قبري مرة في الأسبوع بعد موتي". وسأل الربي يهودا : " من أين علمت بأنك ستموت؟". أ جاب الآخر: إن روحي تفارقني في كل هذه الليالي الأخيرة، دون أن ألهم بذلك في حلمي، كما كان الشأن في الماضي، وأكثر من ذلك، عندما أنحني في صلاتي لا أرى أثرا لظلي على الحائط، وهذا ما يوضح أن الملاك قد خرج ليعلن (موتي)، ذلك أنه جاء:" إنما الإنسان ظل يسعى على الأرض" (الإصحاح الثامن والثلاثون، الآية السابعة من المزامير). وجاء: " إنما أيامنا ظل على الأرض " (الإصحاح الثامن من سفر أيوب). قال الربي يهودا: "إني سأفعل كل ما طلبته مني شريطة أن تحتفظ لي بمكان بجانبك في الدار الآخر، وبذلك (نكون جيرانا) كما كنا عليه هاهنا". وبكى الربي إسحاق وقال: " اصنع لي معروفا بأن لا تفارقني أبدا " ثم توجها عند الربي شمعون ووجداه منكبا على النظر في التوراة، وعندما رفع الربي شمعون عينيه لينظر إلى الربي إسحاق، كان ملاك الموت في هذه اللحظة يجري ويرقص أمام هذا الأخير، أخذ الربي شمعون يد الربي إسحاق وقال: " آمر مَنْ عادتُه الدخول ليدخل، وأن لا يدخل من لم تكن عادته كذلك." دخل الربي إسحاق والربي يهودا، واضطر ملاك الموت إلى

البقاء في الخارج. نظر الربي شمعون إلى الربي إسحاق ورأى أن ساعته لم تحن بعد. إذ لن تحين إلا في الساعة الثامنة من النهار.

وأجلسه وأخذا يدرسان معا. وقال شمعون لابنه اليعزر: " اجلس أمام الباب ولا تكلم أحدا. وإذا أراد أحد أن يدخل، فاستحلفه ألا يفعل ذلك ". ثم قال للربي إسحاق : " هل رأيت اليوم طيف أبيك (في الحلم)؟ إذ أخبرونا. أنه في الساعة التي يريد أن يغادر فيها الإنسان هذا العالم. يقترب منه والداه ويجتمع حواليه أقرباؤه ينظر إليهم ويتعرف عليهم، وكذلك كل من ارتبط بهم في هذه الدنيا. الكل يجتمع حوله ويرافقون روحه إلى المكان الذي خصص لها " . أجاب الربي إسحاق: " حتى الساعة لم أر شيئا ".وعندها وقف الربي شمعون وقال: " سيد الكون. إننا نعرف الربي إسحاق حق المعرفة. وهو واحد منا وأحد العيون السبعة (1) في هذه الدنيا. إني أريده. فاتركه لي " عندئذ تردد صوت قائلا: " كرسي العالم (الربي إسحاق) هو أقرب إلى أجنحة الربي شمعون. ها هو لك. لتأخذه معك يوم تأتي فيه لتجلس على كرسيك ". عندئذ رأى إلي عيزر. ملاكَ الموت يذهب بعيدا وهو يـــردد: " لا مكان أبدا لملاك الموت حيث الربي شمعون بار يوحاي ". وقال الربي شمعون لابنه: " تعال اسند الربي إسحاق. إني أراه خائفا ". ودخل الربي اليعزر. وأخذ (يد) الربي إسحاق بينما رجع الربي شمعون إلى النظر في التوراة..." قال الربي إسحاق :" أيها الأب. كم بقي لي من وقت على هذه الأرض؟ " أجاب الأب: " إنه أمر لا نستطيع أبدا أن نكشف عنه للإنسان. ولكن ستكون أنت الذي يقيم المائدة في عيد الربي شمعون..."

---

1 - يتعلق الأمر هنا بسبع رفاق جاء ذكرهم في " الزهر " ومهمتهم السهر على سلامة الدنيا.

ولنضف هنا أيضا هذه الفكرة الزهارية [نسبة إلى الزهر]: عندما تقترب ساعة الحساب، تنفذ روح جديدة داخل الإنسان، وبفضلها يدرك ما لم يكن قادرا على إدراكه من قبل، أي الحضرة الإلهية "شخيناه". وبعدها يرحل عن هذا العالم. إذ جاء في سفر الخروج، إ 33 آ 20 : "ليس في مقدور الإنسان أن يراني ويعيش. فهذا غير ممكن في الحياة، غير أنه ممكن لحظة الوفاة.

وليس هناك في المغرب من يجهل هذه الحكايا المتعلقة بالموت وملاك الموت. وهي قصص يرصع بها الربيون خطبهم ومواعظهم ودروسهم الخاصة التي يستقونها من التلمود و" الموسار " أو الأخلاق اليهودية. وهي معروفة في اللهجات المحلية. وليس خاف أن غضب ملاك الموت، يهدأ بالأعمال الجليلة. إلا أنه عندما يتلقى أوامر الله الصادرة عنه ذاته، فإنه يصبح قادرا على أن ينال الأخيار والأشرار على حد سواء.

المدينة التي لا يدخلها الموت

ليس لملاك الموت أي سلطة في مدينة " لوز" المشهورة التي ترددها قصص التوراة. وعندما يبلغ أحد السكان سنا متقدمة، يخرج من المدينة ليسلم الروح خارج الأسوار (1).

---

1 - عرفت في إيرلندا أسطورة مشابهة لهذه. قيل إن موطن " لوز " كان في بيت إيل في أرض كنعان، وقيل إنه كان في مدينة من مدن الحثيين، وقيل في ليزان في بلاد كردستان. وذكرت الأسطورة في التلمود (سوتاه، 46ب)، وفي الزهر (I، 151ب)، وفي المشنا (تكوين ربا، 69، وشرح التكوين XXVIII . 19)، وفي غير محل. وتجدر الإشارة إلى أن لفظ " لوز " في اللغات السامية يعني لوز[حبة اللوز]، غير أنه يطلق كذلك في العبرية على عضو حيوي، هو الفقرة العنقية التي يظن أنها لا تفنى. ومن هذه العظيمة المعروفة بعظم اليهودي، والتي لا ينال منها القبر، تبدأ الحياة الأخرى وبعث الأجسام، حسب أسطورة ترددت في الآداب المدرشية (لاويون ربا، 18 وقوهلت ربا XII، 5) والزهر (I، 137 أ وIII، 122 أ)، وفي قصص طبية وحكايات لاهوتية يهودية ومسيحية وإسلامية، في العصر الوسيط، أنظر أيضا
Kabbale...p .54,162, 206, 238 .

ويخضع ملاك الموت دائما لإرادة شيوخ التقاليد. بل يلاحظ أن له مع بعضهم مخالطة وتآلفا. ويُمنح بعضهم الآخر مهلة من الحياة. يقول الربي شمعون بن اخلافه : " لا سلطة للموت على من ينكب على دراسة التوراة " والتعليم والدراسة ذرع تحمى من سلطان ملاك الموت. يقول الربي شمعون بريوحاي :" عندما نزلت التوراة على بني إسرائيل مكنهم لله تبارك وتعالى سيفا نقش عليه الاسم الأعظم". ومادام هذا السيف فيهم، فلا سلطان لملاك الموت عليهم ". وبهذا أول المؤولون كذلك الآية الثامنة، الإصحاح الثامن عشر، من سفر المزامير التي جاء فيها: " إن شريعة الله كاملة، وتبعث الروح " وإذا ما صدر حكم قضاء الموت، أصبح قدرا مقدورا، ويكون تنفيذه أمرا عسيرا لمن أمر بفعله. ويقال إن إبراهيم منع ميكائيل من أن يأخذ روحه. كما امتنع موسى أن يودعها لشموائل .ولم يستسلم الربي حيا لملاك الموت، إلا بعد أن استخدم هذا الأخير حيلة، وجاءه في شخص شحاذ. بل كان أحيانا تدخل فعل الله ضرورة لإضعاف مقاومة صناديد التلموديين المشهورين .

وهكذا انتزع يهوشوع بن ليفي السيف من ملاك الموت. وكان لابد من أن يأمره الله بواسطة " بات قول " أو الصوت السماوي ": " أعد إليه سلاحه إن أبناء الإنسان بحاجة إليه " (1).

وفي هذا الصدد تتداخل الأساطير ذات المصادر اليهودية مع أساطير أخرى من أصل عربي، أو مع تلك التي تعود إلى أصل معرفي يشترك فيه المجتمعان. وجاء في إحدى هذه الأساطير: " قبل أربعين يوما من الأجل المحتوم، تسقط ورقة من شجرة الحياة المنتصبة تحت عرش الإله، بين يدي عزرائيل، أو ملاك الموت، حسب التقليد الإسلامي، لتعلن

---

1 - قارن في ما سبق مع قصة سيف ليليث

نهاية كائن بشري". وتروي أسطورة أخرى أنه : "عندما يتوفى الله تقيا من الأتقياء. فإن عزرائيل يتقدم أمامه مصحوبا بمجموعة من ملائكة الرحمان. يحملون أطيب عطور الجنة. ويعملون على أن تنسل الروح من الجسد. كما تنفصل القطرة من دلو ماء ". ويقال كذلك إنه عندما يسرف الناس في النحيب وبكاء شخص من الناس. يصيح فيهم عزرائيل الواقف أمام باب البيت: " لماذا هذا النحيب وهذا البكاء. فما أنا إلا رسول من الله جئت لأنفذ أوامره. فإذا أنتم تمردتم ضد إرادته. عدت مرة أخرى لآخذ غير الميت من بينكم من هذا البيت ".

إخوان الرحمـــة والحقيقة

لا تخلو طائفة من طوائف اليهود. من جمعية منتظمة ذات فروع متعددة. تقوم بما أنيط بها من أعمال خيرية تطوعية: من ذلك حضورها منزل المحتضر لمواساته إلى أن تلتحق روحه بربها. والسهر على إعداد الجنازة. غسلا وكفنا. وقيادة الموكب الجنائزي والقيام بمراسيم الدفن. والتكفل بوجبة التعزية. وتقوم بعملها هذا طبقا لأوامر الشريعة ومقتضيات الأعراف. وتسمى الجمعية عادة " حِبْرا قَدِيشا" أو جمعية دفن الموتى. ويمكن أن تسمى أيضا "حِبرا دَا الربي شِمعون" (1) أو "حِبْرَتْ حِسِد وإِمِتْ" أو إخوان الرحمة والحقيقة.

ساعة الجهر بالعقيدة. الشهادة أو قراءة "الشماع"

عندما تأتي ساعة" خروج" الروح. يعترف المحتضر بآثامه شفهيا (تمتمة على الشفاه) أو في قلبه. دون حضور النساء والأطفال الذين

---

1 - هو الربي شمعون بر يوحاي السابق الذكر. وإليه ينسب تأليف كتاب الزهر.

يعكرون بصياحهم ونحيبهم جلال اللحظة. وبعدها يأخذ الحاضرون في توديع المحتضر، ويتسامحون فيما بينهم، ثم يبوح هو بآخر رغباته، ويبارك الأطفال. وبعد أن يغسلوا يديه وينطق بالدعاء المتداول، يغطون رأسه بخمار الصلاة " طاليت" ثم ينطق بالشهادة : "الإله الأبدي حق وتورانه حق، وموسى نبيه حق، وأقوال الحكماء حق. تبارك مجد الله وملكوته أبد الآبدين".وتأتي بعد ذلك شعيرة خاصة تتضمن تلاوة فقرات من العهد القديم ومن المزامير، وسفر حزقيال : (الفصل الأول الخاص بلمح العرش الإلهي) وصلوات التوبة وغير ذلك.

ويعتبر المحتضر حيا في كل الأحوال. ولا ينبغي، كما يقول مؤلف كتاب " ناحلات أبوت ". أن تشد فكاه، ولا أن تغلق منافذه أو تسحب المخدة من تحت رأسه أو يبسط على الأرض ليوضع على بطنه وعاء مملوء بالماء أو حبة من الملح أو تغلق عيناه. كما لا ينبغي أن تستدعى النائحات المحترفات الخ. قبل أن " تخرج روحه". ومن تصرف بغير ذلك يعتبر قاتلا ...ولا ينبغي كذلك وضع مفاتيح البيعة تحت رأسه للتعجيل بموته. ومع ذلك يرجى ألا تطول به سكرة الموت. ويجب تجنب كل ما من شأنه أن يعكر صفوة موت هادئ " موت تفيض فيه الروح في سلام " كمثل وجود حطاب مزعج، (هكذا)، أو الملح الذي يوضع على اللسان أو النواح والبكاء. ويجرد المحتضر في بعض المجتمعات الزراعية، من كل ما عليه من حلي ومجوهرات، وكل ما يشد ويلف، والجلباب الذي له "سبع فتحات كفتحات جهنم ". والمخدة التي " تشد الروح إلى الأرض". ومن الأفضل أن يحيط الحاضرون المحتضر في حلقة ضيقة، عند اللحظة التي يسلم فيها الروح، حتى لا ينفذ إليه أي نفس خارجي. وعند رأسه تشعل شمعة أو سراج. وجرت العادة كذلك بإبعاد الوالدين والأقرباء الذين

يشهقون. وبفتح نوافذ الغرفة حيث يرقد. إذ منها تدخل الشياطين، وشرذمة العفاريت التي ترافق ملاك الموت. وكذلك منها تخرج روح الميت لتصل إلى القبة الزرقاء، وتنفصل عن الجسد مع آخر نفس . محلقة. كما يزعمون، كطائر أو ذبابة أو نحلة كبيرة ...

ويظل رجال " الحبرا " يرقبون لحظة النفس الأخير. إنهم أصحاب خبرة وتجربة. ولا تخفى عنهم بعض حركات العيون والشفاه. وبعض الحشرجات المعلنة عن الموت. وهي علامات معروفة لديهم. وهم وحدهم الذين يقررون اللحظة التي ينبغي أن ينطق فيها بالشهادة: " شِماعْ إِسرائيل " (اسمع يا إسرائيل، الخالد ربنا ، لا إله إلا هو) إنها الشهادة التي تعلن عن وحدانية الله .

انه لمشهد مؤثر. إذ تتردد الشهادة بوقار وهيبة. ومع ترددها تزداد حشرجة أصوات الحاضرين، أعضاء "الحبرة " والأهل والأقارب. وكأنها تشد من عضد حشرجة المحتضر. حتى اللحظة الأخيرة والنفس الأخير. ومن من اليهود الأتقياء لا يتمنى أن يسمع، وهو يلفظ نفسه الأخير. كلمة "إِحَدْ" أو واحد. من الشهادة اليهودية كالذي حدث لربي عقيبا. عالم التوراة الكبير. وشهيد بني إسرائيل. الذي عذبه الرومان إلى أن مات في سبيل الله وتمجيد اسمه .

يغلق الولد البكر عيني أبيه المتوفى. كما فعل يوسف بأبيه يعقوب. إذ جاء في التكوين. الإصحاح السادس والأربعين. آ 4 : "إنه يوسف الذي يضع يده على عينيك" وهذا الفعل يؤوله صاحب كتاب "الزهار" تأويلا صوفيا. إذ يقول : " [إنه لفوز عظيم] غلق العينين عن رؤية هذا العالم والتملي بلمح العالم الآخر. والانغمار في نوره الساطع. ولو في آخر لحظة من لحظات هذه الدنيا " (الزهار III 169أ). وإذا كانت الأسرة

تملك قليلا من تراب الأرض المقدسة، فإنها تذر منه على عين الميت. وقد تعرض كتاب " نحالات أبوت " إلى عادة تقتضي بأن يُملأ فم المرأة المتوفاة، ممن فقدن أبناءهن جميعا في حياتهن، بالتراب إذا ما ظل مفتوحا.

وما أن تصعد آخر زفرة وتستسلم الروح إلى خالقها، حتى يرتفع عويل النساء، فيصحن ويندبن وجوههن. وهذه العادة، هي آخر ما تبقى من هذا المأتم الدامي الذي أشار إليه Frazer ، عندما تحدث عن عادة العبرانيين، وبعض الشعوب والحضارات الأخرى، بحوض البحر الأبيض المتوسط، حيث تتجلى مظاهر حزنهم عن موت أحد أقربائهم، أو أحد الأصدقاء، بندب الوجه وتشويه الجسم وتمزيق الثوب. واعتبرت هذه العادة فيما بعد، فعلا من أفعال الهمج والوثنية، وحرمت تحريما: " إنكم أبناء الأبدي، إلهكم، خدشا على ميت لا تجعلوا أبدا في أبدانكم " (1) .

التمزيق وصب المياه

يجرد الميت من ملابسه، ويوضع عاريا على الأرض، ثم يغطى بإزار. ويحدث كذلك أن يعزل الميت بستار يعلق بين حائطين، فتغطى المرايا إذا ما كانت موجودة، أو تقلب.

وتتردد تضرعات التوبة والمغفرة، ويطول الترتيل بقراءة المزامير والابتهالات والتوسلات وقراءة العقائد الثلاث عشرة (2) ... وتنتهي هذه اللحظة بطقس خاص، يسمى " صِدُّوق ها الدِّين " أو قبول أمر الله، مؤداه: " اقبل حكم الله " ويبدأ هكذا :

---

1 – سفر اللاويين إ 19 آ 28 مع بعض التغيير.

2- ثلاث عشرة عقيدة يتجلى فيها أيمان الأنسان بالله وخلوده وقدرته وسلطانه. وضعها موسى ابن ميمون، وأصبحت من مقروءات اليهود أين ما كانوا (المترجم)

" عــادل أنت يا رب، وحكمك عــدل "(المزاميـر إ 191 آ 137) . ويختم بالتسبـيح التالي: " حمدا لك يارب، أنت العــادل الحق " وترفق قراءة هذه العـبارة بعـمليـة " لَقْريـعة " أو التـمزيق، وهي رمـز الانقطاع. وتذكيـر بالختان بشكل من الأشكال، وترمز للفراق الذي لا لقاء بعده، بعد أن أعلن عن الوفاة المكلفون بمراسيم الدفن، أعضاءُ " الحبرة.".

إن الأمر يتعلق هنا بشعـائر الفراق التي تعرفها المجتمـعات العربية - الأمازيغية في المغرب، بهـذا الشكل أو بغيره من الأشكال، تفارق الروحُ الجسـدَ الذي كانت تسكنه، وتفـارق دون حسـرة، الأهل والأصدقـاء وعالم الأحيـاء، وتتجـرد من الثروات والأمـوال التي هي من سقـط متاع الدنـيا، لتلتحق بعـالم الأموات، بالأسـلاف والأهل، كما جـاء في العهد العـتيق، (التكوين إ 25 آ8) وفي أماكن أخرى، وقد حـددت الديانة اليهودية تحديدا دقيقا، عملية التـمزيق " القريعة"، والطقوس الأخرى المرتبطة بالموت، في التشريع التلمودي وغيره من المدونات، كتشريع ابن ميمون ويوسف كارو خصوصا، ووصـفت تفاصيلها في المختصرات التي احـتفظت لنا بالعادات والأعراف المحلية، ويوجد ضمن هذه العوائد كذلك، عادة أخرى لها دلالتها، وتتجلى في صرف الماء الذي يوجد في بيت الميت وفي بيت جيرانه، بل كل ميـاه ساكـني زقاقـه، في المجاري . وهـذا الماء الذي يوضع عـادة في جرار من الطين، أو أي وعاء أو مـاعون، فإنه يصـبح غير قابل للاسـتعمـال، وينبغي تعـويضه حـينا بماء آخـر عذب، ينقـل من العين أو يستـصـدر من البئـر، ويسـمى هذا الطقس " دين شفـخـات مايم " (عــادة صب الماء)، ويعلل هذا الإجراء تعليـلات مختلفـة، من ذلك أنه وسيلة من وسـائل " إعلان " الجيـران بالوفـاة دون حـاجة إلـى اللجوء للـخطاب المباشـر، أو للكلمـات المنذرة المحملة بالخطر الداهم، فملاك الموت يطوف بالأنحاء، ولكن السبب

الأساسي الذي يميل إليه عدد من علماء الأحبار هو: أن ملاك الموت هذا إذا ما انتهى من عمله في بيت من البيوت، فإنه يغسل توا سيفه الدامي في مياه هذا البيت، ومياه بيوت الجيران، ويترك بها قطرات بها آثار الموت والحداد. ولهذا ينبغي الاحتياط من لمس هذه المياه، بل من استعمالها.

في الوقت الذي يهيئ فيه بعض أفراد " الحبرا " مراسيم الدفن، على الآخرين أن يبقوا حول المتوفى - وهم الحراس فعلا - في دائرة ضيقة، منذ اللحظة التي يسلم فيها الروح إلى أن يوارى التراب، وذلك حفظا له من أي نفس يصله من خارج (هكذا). كل هذا وهم يرددون دعاء صوفيا، في حال من الفناء، يقصدون بذلك إبعاد الأرواح الشريرة التي تطوف حول الجثة، إنها قطعة شعرية قديمة جدا، تنسب لأحد أعلام التلمود، العالم ناحونيا بن هاقانا، وتتوزع كلماتها الاثنتان والأربعون، على سبعة أشطر موزونة رائية القافية، يفترض أنها تتضمن اثنين وأربعين حرفا هي التي تكون "الاسم الأعظم " الذي يتوسل به لحماية روح الفقيد. ومن جهة أخرى فإن البيت الثاني من هذه القطعة، يتضمن كلمات تكون حروفها الأولى العبارة: " قرع سطان " وهي صيغة تناشد الرب أن "يمزق الشيطان" أي إبطال دعواه، وتبدأ القطعة هكذا: " فالتفك العقدة بقوة جلال يدك اليمنى ".

مراسيم الدفن

واجب دفن الموتى: يذَكِّر الربي إسحاق قورياط، مؤلف " ناحالات أبوت"، بأن أكبر إهانة يهان بها الميت هي أن يدفن بطريقة غير شرعية. والتوراة نفسها تفرض أن يدفن الإنسان ولو كان مجرما أعدم أو عدواً قتل في ساحة المعركة. والدفن فريضة تضطلع بها العائلة والمجموعة

كلها. والمقبرة مكان ومؤسسة تقوم بشأنها الطائفة. وهذه الفريضة واجبة على كل من يصادف ميتا في مكان خال أو في أرض أجنبية (غير يهودية). وعليه أن يقوم بدفنه بدون تأخير، بل ودون أن يلجأ إلى جهة مسكونة قريبة للبحث عن مساعدة. إنها حالة " مت مصواه " أو الجثة المهجورة. وتؤكد النصوص التلمودية، أن الدفن في التراب يمنع من تحلل الجسد، ولكنه يساعد كذلك على التكفير عن الذنوب. وجاء في أحد التفاسير " مدْراش " (برق الربي العزر، الفصل 21) أن آدم وحواء تعلما دفن الأموات عن غراب. وفي مكان آخر قال: " طائران مقدسان دفنا هابيل الذي قتله أخوه قابيل " .

وينبغي أن يدفن المتوفى في نفس يوم الوفاة، إلا إذا كان هذا يوم سبت، وفي هذه الحالة يؤجل إلى اليوم التالي. ويفضل الربي حاييم يوسف داود ازولاي، ومختصر اسمه (حيدا) من القرن الثامن عشر، ومن أصل مغربي، ولد في القدس وتوفي في ليفورون، أن يدفن المتوفى بعد الوفاة مباشرة " ولو أمكن أن يدفن وهو لم يمت بعد " ويعتمد في ذلك رأيا صوفيا نقل "عن القباليين" الذين يقولون، بأن أي تأخير يسبب آلاما شديدا للميت، ويمكن أن يكون ذلك سببا في مصائب كبيرة تتعرض لها الإنسانية جمعاء.

والمقبرة مكان مقدس، وتسمى تسمية تضاد تفاؤلية هي" بيت هاحاييم " (بيت الأحياء) ويطلق عليها في اللغة اليهودية المغربية عادة " الميعارة "(المغارة). وهذا يذكر بأماكن وطريقة الدفن العتيقة التي كان الموتى يدفنون بمقتضاها في الأرض المقدسة وفي المغرب. يحفر القبر عميقا، وتغشى جوانبه بالخشب، كما في الصويرة أو بالآجور كما في فاس. وتخصص بعض الأماكن للربيين والوجهاء وعائلاتهم. كما

تخصص مساحة مربعة للمنبوذين والمنتحرين والعاهرات: وفي هذه الحالة يلوح الحفار بمعوله فوق رأسه. ويرمي به صدفة. وحيث يسقط . يدفن المنبوذ على عجل. ودون أدنى احتفال.

صورية الأحكام الأربعة الرئيسية وغسل الميت

تعد عملية التظاهر التمثيلية في إنزال العقوبات الأربع الرئيسية بجثة الأتقياء. طقسا من طقوس الاستغفار والتكفير. والمقصود منها إبعاد عذاب جهنم عن هؤلاء. ويُسند القيامُ بها إلى أفراد من" الحبرا". الذين يؤدونها بوقار وإجلال بعد الاغتسال. وتكون مصحوبة بطقس خاص. وهو بدوره يسبق بتأمل صوفي يجعل كل فعل من أفعال الحياة "يهفو إلى أن يتحد القدوس تعالى بالحضرة أو " الشخينة ". رهبة ورغبة. بنيّة الحلول في الاسم الأعظم حلولا كاملا ".

ويجري كل ذلك كالآتي: أولا تمثيل عملية الرجم "سقلَة". فالإحراق "شرفَة" فالذبح "هرِكَ" ثم الخنق"حنِق". ويقذف أحد أفَراد "الحبرا" سبع حجرات. واحدة بعد الأخرى. جهة قلب المتوفى وهو يردد العبارة التالية ثلاث مرات: " هكذا يُفعل للإنسان الذي تمرد على خالقه" ويجيب الآخرون مهمهمين: "الويل لنا يوم الحساب. الويل لنا يوم العقاب".

تحرق مناخر الميت حرقا خفيفا بقطرات تقطر من شمعة مشتعلة. وتشد رجلاه بحبل ويهز هزا. ويجر خطوات كمن يراد ذبحه. ويتظاهر بخنقه بأن يُشد عنقه بنفس الحبل أو شريط من الثوب. وتصحب كل عملية من هذه العمليات الثلاث. وكذلك الأولى. بابتهال ودعاء وتضرع. يبتعد هؤلاء عن الميت بمقدار أربعة أذرع تقريبا. ثم يقفون لحظة. ثم يعودون قريبا منه ويرددون : " إنك أخونا. إنك أخونا. إنك أخونا.

ومنذ اللحظة التي قبلت فيها الحكم، غفر الله لك وتجاوز عن سيئاتك، ورفعت عنك اللعنة والحرمان ...".

وتبدأ عملية غسل الميت، وهو طقس التطهير الذي يعبر عنه باللفظ العربي - العبري " طَهَارَة ". بنفس الجلال والرهبة، فتتلى دعوات وتضرعات أخرى، لا يلفظ فيها اسم الله ".أدوناي"، ولكنه يعوض باللفظ المستعمل " هَشِّمْ " (الاسم).

ويحمل الغسالون أو الغسالات - وهكذا يسمون بالمغربية أو "روحصيم " كما يسمون بالعبرية - الجثة على الألواح ويغسلون المتوفى ويطهرونه، طبقا لما نصت عليها التوراة وجرت به العادة، وتبعا لطقس يتطلب كثيرا من الحيطة والعناية، فيستخدمون مرة الماء الساخن، وأخرى البارد والصابون وماء الورد وماء الزهر وأغصان الرند والزعتر، فينظفون المنافذ بعناية فائقة ... ويستعملون أواني (أوعية وغلايات) حددت أعدادها، وهي سبعة بالنسبة لبعض أنواع الاغتسال . ويحتاطون من أن تتبادل الأيادي هذه الأواني، إذ يجب أن توضع على الأرض، بعد أن ينهي المستعمل عمله ليأخذها غيره بعده. وتقلم الأظافر وتجمع قلاماتها حتى لا تتخطاها أو تدوسها الأقدام، ثم ترمى قلامات الغسالين والمتوفى معا في الجاري مباشرة، خوفا من أن تؤخذ لتستعمل في أعمال السحر والشعوذة .

ويجفف الجسد بشراشف نظيفة ويكفن. وتفصل عادة مختلف قطع الكفن من نسيج كتان أو قطن. ويكفن الميت حسب الشعائر الدينية على الطريقة الآتية: يغطى الرأس بـ" العرَّاقية " كما تسمى في العربية، ثم يلف في سروال وقميص، وسترة "قصوت"

وعمامة ووشاح الصلاة الذي شدت أهدابه قصدا ليصبح غير ملائم للصلاة " صيصت " ومعطفا خيط كله ليكون " وجه كفن "

ولنذكر هنا شعيرتين لهما دلالتهما: أولاهما يهودية محض، وثانيتهما تحمل طابعا مشتركا يدل على توافقية معرفية مغربية يهودية - إسلامية وأمازيغية - عربية ذلك أنه :

جرت العادة أثناء التكفين في المجتمعات اليهودية، بوضع الإبهام في كف اليد ليرمز مع بقية الأصابع الأخرى، إلى اسم من أسماء الله، أو بالأحرى إلى صفة من صفاته وهي القادر " شداي " حيث يكون هذا الوضع حرف الشين (ثلاثة أصابع) والدال (إصبع واحد)، والياء نقطة ويعني بسط اليد أيضا على هذه الصورة، التجرد من كل متاع الدنيا .

وجرت العادة في المجتمعات الإسلامية، بستر الأعضاء التناسلية أثناء الغسل، بجزء من برنس المتوفى. وتحتفظ العائلة بهذه القطعة الثمينة التي يعتقد أنها مكمن القوة الرجولية وبركة الأب الفقيد . وتوضع ليلة الزفاف على رؤوس البنات لكي تحمل إليهن البركة الأبوية. ولهذه العادة ما يقابلها في الأعراف اليهودية، إذ لا تزال كثيرا من العائلات اليهودية التي نعرفها بالصورة والدار البيضاء، تتبع عادة تمزيق آخر قميص للفقيد، وتوزيع قطعه بين أفراد العائلة الذين يحتفظون بها بعناية فائقة حتى يتلقى كل واحد منهم نصيبه من بركة الأب أو الجد المتوفى .

ولنذكر أيضا عادة أخرى، كانت متبعة في تلمسان في الأربعينات، وقد أدانها الربي يوسف مساس، الحبر المغربي الذي شغل وظيفة قاض بالمدينة المذكورة، بالعبارات التالية:" وهناك أيضا خزي آخر، ذلك أنه إذا ما توالى الموت مرتين متتابعتين على الدار الواحدة، في نفس السنة أو نفس

الشهر فإنهم لا يحملون المتوفى في المرة الثانية إلا بعد ذبح ديك على عتبة البيت أو وسط الدار. ولحظة إخراج الجنازة، يرشون الباب المقابل للقبة ورتاج الباب بدم الديك. ثم يطعم لحم الديك أفراد عائلة الفقيد أو جيرانهم في نفس الدار. عندها توسلت إليهم بتغيير هذه العادة. وإيمانا مني بأن فعلهم هذا يأتي لخوفهم من الموت، ارتأيت ألا يذبحوا الديك مرة أخرى، وإنما يكتفون بسرد عبارة " الكفارة "، أو " القربان البديل " التي هي: " هذا فداء أهل الدار وتعويضا وتكفيرا به يفتدون ". ثم يعطون الديك لفقير من الفقراء.

موكب الجنـــــــــازة

توضع جثة الرجل في " المطه ". أو كما يسمى بالعربية " النعش" الذي يكون مغطى بغطاء أسود، أو جلباب كان يلبسه الفقيد في حياته. ويحمل الحمالون أو " الكتافون " النعشَ فوق أكتافهم إلى المقبرة. ويحرصون كل الحرص على أن يكون رأسه في المقدمة عند الخروج من الدار. بعده يسير الأهل والأصدقاء. ويفرض احترام المتوفى أن يكون النعش في رأس الموكب. وعلى كل شخص يلتقيه أن يسير خلفه. طبقا "لمصواه لوياه" أو " فريضة مصاحبة الميت.". وتكون المسافة بين النعش والذين يتبعونه أربعة أذرع على الأقل. وعلى اليهودي احترام "فريضة المصاحبة" ولو كان الميت من الأغيار، خوفا من أن يقال عنه ما جاء في التوراة: " المُستَهين بالضعيف كأنه يعير خالقه ".(سفر الأمثال إ 17 آ 5). ويعلن عن مرور الموكب بالبوق أو " الشوفر " الذي يصنع من قرن الوَعِل. وبمجرد سماع النفخ تغلق الدكاكين، وكلما تقدم الموكب كلما تزايدت جمهرة السائرين وراء النعش، حتى وصول المقبرة. ويسير الموكب على إيقاع ترتيل المزمور التاسع عشر ومائة، المتكون من اثنين

وعشرين مقطعا، كل مقطع يتكون من ثمانية أبيات. وتبدأ أبيات المقطع الأول كلها بحرف الألف، والثاني كلها بحرف الباء، وهكذا حتى آخر حروف الهجاء. يقرأ النص كاملا في ترتيبه الأصلي أولا، ثم يقرأ بترتيب هو ترتيب حروف اسم المتوفى فاسم أمه فترتيب العبارة " قرع سطن " أي إبطال دعوى الشيطان. وترتل بعد ذلك الترنيمة الصوفية التي سبقت الإشارة إليها : " لتُفَكّ العقدة بقوة جلال يدك اليمنى ". وتتبعها تلاوة المزمور الواحد والتسعين، الذي تُمَجِّد فيه التقاليد الربية وأهل الباطن من اليهود، خصيصة حفظ الإنسان من الجن والسحر. وقد يرتل كذلك نشيد الأناشيد، الفصل الخاص بالمرأة المـقْدام، والإصحاح الواحد والثلاثون، الآية من 10 إلى 31 وكذا بعض " القِنوت " أو المرثيات.

ولا يسمح مؤلف " ناحالات أبوت " للنساء بمصاحبة الجنازة، سواء في مقدمتها أو مؤخرتها، وذكّر بأن العرف المحلي يمنع ذلك، وأن أحد الأحبار الواردين من القدس نص هو أيضا على ذلك وجاء في كتاب "الزهار " أن وجود النساء في الجنازة يمكن أن يتسبب في حدوث مصائب للعالم وللإنسانية، ذاك أن ملاك الموت يحب مصاحبة النساء، وقد يشاهد وهو يغني ويرقص وسطهن وبذلك قد يغرى الرجال فينظرون جهة النساء، وعندها يغتنم الملاك الفرصة ويصعد إلى السماء، معرضا شكواه أمام العرش، ضد من استسلم للإغراء " (1)

والجدير بالذكر أن النساء غالبا ما لا يأبهن بهذا المنع. وكانت العادة قديما أن النائحات هن اللواتي يتقدمن الموكب، ينشدن المراثي ويضربن الطبول، كما جاء في سفر ارميا، إ 9 آ 16 وفي التلمود:

1 – أنظر في موضوع منع المرأة من السير في موكب الجنازة Kabbale... p. 114.

كـتـوبوت فـصل 4 فقـرة 4. ولا تزال هذه العـادة في بعض المجـتـمـعـات الشرقية حتى اليوم.

وتمنع السلطات الربية في بعض المدن، وبالخصوص في مدينة فاس، أن يصاحب الابن جنازة أبيه، وعليه أن يسبق إلى المقبرة. ويقال في هذا الصدد بلهجة يهود المغرب: "إكـون في نـدّويْ، مَنْ ازْرَعْ دْيالو ودُوزْ مَنْ ورّا كْنازْتو ؟ " (ملعون [الابن]، أيمشي وراء نعش أبيه وهو من زرعه؟). والسبب في هذا، حسب ما فسر لنا، أن الأطفال الذين كان بالإمكان أن يولدوا من مَنيِّ الأب المتوفى لو أنتج، ربما يغارون من هؤلاء الموجودين في الجنازة في هذه اللحظة.

تصل الجنازة المقبرة، ويوضع النعش " الميطاه " في المدخل داخـــل قاعة معينة " بيت هاميدراش " (بيت الدرس). ويلقي حبر من الأحبار أو أحد العلماء " تلميذ حاخام " الموعظة الجنائزية أو " دراشا ".

طقوس الطواف وإبعاد الشياطين

بعد وضع النعش، تبدأ سريعا طقوس الطواف " هاقافوت ". وهي سبع دورات في دائرة ضيقة، يقوم بها عشرة أفراد مشدودي الأيدي، حول النعش، وهم يرددون دعاء خاصا. ويذكر مؤلف " ناحلات أبوت " أن الأمر يتعلق هنا بـ " تِقُّون " أو شعيرة الإصلاح، المقصود منها إبعاد الأرواح الشريرة. إذ جاء في المزمور الثاني عشر، الآية التاسعة:" إن المنافقين يطوفون حول الميت "

بُرادَة الـــــــذهب

يـُحمل النعش إلى القبر. وإذا كان الـفقيد رِبِّيّا أو رجلا مشـهورا عرف بإحسـانه الكثير. تزايدوا في من ينزله القبر. ويصرف القدر المحصل عليه لصندوق الفقراء. أو لأي مشروع خيري آخر . ويرمـون بعض برادة الذهب في زوايا القبر الأربع. وهذا يذكر بواقعة من وقائع حياة سيدنا إبراهيم التي وردت في نص التكوين. إ 25 آ :6 " وأمـا أبناء السـراري [زوجاته غير سارة] اللواتي كن لإبراهيم . فقد أعطاهم إبراهيم عطايا. وصرفهم عن إسحاق ابنه شرقا إلى أرض المشرق " وما زال الناس يعتقدون في فاس نفس الاعتقاد الذي أشرنا إليه أعلاه. المتمثل في غيرة ذرية محتملة. تجسدها هنا الأرواح الشريرة التي ينبغي تهدئتها بإعطائها قليلا من الإرث العائلي. حيث يقال بلهجة يهود المغرب العربية - العبرية " هاليرشا د يالكم " (ها إرثكم). ويقال أيضا: " كايذهبو سيطانيم " (يطردون الشياطين). وذلك باستعمال لفظ " يذَهُبو" التي تعني في اللهجة المحلية " يُذْهِب " من فعل أذهب وأبعد. وتعني في نفس الوقت " يُذَهِّب. أي يطلي بالذهب أو يذر الذهب (المعدن).

الرحلة في باطن الأرض إلى الأرض المقدسة

ينهال التراب على الجثـــة الممدودة على الظهر في القبر بين ألواح. ويرمي كل واحد من الحاضرين بحفنة من تراب مخلوط برمل الأرض المقدسة. مما حمله حاج من الحجاج أو حبر من الأحبار الرسل الوافدين على المغرب. ونذكِّر في هذا الصدد. بموضوع يرد كثيرا في أدب المواعظ والكتابات الزهارية (1) بعد أن أصبح في نهاية الأمر جزءا من تراث متخيل العامة التي ربطته بعديد من الحكايات والأساطير.

---

1 - المدراش والهكدا (نشيد الأناشيد. الفقرة الآرامية. وتنحوما . بسيفتا ربيتا وغيرها). الزهر. مدرش هَنِّعلم. 1 113 ب.

تلك هي فكرة الاعتقاد في بعث الأموات الذي سيحدث حتما في الأرض المقدسة. إذ كل الأجساد المدفونة في الشتات. ترحل في باطن الأرض حتى أرض الأجداد. وهناك تعود إليها الأرواح وتبعث "يوم الحساب". وجاء في وثيقة غير منشورة. من مخزون مكتبة D.Sasson أن هناك حالات استخرجت فيها جثة من قبورها لحملها من المغرب إلى فلسطين.

وإذا ما دفنت الجثة. عاد الحاضرون إلى " بيت هامدراش " الغرفة الواقعة عند مدخل المقبرة. لإجراء شعيرة " صدوق هالدين " أو الرضى بقضاء الله وتلاوة " الهاشكافا " أو صلاة من أجل " راحة " الفقيد. وترتيل " قاديش " خاص بالمناسبة. وهو طقس " قاديش " المتوفى الذي يقام بعيدا عن القبر. حتى لا يسمع الناس صياح الميت. إذ يعتقد أن الميت في هذه اللحظة يسعى إلى الإفلات من مثواه. ويصيح قائلا : "انتظروني لأذهب معكم" ويبتعد الجميع. لأن من يسمع صوته. يموت في ذات السنة .

عظامكم تزهر مثل العشب

وقبل الخروج من المقبرة. ينزع كل واحد من الحاضرين ذرارات من العشب. ثم يرميها خلف رأسه لإظهار علائم الآلام والحزن. وللتعبير في نفس الوقت عن الأمل في البعث ومجيء عهد الخلص. إذ جاء في سفر أشعياء إ 66 آ 14 : "وتزهر عظامكم كالعشب". وفي سفر المزامير إ 72 آ 16 : "ويزهر سكان المدن كما يزهر عشب الأرض". ويغسل المرافقون الأيدي دون مسحها بثوب. بل تترك لتتقاطر حتى تجف. وذلك لطرد الأرواح التي تحاول أن تلتصق بعناد بالأيادي النجسة. كما جاء في أحد النصوص الوعظية. ويضيف مؤلف " ناحلات أبوت "مؤكدا وشاهدا" أن

ليست أيدينا هي التي سفكت هذا الدم " إشارة إلى ما جاء في سفر التثنية إ 21 آ 7 .و" أنا لسنا من القائمين بهذا الفعل". إلى غير ذلك. ومن الناس من يغسلون وجوههم وهم يرددون هذه الآية: " ويمسح السيد الرب الدموع عن جميع الوجوه " (أشعيا إ 25 آ 8). وإذا انعدم الماء أو قل. كما في حال وجود قافلة في الصحراء. فإنهم يستعملون التيمم بالرمل أو الحجر. طريقة من طرق الطهارة في المجتمع الإسلامي وفريضة من فرائض الوضوء أيضا.

عشاء المواساة

بعد العودة إلى بيت الفقيد. تقدم أول وجبة من البيض النيئ والزيتون الأسود. يُطعمها كلَّ الحاضرين والأقرباء والأصدقاء. وهم يبكون ويتبادلون التعازي. كل ذلك ونواح النائحات لا يفتر. طبقا لما جاء في سفر الجامعة. إ 7 آ 2 : " الدخول إلى بيت النياحة خير من الدخول إلى بيت الوليمة. لأن ذاك منتهى جميع البشر.." ويواسي الناس بعضهم بعضا بهذه العبارة المستقاة من سفر أشعياء إ 66 آ 13: " العلي القدير يعزيكم كما يعزي كل الذين يرتدون الحداد على صهيون وأورشليم. وفي أرض أورشليم يكون عزاؤكم".

ويراعى في هذه الوجبة. وجبة المواساة أو التعزية " سيعودت هابراه " عرف يبدو أنه يعود إلى تاريخ قديم جدا. إذ يسلم الأكل لأهل الميت يدا بيد. بعكس القاعدة المتبعة في الوجبة العادية. حيث يقطع رب البيت الخبز بعد المباركة الشعائرية. ويضع الكسرات على الطاولة ليأخذ كل واحد نصيبه بنفسه. وترجع التقاليد هذا العرف. إلى واقعة تاريخية يهودية مؤلمة. جاء ذكرها في سفر المراثي إ 1 آ 17

بالصيغة التالية: " لو تبسط الأيدي فلا أحد يعزيها ". لذلك لا ينبغي إعطاء الطعام يدا بيد إلا للإنسان المصاب (1).

وتشعل شمعة أو قنديل زيت في غرفة الميت، وتظل مشتعلة حتى نهاية سنة الحداد، ثم تأخذ إلى البيعة، وتراعى من حين لحين. إنها روح الفقيد التي تبقى سنة في البيت تصاحب أهلها.

ويذكر مؤلف " ناحلات أبوت " عرفا جرت به العادة في الصويرة، ذلك أنهم يضعون قدحا من الماء بجانب القنديل أو الشمعة، ولا أحد يعرف معنى هذا، كما يقول. إلا أن المؤلف يدينه ويعتبره عرفا أجنبيا عن الديانة اليهودية، مثله مثل العادات والتقاليد " العمورية " التي تدينها التوراة " درخ هاعموري ". وقد سبق أن تعرضنا لهذا العرف الشائع في الوسط العربي - الأمازيغي.

فتـــرة الحـــــــداد

تنقسم فترة الحداد إلى ثلاث مراحل متتالية: تدوم المرحلة الأولى سبعة أيام، والثانية ثلاثين يوما فرضا، والثالثة سبعة أو تسعة أو أحد عشر شهرا، حسب ما تجري به العادة لدى العائلة، أو حسب الانتماء الاجتماعي أو المهام الدينية التي كان يضطلع بها الفقيد .وتتميز كل فترة من هذه الفترات بمجموعة من المحرمات.(2) وشعيرة خاصة بالمناسبة وتختتم بحفل يتضمن الأعمال الثلاثة الآتية: طقسا خاصا بالمناسبة تلقى فيه خطب ومواعظ وأدعية وتأبين ومراثي، وإعداد وجبة خاصة، وتقديم هبات وصدقات.

---

1 - أنظر حول هذا الاستعمال وبعده الصوفي كتابنا Kabbale..., p. 112-113.

2 - أنظر في موضوع منع الاتصال الجنسي بين الزوجين مدة الحداد Kabbale..., p.77.

ويذكر في هذا الصـــدد مؤلف " ناحـلات أبوت " الصويري، نصا من النصوص التلمودية (موعد قطن 27B) قال :

" قـال الرَّابُ يهـودا نقـلا عن الراب: " من رفض بكاء فـقـيـد له، فسيبكي غيره... لا تغالوا في النواح، لا تتجاوزوا الحدود: ثلاثة أيام للبكاء وسبعة للتأوهات والمراثي، وفي نهاية الثلاثينات، اغسلوا واكووا ملابسكم، واحلقوا شعركم. وإذا فعلتم أكثر فإن الله تبارك وتعالى يقول لكم: " لا يمكن أن ترأفوا بمصيره [المتوفى] أكثر مما أفعل...". وإن ما يمكن القيام به، هو أن يرتل الابن " القاديـــش ". من أجل راحة روح والده ووالدته حتى يستحقا في النهاية مكانهما في جنة عدن... وينبغي أيضا أن يقرأ عشرة من " الحخميم ". وهذا هو النصاب، نصوصا من المزامير والمشنا والزهار وغيرها، في بيت الفقيد، طوال السنة، أو على الأقل مدة ثلاثين يوما، ...

الحداد الأكبر

يستغرق الحداد الأكبر، الأيام السبعة الأولى التي تلي يوم الوفاة، وهو فترة من الانعزال تتميز بعدد كبير من المحرمات والمحظورات، مما يتعلق بالأعمال من تجارة ومهن يدوية، وبالحياة الشخصية كالاغتسال وانتعال الأحذية أو ترك الأرجل حافية أو انتعال حذاء قماشي، والعلاقات الجنسية، ونظام التغذية، إذ لا يؤكل اللحم ولا يشرب الخمر، غير "الماحيا" أو شراب التين المجفف، الذي يستهلك على عكس العادي بكثرة. والأقرباء هم الذين يحملون الطعام لأهل المتوفى خلال هذه الفترة. إذ يحظر على هؤلاء الأخيرين إعداده داخل البيت. ولا ينبغي لمن يعيش أيام الحداد، حمل "التفلين" أثناء الصلاة أو أن يدرس التوراة، أو أن يقرأ أي نص من نصوص

"الهلاخا" أو " الميشنا " أو التلمود. باستثناء سفر أيوب وبعض الإصحاحات من سفر إرمياء وبعض " القينوت ". أو المراثي التي تذكّر بخراب هيكل بيت المقدس. ويجلس من هو في هذه الحال. في الزاوية اليسرى من غرفة المتوفى. على فراش أو سجاد على الأرض. وهناك من يقول. عليه أن يجلس على سرير مقلوب. ويطبق على رأسه قب جلبابه الأسود. وليس عليه أن يتبادل كلمات التحية مع الزائرين. وألا يتلفظ حتى بكلمة " شلوم ". وعليه أن لا يقص شعر لحيته ورأسه أو يغادر البيت مهما كان إلا في حالة الذهاب إلى البيعة (يوم السبت فقط) أو إلى المقبرة .

ويعتقد الحبر إسحاق بن شيشت برفكت. الذي يختصر اسمه في "ربباش". وهو فقيه أندلسي جزائري. من القرن الرابع عشر. أن زيارات المقابر أثناء الأيام السبعة التي تلي الوفاة. عرفٌ من الأعراف الإسلامية المغربية(1). أصبح شرعة متبعة لدى الطوائف اليهودية بالمغرب ولا يخلون بواجبه. شأنهم شأن جيرانهم المسلمين. وفيه يوزع هؤلاء وأولئك الصدقات .

ويحيون الاحتفال التذكاري الأول. في ليلة اليوم السابع. ويسمى بالعبرية " بيديقات هَشَبّوعْ " (الذكرى السبعية). كما يطلق عليه في اللهجة اليهودية - المغربية تداولا " مسمارا ". وهو أيضا من جذر الفعل العبري "شمر" (حرس. سهر)

والـ" مسمارا " "في الواقع. سهرة تتلى فيها نصوص من التوراة والمشنا والزهار وغيرها. تليها وجبة طعام خفيفة يستدعى لها أفراد "الحبرا " والربيون وكل المدعوين الذين يحملون معهم. نيابة عن المتخلفين. " الكَعْكَ ". وهي حلوى من عجين به سكر. وتصنع على

1 -RIBASH, responsum n 158.

شكل إكليل. وتقام في اليوم التالي بعد زيارة المقبرة. مراسيم اختتام فترة الحداد السبعية. والتي تصحب بطقوس الطهارة (اغتسال واستحمام شعائري) .

ويحتفل في اليوم الثلاثين وبعد الفترة المسماة " سنة ". مع أنها تقع بين سبعة أشهر وأحد عشر شهرا. بشعائر تذكارية مشابهة للتي سبق ذكرها. تسمى " بديقات هاشلوشيم " أ وذكرى الثلاثين. ويسمونها بالعربية " الشهر" و"بيديقات هاشنه" أوذكرى السنة. وتسمى بالعربية " العام ". و الاحتفال عبارة عن ليلة لتلاوة النصوص الدينية وشعائر الطهارة (استحمام وقص الشعر الخ ...) ووجبة طعام وزيارة المقبرة. ووضع شاهد القبر أو " الحجرة ". كما تسمى عادة. فتوزيع الصدقات. وفي هذه المناسبة تقدم صدقة خاصة لأطفال المدرسة أو "اصْلا " أو " اجَّامع ". وهي عرف من الأعراف الإسلامية. تشترك فيه الطائفتان. كما تشترك في باقي الأعراف الأخرى. ويسمي اليهود هذه الصدقة التي يقدمون فيها الإسفنج أو الكسكس " مَعْروفْ"

تصورات واعتقادات أخرى

مما لاشك فيه أن السلطات الربية هي التي حددت مراسيم الحداد وفتراته. كما هو الشأن بالنسبة لمناسبات أخرى. وهي تستقي ذلك بالتأكيد. من آداب العهد القديم والآداب المدراشية والتلمودية والزهارية. كما متحت جزءا من موضوعها من محيطها الثقافي المحلي. ومن عالم الأساطير والاعتقادات والتصورات التي تعرفها البيئة المغربية ومنطقة البحر الأبيض المتوسط. بل ومن حقول أخرى أكثر شمولية .

وفي هذا الصدد جاء في سفر التكوين، الإصحاح الخمسين، الآية العاشرة، أن يوسف بكى أباه سبعة أيام. ويعتقدون أيضا أن على الإنسان ليظهر حزنه وأساه، أن يذر الغبار على رأسه ويتمرغ في الرماد ويرتدي كيس القنب، إلى غير ذلك (1). وجاء في التلمود أن حداد سبعة أيام عادة كانت متبعة قبل الطوفان. وقيل فيه أيضا: "مثل من يعيش الحداد مثل رجل علق على رأسه سيف ذو حدين، يهدده بالموت حتى اليوم الثالث، ومن اليوم الثالث إلى اليوم الخامس، يكون منصوبا أمامه في زاوية من الغرفة، أما بين اليوم السابع والثلاثين فإنه لا يفتأ يتراقص أمامه في الشارع. ويمكن أن تكون العائلة ضحية هذا السيف خلال السنة كلها".

وجاء في كتاب الزهار وما تضمنه من اعتقادات تصوفية، أن روح المتوفى التقي تبقى مشدودة إلى جسده مدة ثلاثين يوما، بينما تظل روح الإنسان العادي مرتبطة به مدة اثنتي عشر شهرا، وتلك هي الفترة التي تمر فيها إلى المطهر. وجاء في كتاب "شبت 152b" من التلمود ما يأتي : "تظل الروح تطوف حول القبر إلى أن يصير لحم الجسد ترابا " وفي المحيط الإسلامي يعتقدون أن الروح تطوف مدة ثلاثة أيام حول بيت المتوفى وأربعين يوما حول قبره.

على أي، ففي نهاية هاتين الفترتين، تقام الصلوات وتوزع الصدقات ويقدم " المعروف ".أو " الطعام المخصص لطلبة المدارس والفقراء بأبواب المساجد والمقابر ". والمسلمون أيضا لا يطبخون في بيت المتوفى، لكن لمدة ثلاثة أيام فقط بدل سبعة أيام، كما هو العرف عند اليهود. ويتكفل الأهل والأصدقاء بإرسال الطعام اللازم إلى بيت العائلة المصابة .

1 - أنظر سفر يهوشوع إ 7 آ 6 وسفر إرمياء إ 16 آ 6 .

" القاديش " أو صلاة الميت وما لها من قوة من أجل النجاة

لقد سبق أن تحدثنا عن أهمية هذه الصلاة في رحلة الروح بعد الموت وارتقائها إلى جنة عدن وسكونها تحت أهداب العرش السماوي .

يقابل كلمةَ " قاديش " الآرامية، الكلمةُ العبرية " قادوش " (القديس)، وهي ركن أساسي في الطقوس اليهودية، طقوس الحمدلة والشكر لله. وتستلزم قراءتها حضور " المنيان ". ويعني هذا اللفظُ النصابَ الذي هو عشرة من المؤمنين البالغين (البلوغ الشرعي أي ثلاث عشرة سنة). وهؤلاء يكررون لفظ " آمين " أثناء تلاوة " القاديش ". كتب نص " القاديش ".أصلا باللغة الآرامية التي استعملتها الطوائف اليهودية في بابل، باستثناء الخاتمة وبعض العبارات التي يرددها الحضور، فهي باللغة العبرية. والنص يمجد اسم الله، ويسترحم الرب ليبعث المنقذ سريعا،.فتسود مملكة الله، ويعم الخلاص والسلام كل الأرض. ولا يشير النص إطلاقا لخراب هيكل بيت المقدس على يد الرومان، مما يدل على أن النص كتب قبل هذه الفترة. وتوجد للنص روايات متعددة تتفق في الأصول غير أنها تختلف في الإضافات التي هي وليدة الظروف والمناسبات، وخصوصا في الـ" قديش " المسمى " قديش " الأحبار (قديش دي ربنان) و" قديش الموتى " (أو اليتامى).

وجاء في مدراش " أو تيوت الربي عقيبا " (حروف الربي عقيبا) الذي كتب في عهد الكاؤونيم، بداية العصور الوسطى: " وعندما يجئ المسيح، يستوي الرب في الجنة، ويشرح التوراة الجديدة، أمام جموع القديسين والصالحين والملائكة، وفي ختام الموعظة، ينهض زرو بابل (1)

---

1 - زروبابل هذا هو الذي أعاد يهود النفي من بابل إلى يهودا بعد مرسوم الإمبراطور كورش(Cyrus) الذي سمح لهم بالعودة سنة 539/538 ق. م.

ويرتل "القاديش" بصوت يتردد في كل أرجاء الدنيا. فيجيبه الناس أجمعون "آمين". وتجيب الأرواح كلها. أرواح اليهود وأرواح الأغيار أيضا "آمين". وعندئذ تعم رحمة الله. فيتسلم مكاييل وجبرائيل مفاتيح جهنم. فتُفتح أبوابها الأربعون بأمر من الملاكين... فيخرج المكفرون عن خطاياهم ليلتحقوا بالجنة ".

الربي عقيبا والحطاب

جاء في حكاية " إليهو زوطا ". وهي حديثة نسبيا. أن الربي عقيبا خلص روح ميت من عذاب جهنم. وذلك بِحَثِّ ابن المتوفى على حفظ "القاديش" وقراءته. وهذا نص الحكاية: " التقى ذات يوم الربي عقيبا بروح تقمصت صورة إنسان يحمل على ظهره حطبا. لإضرام نار جهنم. حيث يعاقب جزاء أعماله السيئة. ذاك أنه في دنياه. أرهق الضعفاء ولم يرحم ضعفهم عندما كان جابيا. ويضيف الربي عقيبا. لن ينجو هذا الحطاب من هذا العذاب الشديد إلا إذا قرأ ابنه " القاديش " أمام جمع من المؤمنين. ولما علم الربي عقيبا أن هذا الشخص كان قد أهمل تلقين ابنه أصول دينه كل الإهمال. أخذ يبحث عن هذا الأخير. وعندما وجده. تكفل بتعليمه التوراة إلى أن استطاع ذات يوم قراءة " القاديش " أمام جمع عام. وهكذا خلص الفتى والده من نار جهنم".

إحياء الذكرى السنوية Jahrzet / Yarsyat

تعني اللفظة Jahrzet بلهجة يهود ألمانيا. التي تنطق في المجتمع اليهودي المغربي هكذا Yarsyat، يومَ ذكرى المتوفى. وعادة إحياء ذكرى ميت عزيز قديمة جدا. وكان إحياء ذكرى موت أب أو شيخ عالم. في العهود التلمودية. أي ما بين القرن الثالث والسادس بعد الميلاد. يتميز

بالصوم والدراسة. وكانت تسمى هذه الشعيرة " هازكرت نيشاموت " أو ذكرى الأرواح. و لعل احتفاء Jahrzet، التي يقصد منه تمجيد وتعظيم ذكرى الآباء، يجد أصوله على الأخص، في ألمانيا القرون الوسطى. وبعدها صار هذا الإحياء عادة متبعة لدى اليهود الشرقيين ويهود البحر الأبيض المتوسط. وقد احتفظوا بالعادة وباسمها الجرماني الذي ظل مستعملا، سواء في لهجاتهم المحلية أو في أدبيات الهلاخا (كتب التشريع والمدونات الفقهية) التي تحدد شعائر هذا الاحتفال. وأخذ احتفاء Jahrzet بعدا صوفيا بعد ظهور وانتشار العقائد " القَبَلِيَّة " أو الصوفية التي روج لها إسحاق لوريا ومريدوه، بمدرسة صفد، في القرن السادس عشر. وهكذا فإن قراءة " قديش ينوم " أو " قديش " اليتيم، كما جاء في هذه النصوص، تريح روح المتوفى خلال الأحد عشر شهرا الموالية للوفاة، وتساعدها لتنتقل من جهنم إلى جنة عدن. غير أنه بفضل " قديش Jahrzet"، ترتقي هذه الروح كل سنة، من درجة سماوية إلى أخرى أسمى منها. وليس هذا الاحتفال السنوي مجرد إحياء ذكرى أو مراسيم ذكرى بسيطة، إنه بالإضافة إلى ذلك، يحتفي بصعود الروح نحو العرش الإلهي الذي فاضت منه وباستقرارها في النعيم الأبدي الذي طالما طاقت إليه .

وإحياء Jahrzet هو عبارة عن مجموع شعائر، منها الصوم وترتيل "القديش" و"الهشكبا" أو صلاة الميت، وطقوس أخرى، تتلى فيها نصوص مختارة من العهد القديم والمشنا والزهار وفصل من تشريع ابن ميمون، وهو الفصل الخاص بالقرابين، وبعض التراتيل والصلوات. كما تشعل شمعة أو قنديل، وهذه عملية لها أهمية كبرى، إذ تشبه فتيلة الشمعة التي تحترق، الروح في جسد الإنسان. و "روح الإنسان نور من أنوار الله"، كما جاء في الإصحاح العشرين، الآية سبع وعشرين من سفر

الأمثال. وينتهي الاحتفال بزيارة قبر الفقيد وتوزيع الصدقات. صبيحة ليلة تناول فيها أعضاء " الحبرا ". والفقهاء من أهل البلد والفقراء طعام الذكرى.

" الهيلولا" أو ذكرى الموت البهيجة

يحيي اليهود ذكرى وفاة موسى في 7 آدار. ويحتفل بذكرى الربي شمعون بر يوحاي، الذي ينسب إليه تأليف الزهار، في اليوم الثالث والثلاثين لـ " عومر ". أي في يوم 18 أيار. ويحيون ذكرى الربي مئير، صاحب المعجزات، يوم 14 من نفس الشهر. وأصبح إحياء ذكرى وفاة هذين الوليَّيْن الفلسطينيين، مناسبة لاحتفالات وأعياد تقام في أماكن قبريهما في ميرون وطبريا. كما تحتفي بها كل الطوائف بحوض البحر الأبيض المتوسط. ويحتفل يهود المغرب كذلك بالأولياء والصالحين المحليين. وبأصحاب المعجزات أينما كانوا. وبالأولياء المغاربة المشهورين مثل عمرام بن ديوان وداود الدراع وداود الأشقر المعروف بمولاي إيغي وبغيرهم، وذلك بزيارة قبرهم مرة في السنة. وتسمى هذه الزيارات هنا وفي جهات أخرى " الهيلولا " ونشير إلى أن هذه الاحتفالات اتخذت اليوم طابعا مسرحيا واستعراضيا.

واكتست هذه المناسبات صبغة أسواق ذات طابع ديني ودنيوي، شبيهة بعادة " المُوسَمْ " في المجتمع الإسلامي. وتقع مجريات الزيارة في مدفن الربي أو الولي، عموما، بعد نذر نذره الزائر لحدث غير مألوف، أو لمجرد رغبة لزيارة قبر ربي، كل ما أمكنه ذلك أو في أوقات معينة. وتتضمن طقوس " الهيلولا " والزيارة شعائر خاصة تصحبها ولائم كبيرة. وتزخر أيضا بكثير من الأمور، منها الصلوات وتراتيل المزامير والأطعمة الوفيرة والإفراط في شرب " ماحيا " والخمر والرقص والغناء

وإشعال نيران الفرح (الشعالة) وإقامة الحفلات الفلكلورية الشعبية التي تقترب من الهرطقة، والتي غالبا ما تدينها الأرثودكسية الربية دون أن تستطيع منعها أو الوقوف ضدها .

وتكون هذه الحفلات مناسبة للإبداع الأدبي الفني، سواء باللغة العبرية أو باللهجات المحلية. ونجد هنا، فيما يتعلق بالشعر الخاص بحياة الأولياء والصالحين، مستويين متدرجين من المعارف اليهودية: إذ نجد المعارف التوراتية والمنظومات الشعرية الدينية العبرية التي نظمت في هذا الباب من جهة، ونجد المقطوعات الشعرية المنظومة باللهجة اليهودية - العربية، وفي حالات نادرة جدا باللهجة اليهودية - الأمازيغية، من جهة أخرى. وتحكي القصائد الطوال أو القصص المغناة سيرة الولي الخارقة للعادة، وهي سيرة مليئة بالأحداث العظمى والأعمال العجيبة والبشارات والرؤى التنبئية. وترتجل عادة المقطوعات القصيرة ذات المقطع أو المقطعين وتلك التي تتناول مواضيع المدح أو الخمريات أو الشكر لله وحمده. وتغنى هذه المقطوعات أثناء واحدة من تينك العمليتين التي جرت العادة بعرضهما على المزاد العلني، وهما: إشعال قنديل زيت، أو شمعة مهداة للولي أو الربي، وشرب كأس "ماحيا" على نخبه.

تَعتبر العقائدُ الصوفية وما جاء في " الزهار " خصوصا، يومَ الموت مثل يوم العيد (يوم هيلولا). وجاء في التوراة، سفر الجامعة، الإصحاح السابع، الآية الأولى : "إن يوم الموت خير من يوم الولادة ".وهذا ما فسره المدراش بالآتي : "تروي الموت فضائل من هم إلى زوال... إنهم أيضا مثل السفينة التي ترسو بالميناء محملة بالبضائع" (خروج رباه 48) ونقرأ في مكان آخر : "على عظماء الأجيال، أن يموتوا ليتركوا المكان لمن بعدهم من الخلف".

المقبرة وطقوس الموتى

يحتفل اليهود بـ " الهيلولا " في البيعة، بينما تجري باقي الاحتفالات الأخرى في المقبرة خاصة. وجرت العادة بأن تكون الزيارة أيام الخميس والاثنين وعشية رأس السنة وعيد الغفران " كبور ". ويحذر الناس من زيارة القبر الواحد مرتين في نفس اليوم.

ويعلل مؤلف " ناحلات أبت " زيارة قبور الموتى هاته عشية رأس السنة ويوم " كبور " بقوله: " تريد إرادة الله في هذا اليوم أن تدين الناس، فتتشفع أرواح الموتى، استنزالا للرحمة الإلهية من أجل الأحياء، ويخبرونهم حُلما، بالحكم الذي قضاه الله فيهم، بمجرد ما توقف إرادة السماء تنفيذه..." ولهذا يأتي الأحياء ليترحموا على الموتى ويلتمسون منهم شفاعتهم.

ويأتي المرضى والعواقر أحيانا، للإقامة في المقبرة بجوار الصالحين والأولياء، في غرف صغيرة مخصصة لهذا الغرض، يقضون بها ثلاثة أو سبعة أيام متتابعة، متوسلين متعبدين لعل مرضهم يشفى أو مآربهم تقضى.

والمقبرة عند المسلمين مكان للنزهة، إليه تتوجه النساء والأطفال يوم الجمعة، فيشربون الشاي ويتجاذبون أطراف الحديث . وتزدحم المقبرة بالناس في يوم السابع والعشرين من رمضان، وخصوصا يوم عاشوراء، وفي هذين اليومين يزينون القبور بأغصان الريحان، ولا شيء مطلقا في هذه الزيارات يذكر بتلك الزيارات الكئيبة أو بيوم الأموات، مما هو معروف عند المسيحيين.

ويبدو أن شفاعة الموتى عادة قديمة مذكورة في التوراة، فقد جاء في نص الكتاب، مما وضحه التلمود، أن كالب عندما وصل إلى حبرون أو مدينة الخليل، توجه لزيارة مغارة "ماخبيل"، وهي مدفن إبراهيم وآله،

وصلى بها يرجو النجاة من مكيدة حبكتها له العيون التي بعثها موسى للتجسس على أرض كنعان. وكان هو نفسه أحد أفراد هذه البعثة. وجاء خبر هذه الواقعة في سفر العدد، الإصحاح الثالث عشر، وسوطاه، الفقرة الرابعة والثلاثين من التلمود.

وقد يحدث عكس الأمر أعلاه، فتسعى الأموات إلى الاتصال بالأحياء. وتتحدث كثير من الحكايات عن زيارة ميت إلى أهله. وأكثر هذه الزيارات، تكون من متوفى يطلب من زوجته أن تقوم بعمل ما. ويبدو من جهة أخرى أن الأموات يولون اهتماما كبيرا بحياة الأحياء العادية وباهتماماتهم ومشاغلهم الدنيوية .

وفي هذا الصدد، جاء في نص تلمودي، أن الربي حِيّيّا كان قد ذهب إلى المقبرة بصحبة الربي يوناتان، ولاحظ أثناء الطريق، أن أهداب خمار صلاة هذا الأخير قد انحلت، وعلقت فوق ملابسه، فعاتبه على ذلك وطلب منه أن يجمعها ويخفيها تحت ملابسه، خوفا من أن يقول الأموات: " مع أنهم سوف يلحقون بنا غدا، فإنهم اليوم يسخرون منا " (1).

ويعبر أحد الكتاب المعاصرين عن هذه العلاقة الموجودة بين الأموات والأحياء، بعبارات أخرى ملخصها: " بعد أن تجتاز الروح عتبات الموت تبرز وتعود لرؤية العالم الذي خلفته وراءها، ويضيف، إن الأموات يحيون فينا إذا نحن أردنا لهم أن يكونوا أحياء " (2) .

1- أنظر أيضا "Qissa de Tinghir du Todgha" السابقة الذكر .

2- Saül Bellow, Le Don de Humbold, Flammarion 1978, p .197 et 327.

مزارات يشترك فيها اليهود والمسلمون

يمكن أن يكون نفس المزار مقصدا لليهود والمسلمين، وموطنا حوله تتفق آراؤهم، وتتجلى فيه مظاهر ثقافتهم المشتركة، بل فيه تتمثل توفيقية دينية قد تدهش الناظر. إنهم، يهودا ومسلمين، يرجون معا الشفاعة والحماية من نفس الأولياء والصالحين، ويقومون بنفس التعبد وبنفس الرموز، ويقدمون نفس الصدقات، ويتوسلون بنفس الدعوات ونفس الصلوات . ويعود كل واحد منهم إلى بيته بعد أن زار نفس الولي، غنيا في خياله، بكل الخيرات التي كان يرتقبها من توفق زيارته هاته، مزودا على كل حال، بمزيد من الإيمان والآمال

مراثي وتأبينات جنائزية، بعض المرثيات المغربية من القرن السابع عشر والثامن عشر

تلفت أشعار المراثي المدونة في مجامع تعنون عادة بـ: " عتْ سِفود " [حرفيا زمن الوخز] أو المراثي والبكائيات، الأنظارَ أولا وقبل كل شيء، بسبب الدور الهام الذي تتميز به " الأُنشودة الدينية " في الشعائر الجنائزية، وللأهمية التي تحتلها " القِنَهْ " أو المرثية، في طقوس الأيام السبعة الخاصة بالحداد والاحتفالات الثلاثة الكبرى التذكارية. ويتضمن هذا النوع من الأدب، نظرا لمضمون نصوصه نفسها ونظرا لما تتضمنه المقدمات التي يقدم بها الشعراء قصائدهم، فوائد ثمينة تتعلق بالمتوفين وظروف موتهم. وتعتبر هذه وثيقة لا يستهان بها في معرفة السير والوقائع التاريخية.

وتزودنا المرثيات ومقدماتها الافتتاحية التي كتبها يعقوب أبنصور، بكثير من أخبار المجتمع اليهودي وأحواله، وخصوصا مجتمع فاس

ومكناس. كما تطلعنا على الروابط التي كانت تربط هذا المجتمع بمحيطه الإسلامي. والنظام والسلطة المركزية والمحلية. وأحوال الموظفين المدنيين الذين كانوا يسيرون شؤون الطائفة. وكبار القضاة الأحبار الذين كانوا يشرعون القوانين ويسهرون على سلامة الأفراد خلقا وروحا. وكان يعقوب أبنصور نفسه. وهو قاضي القضاة بمحكمة فاس والخطيب المفوه. يدعى بصفته هذه. ونظرا للمهام المسندة إليه. ليأبن ويخطب في مثل هذه المناسبات.

وعلى مستوى المضمون. فإن هذه المرثيات. هي تأبينات مأتمية وعظية حقيقية. يرتبط فيها التعبير عن الألم والأسف. وتعداد مناقب الفقيد وفضائله. بالتأمل في قضايا الإيمان والموت وما تثيره. والتذكير بحقيقة " ما تتصف به الحياة من زوال وبهشاشة هذه الدنيا. وعرضية الجسد بالقياس إلى الروح الخالدة. وملذات نعيم " الدار الأخرى " التي هي مثوى الأتقياء والعلماء الذين يجللهم جلال المجد. ويتربعون تحت أهداب العرش السماوي ...".

واخترنا هنا نماذجَ مقطوعاتٍ شعريةً. كتبت هي وافتتاحياتها باللغة العبرية . وهي على العموم مقطوعات قصيرة ترجمناها نحن إلى الفرنسية. وهذه هي:

" في يوم الجمعة 19 أدار 1689/5449. التحق بالملكوت الأعلى. الحكيم الكامل والمعلم الفاضل. قاضي القضاة بمحكمة مدينة فاس. الربي يهودا عوزيل. طيب الله ذكراه في أخراه. ونظمت هذه " القنه " تخليدا لذكراه الجيدة. ووضعتها على لحن البكائيات المرة..."

والنص أعلاه هو ديباجة القطعة التالية :

يختلج قلبي، وأرتعش من الأسى والألم / وبمرارة أتضرع وأبكي، أنوح نواحا مرا، أبكي بلواي في عشيرتي المجتمعة هنا، بسط الله يمناه، في غضبه وسخطه / لذاك داهمني الرعب وهزني الارتجاف، عندما تحطم كبرياء يهودا .

تاج الرجال وهيبة الحكماء، كنز الملذات /، كان يعرف سر الحرف والرمز وطلاوة البلاغة، وهو نبع القضاء، العارف ببواطن الكتاب المقدس، لفظ عذب به يهدي الناس علما، آيات أخلاقه وفضائله دون عد، عدلا أهدى عمره خدمة للدين والشريعة. " خبا نورٌ هو الشمس في إشراق ذهب / التحق بالله فكرا وعملا."

ونظم يعقوب أبنصور عديدا من المراثي، تخليدا لذكرى مناحيم صريرو الذي كان يعاصره، ومن بينها، مرثية يقال إنه رتلها ترتيلا عندما وصل النعش إلى البيعة الكبرى التي كان فيها يصلي ويعلم المأسوف عليه.(1)

تبدأ هذه المرثية بهذين البيتين المنظومين باللغة الآرامية:
" أولى بكم أن تمزقوا قلوبكم / يا معشر هذه الجماعة المقدسة،
إذ بسبب آثامكم رحل عنا سيد جليل ".

وفي بكائية مؤثرة، يبكي يعقوب أبنصور، موت اثنين من أبنائه، يوسف ومناشه، اللذين توفيا في شهر شباط 1702/5462، بعد وفاة

1- ويجب أن نشير هنا، إلى أن وضع النعش داخل البيعة، عادة لم تكن متبعة عند يهود المغرب، إنه عمل لم يحدث مثله أبدا في أي جهة أخرى، حسب معرفتي، ولم أشهد له مثيلا قط، في حين أن المسلمين يضعون النعش داخل المسجد قبل الدفن، إذا كان الفقيد شخصية سياسية أو دينية من علية القوم .

أخويهما رؤوبن رباه (الأكبر) ورؤوبن زوطا (الأصغر) .لم ترحم الأقدار هذا العجوز الصلب الذي عاش بعد موت ستة عشر من أبنائه. لقد ملأ موتهم حياته حزنا، وعبر عن آلامه في مرثيات مسجية. لقد سكب يعقوب أبنصور دمعا سخينا في هذه القصيدة المقطعية، التي بكى فيها المآسي الأربع التي حلت به متتابعة. وجاءت بكائيته هذه على منوال بكائية " قينه " تبكي مأساة تسعة آب [ذكرى تحطيم الهيكل] المنسوبة للشاعر القرطبي إسحاق بن غياث (من القرن الحادي عشر). وتبدأ مرثيته هكذا :

" مطرودون من البيت ومن ملاذهم " / ...

ويستهل أبنصور مقطوعته بهذا النداء :

" يا إخواني ويا رفاقي ويا أصدقائي الأحباء/ رحمة بأساي. لقد ضعفت قواي/ في ذلك اليوم الذي زارني سلطان الجلادين. وحش الحقول، لقد جاء ليأخذ ولدي "

وأبّن يعقوب أبنصور في مرثيتين، الربي باروخ طوليدانو المكناسي الأصل الذي استقر في الأرض المقدسة بالقدس. ووافاه الأجل هناك يوم 10 طابت 5472 نهاية 1711. يقول:

" غادر مستقره/ موطنه ومسقط رأسه/ ليجسد إرادة خالقه/ في حب وخشوع/ رشيق مثل الأيل. خف مسرعا/ ليذهب بحمية/ إلى مدينة الجمال والقداسة/ إلى موطن الجبال والهضاب ".

ويخلد أبنصور في مجموع من سبع مرثيات ذكرى وجهاء يهود فاسيين ومكناسيين اعدموا أو احرقوا أحياء. بأمر من مولاي إسماعيل. يقول في مقدمة المرثية :

إلى يهودا أبنصور ابن عمي، الذي صار دخانا وهو بعد في زهرة العمر، الذي قتل من أجل تقديس الاسم، يوم الجمعة 11 تموز 1712/5472 بمكناس ".

والمرثية قصيدة مقطعية هذه لازمتها:

" أنتم يا أوفياء عشيرتي/ وحدوا جمعكم " وابكوا طعمة النيران/ لقد أمر الرب أن يشتعل الحريق "

وفي نفس اليوم 11 تموز 1712/5472 صار إسحاق بن عمارة التاجر الفاسي الذي يكن له الجميع الاحترام، طعمة للنيران، ولقي ابنه هارون نفس المصير في يوم السبت الموالي.

وهذا نص المقطع الأول من المرثية التي تمجد ذكراهما:

"أحاطهما المتعجرفون بحزم من الحطب / جروهما إلى المحرقة، دفعوهما نحو اللهب/ أوسعوهما شتائم المرارة / ذاب منهما اللحم والشحم، ولم يفتر لسانهما عن ذكر وحدانية الخالق / والاستنجاد بعدله".

و" بعد ظهر يوم الجمعة 6 أيلول 1714/5474 عذب وقتل كل من الفقيهين موسى هاكوهن وأخيه شم طوب هاكوهن، ابني الربي نحميه هاكوهن " كان عمر الأول واحدا وثلاثين سنة، وكان تلميذا ليعقوب أبنصور، ويؤبن الشيخ مريده قائلا :

انشدوا جميعا المراثي / (ابكوا) موت رجل إيمان / أميرا من بين الأحبار (رجلا من طينة الأقوياء)".

الفصل السابع

الحياة الدينية والشعائر

الحياة اليومية في ظل ملكوت الشريعة الإلهية :

يعيش اليهودي في ظل ملكوت الشريعة الواردة في التوراة التي أبانها النقل تواترا. إلى أن دون في موسوعة عرفت فيما بعد بالتلمود. وتشكل حول التلمود المكمل للعهد القديم. أصول عقيدة تمثلت في عدد هائل من الكتابات. منها التفاسير والمدونات والفتاوى الجماعية والفردية وغير ذلك. وقد نفذت هذه الأصول التي أعدت بكل عناية. إلى أدق خفايا اليهودية العامة والخاصة. ونظمت أبسط تفاصيل وجود الفرد من المهد إلى اللحد. وأوجبت الخضوع التام اللامشروط لتعاليم التوراة وتطبيقها.

وقد أحرزت هذه الأصول العقدية امتداد مجالها التشريعي ومشروعيتها التي بها تمكنت في النفوس من مصدرها الإلهي السماوي.

وأحد الأركان المهمة لهذه العقيدة هي أن موسى عندما تلقى في سيناء أسفار الأخماس أو التوراة المكتوبة. تلقى معها في نفس الآن الشريعة الشفوية أو التلمود. الذي تناقلته سلسلة لم تنقطع من أسانيد الشيوخ والحكماء على مر الأجيال.

ولم تبتعد الاجتهادات التي انضافت إلى النص الموحى به. ليتكيف مع حاجيات الطوائف ومتطلبات الظروف الحتمية. عن روح "الشريعة المنزلة". وظلت القوانين الوضعية المتأخرة التي دعت إليها متطلبات الحياة المتغيرة. تنهل في الوعي الديني اليهودي من تجلى طور سيناء.

ومن هذا المفهوم التيوقراطي للقانون، انبثقت كل الأعمال التشريعية غير التوراتية التي تراكمت على مر العصور، منذ عهد "الثنائين" إلى أجيال يوسف كرو (القرن 16) وخلفائه، لتكون المصدر الأعلى للشريعة الربية. ويطلق على هذا الكم الهائل من الشرائع "هلخة". وهي لفظة مشتقة من الفعل العبري " هلخ ". أي"سار وشرع". فتكون إذن "الهلخة" بمعنى القواعد التي يجب أن يسار على نهجها، شبيهة باللفظة العربية: " الشريعة" أي "الطريق المستقيم والنهج القويم، أي شريعة من كنه إلهي".

العرف والعادة في موضوع " الحلال والحرام "

يستند الفقهاء اليهود المغاربة غالبا (1) . في كتاباتهم الشرعية، الخاصة بـ " لُمنُهَك" أو "العادة". على الأقوال القديمة الواردة في "المشنا" والتلمود، فيقولون مثلا : "يجب أن يكون الكل وفق عرف البلد، والعادة فوق الشرع وتلغيه". و من هنا أيضا جاءت أهمية "العادة"، كما يعبر عنها باللفظ العربي، في بنية التشريع الربي المحلي والأعراف العائلية.

أما في موضوع المحرمات " الحلال والحرام" فإن " الاشكنازيين " أو اليهود الغربيين، ميالون إلى التشدد، بينما ينهج " السفرديون " أو يهود الشرق، منهجا أكثر تسامحا وأكثر ليونة في فهم التشريع الخاص بهذه الأمور (2). ويحدث عكس ذلك في المواضيع التي تتعلق بعلاقات اليهود

1 - انظر الفصل السابق "مجال القضاء". الاتجاهات الغالبة وثوابت التشريع الربي المغربي.

2- عندما نتناول بالبحث تشريع "شلحان عروخ". وخصوصا ذلك الذي يتناول الخمر "نسخ" (وهو خمر محرم لأنه أعد على يد"وثني" أوشك في أنه أعد على يده) فإننا نلاحظ أن كارو، وهو المتسامح عادة فيما يتعلق بقانون الأطعمة، أكثر تشددا من الفقيه م. إسيرليس.

مع غيرهم من الأغيار. إذ نجد "السفرديين" هنا أكثر تشددا. ويعود هذا الاختلاف إلى علاقات الجوار التي كانت تحافظ عليها كل من المجموعتين مع الأغيار. فلم تكن العلاقات الاجتماعية بين اليهود والمسلمين في أرض الإسلام، تتميز بالعداء الذي كان يطبع علاقة اليهود الذين كانوا يقيمون في البلدان الغربية مع أهل هذه البلدان. وهو عداء لم يترك مجالا للخوف من التمثل والتمازج. ولم يكن الأمر كذلك في أرض الإسلام، حيث وجد الأحبار المشرعون "السفرديون" أنفسهم مضطرين إلى إقامة "حواجز" في بعض الميادين التي لم يكن فيها الفقهاء "الأشكناز" في حاجة إلى فرض تشريعات أكثر صرامة. إضافة إلى ذلك، فإن هؤلاء الأخيرين، لم يكونوا في حاجة إلى المزيد من التركيز على الطقوس المميزة، حتى لا يوسعوا الهوة التي كانت تفصلهم أصلا عن جيرانهم، أكثر مما يجب، فيزيدون نار الكراهية إضراما.

قل لي ماذا تأكل أخبرك من أنت

بالرغم من تحفظ السلطات الربية، بخصوص العرف، وكان هذا التحفظ ينقلب أحيانا إلى عداوة معلنة، فإنها كانت في كثير من الحالات تخضع إلى الأمر الواقع. إذ تتعلق الغالبية العظمى بالشريعة بقدر ما تتعلق بأعرافها وعاداتها، وهي أعراف وعادات كانت تستقي أكثر فأكثر من معتقدات يختلط فيها السحر بالخرافة، وتشترك في الإيمان بها كل المجموعات العرقية المحلية، يهودية كانت أو مسلمة. وهذا ما نجده في المحلل والمحرم من الطعام، خاصة في تناول بعض الأطعمة، مثل "الكسكس" المعد بالدجاج أو باللبن، ليلة وغداة بعض الأعياد الدينية، كـ "سكوت" أو عيد الخيام، و"كبور" أو يوم الغفران الأكبر، وكذا في "الفصح"، على الرغم من إمكان "الْحَمِصْ" أو تخمر هذه الأطعمة، مع

العلم أن الفريضة الدينية تحتم إخلاء منازل اليهود في الغداة، من كل طعام قابل للتخمر. ويقال نفس الأمر في أكل الجراد الذي تحرمه الشريعة ومع ذلك جرى عرف اليهود المغاربة بتناوله.

ويجد الفقهاء المغاربة، مثلهم مثل إخوانهم في باقي طوائف الشتات، أنفسهم مضطرين أحيانا إلى تطبيق الشريعة، مع بعض التسامح، في المحرم والمحلل من الطعام، في الظروف الحالكة، تبعا لمبدأ عام في التشريع الربي، يستند على فكرة "الضرورة تبيح المحظور" إذ "يصبح كل محرم حلالا في أحوال الشدة وفي كل الحالات التي تحدث فيها مقتضيات الشريعة ضررا بليغا". ويقضي المشرع في القضايا تبعا للظروف، وهو القادر على معرفة متى يروم التساهل ومتى يختار التشدد، وهو الكفيل بتقدير مدى نتائج الضرر أو تشخيصه عند الاقتضاء، وهكذا يصبح بعض المحرم من الطعام حلالا، في فترات المجاعة وارتفاع الأسعار المفرط... مع الرجوع إلى مقتضيات الشريعة عندما تتحسن الأحوال الاقتصادية.

وقضايا "الكشروت" أو الشرائع الخاصة بالطعام، تكوّن الهمّ الأكبر لكل يهودي متشدد في دينه، و خصوصا ربة البيت المسؤولة عن عش الزوجية، المحافظة على التقاليد داخله. وعلى مستوى المجموعة، فإن تزويد سكان "الملاح" أو حي اليهود، بالطعام الحلال " كَشِرْ "، طبقا لقواعد الشريعة و المنهج الديني، يظل الشغل الشاغل للسلطات الربية ومسؤولي الطائفة، هؤلاء الذين يراقبون هم أنفسهم أو من يمثلهم من "الشلحيم " (المكلفين) أو " المقدمين"، سيَر بعض المهن المرتبطة بالتغذية، مثل مهن الخبازين وبائعي الحليب و الخمر و السمك واللحوم. وتزداد حيطة هؤلاء كلما تعلق الأمر بالجزارين وباعة الطعام البسطاء.

ونكتفي في مواضيع" الشحيطة " أو الذبح على مقتضى الشريعة، و" الطرفوت " أو اللحوم المحرمة، وفي الحديث عن وظيفة"الشوحط " أو الحبر الذي يكلف بذبح المواشي حسب قواعد الشريعة، ببعض الوقائع دون غيرها، وهكذا نجد:

الربي يعقوب أبنصور، المشار إليه أعلاه، يجيز، في أيام الفصح، تناول نوع من أنواع الذرى يسمى بالأمازيغية " أنيلي ". وعلى العكس من ذلك يحذر من تناول ما يسميه " التريد " (فطائر رقيقة)، وهو الطعام الذي اعتاد يهود فاس أنفسهم تناوله أيام الفصح.

ويتحدث الربي يوسف مساس، وقد تقدمت الإشارة إليه، عن مهامه الربية يقول : " كان لدي الكثير من العمل الذي يجب أن أقوم به في موضوع " الكشروت ". ذلك أني لاحظت أن باعة الأطعمة وباعة الكبد المشوي و اللحوم والطحال و المقانق، لم يكونوا على علم بما يستوجبه الشرع في تمليح و تنظيف اللحوم، وأنهم كانوا يشوون في وعاء غير مثقوب، فبدأت مهمتي بجمعهم، ثم أطلعتهم على القواعد الشرعية الأساسية التي يستوجبها القيام بهذا العمل، وحذرتهم من أي خطأ قد يقعون فيه. و كنت أذهب مرة في الشهر لأرقب محالهم وأنبههم على ما يجب فعله.

وكان كل يهود المدينة[تلمسان] يخلطون اللحم بالطحال ويطبخونهما في نفس القدر، خصوصا عندما يعدون و" جبة السبت " المسماة بالعربية " أدفينا " أو" السخينا". وحذرتهم من القيام بهذا العمل. ومن جهة أخرى، لم يكن الجزارون على علم كاف بالقواعد الشرعية الخاصة بالشحوم المحرمة، فكنت أتوجه مرتين في الأسبوع إلى المسلخ لأنظر فيما يفعلون.

كـان الشغل مـرهقا في فـترات إعـداد" المَصّوت " أو الرقـائق غيـر الملحة: إذ يجب تنظيف المطاحن والأفران ومـراقبتها يومـيا لتكون على مـقتضى ما يسـتوجبـه الشرع. وكـان يجب مـتح الماء في الوقت التي تحددها التـوراة. والسـهـر الحذر على العـجين. وعـدم السـمـاح ببـيع "الَحـمِص" أو الخبـز الخـمر. والتـيقظ الحـذر ليكون كل مـا يتـعلق بعيـد الفصح على مقتضى الشرع.

لقد شغلني كثيرا أمر الجيل الصاعد. وكلفني جهدا مضنيا. لأجعلهم يتخلون عن تناول الأطعـمة المحرمة. وأكل أنواع السمك غـير الطاهرة. ولكـي لا يخلطوا ما منع الشرع خلطه. كخلط اللحم بالحليب وغير ذلك.

وهكذا نسـتخلص بأن العـادة والعـرف. ظلا موطـنـا تلتقـي فيـه الشـريعة الربيـة في شمـولها بـعالم المتـخيل الاجـتمـاعي اليهـودي- الإسلامي على حد سواء.

الحضور الإلهي وحلول المقدس في الحياة اليومية (1)

كل عمل في الحياة يستـوجب الحمـد والشـكـر " تباركت رب العـالمين إلهنا. ملك العوالم الذي باركنا بوصـاياه وأمرنا بأن...". إن الشـكـرلله أمر شـرعي جاءت الإشـارة إليـه في " لمشنا" وفي كـتاب "الزهار". إذ جـاء في

---

1 - تعرضنا لهذا الموضوع بكثير من الدرس و التحليل في كتابنا:

Kabbale, vie mystique et magie, p .7-11,35-45,265,360

في الفصول الآتية :

"Pensée juridique et kabbale; Liturgie et Kabbale; Poésie et Kabbale; Kabbale, musique et chant"

وغيرها وانظر كذلك دراستنا التي بعنوان:

"L'irruption du divin , du sacré et de l'ésotérique dans la vie quotidienne de la société judéo-maghrébine " في "Signes du Présent) " Revue Scientifique et culturelle marocainne" n ·6, Fédala- Mohammadia, 1989,p.21-26.

هذه : "عليك أن تحمد الله على كل حال، في وقت الفرح وفي وقت الحزن". ويرى ابن ميمون أن الأسباب الموجبة لهذا الحمد كانت لأن : "الفريضة التي بموجبها علينا أن نخلص الحب لله تستوجب على الإنسان أن يشكر الله ويحمده بصدر منشرح حتى ولو كان يعاني آلامه".

وكيف ما كان العمل، ففيه نصيب من العناية الإلهية، بما في ذلك العلاقة الجنسية نفسها، فعلاقة الرجل بزوجته التي باركتها ابتهالات الحمد السبعة الشعائرية، أثناء الزواج، تصبح فريضة دينية: "مِصْوَه"، يضفي عليها كتاب " الزهر"، فضلا عن ذلك، علائم من السحر وبعدا صوفيا (1).

البعد الصوفي للشعائر

لا تخلو الحياة اليومية اليهودية من حضور إلهي، سواء كان الأمر فريضة من الفرائض " مِصْوَه "، أو صلاة من الصلوات أو تسبيحة من التسابيح، خصوصا عندما يصبح البعد الصوفي للفعل، عمادا لما توجبه "الهلخه" أو الشريعة، نتيجة لتغلغل المذاهب الغنوصية المتزايد، وبالأخص تعاليم كتاب " الزهر" و"القبالة"، أو التصوف اليهودي، فكل فعل من أفعال الإنسان، طبقا لمعتقدات هذين، "يهدف إلى الاتحاد مع الذات العلوية ومع "السخينة" (السكينة) أو الحضرة، رهبة ورغبة...". ويكون هذا الفعل مصحوبا دوما بهذا التأمل الصوفي الذي أدمجته الطقوس المستوحاة من مدرسة إسحاق لوريا وأتباعه بمدرسة صفد - وكان من بينهم كثير من الشيوخ المغاربة - في الشعائر اليهودية.

1- الغرض من التوسل بالاسم الأعظم، باللفظ الخاص بذلك، هو إبعاد الجنية ليليث، زوج آدم الأولى، قبل مباشرة العلاقة الزوجية التي تساهم هي بدورها، عندما تكون طاهرة، في تحقيق التوحيد وانتظام وحدة الكون.

ويتـغلغل اللاعـقلي الغنوصي أكـثـر فـأكـثر في الحـيـاة الدينيـة والشـعـائريـة، في الفتـرة التي تعـاني أكـثر من غـيـرها من وطأة النفـي. وعنـدها يعيش يهود البحر المتوسـط والشرق، حالة من الانطواء و الانغلاق والانعزال، في انتظار مـجـيء المنقـذ الذي يعتقـدون أنه آت لا محالة. وهي حالة تدعو بالضبط إلى الاعتـقاد " القابلي " القائل بـ : " الصِّمْصُومْ " أو الإخـتزال، كـمـا يعـرفه إسـحـاق لوريا، أي: "إرادة فـعل الاختـزال الذي استحال إليه رب العزة وهو يحيط بكل شـيء " (1)

تصوف وصلوات

تعـتـبـر الطقـوس، وعوالم الـصلوات، أفـضل وجهـات التـصـوف اليهودي. وفيها يجد مـجاله المعتاد، سواء فـي الكم الهائل من الصلوات التي ينتحل أصحابها هم أنفسهم هذا التصوف، أوفي التأويل الباطني الذي يخـرج بالطقـوس عن مـفـهـومـهـا المعـتـاد الذي جاءت به التـوراة والموروث الديني على مدى الأزمان. ويـتبلور هذا التأثير القبـالي خاصة في مفاهيم متداخلة ومترابطة، مثل مجـريات " الكَوَنَة " أو القصد والإرادة أو"التأمل الـصوفي "(2)، وصـيرورة " الـتِّقُّـون" (3) أو تحقيق الانـسـجـام

1- يعتـقد إسـحاق لوريا وأتبـاعه من " قـبلبي " أو صوفـيي صفـد، بفلسطين، (القـرن السادس عشر) أن رب العزة استحال إلى حـال من الاختزال الإرادي [تعالى الله عن ذلك]، في فضاء ذاته، لما أراد خلق العالم، لتخـلو العوالم عما عداه من مـخلوقاته، ثم عاد ليملأ الفـضاء ومنح الكينونة للوجود.(المترجم)

2 - من بين ما يعنيه مـفهوم "الكونه " القصد، والمراد به أن اللـه لما وضع الخلق، كل الخلق، وضعه عن إرادة ونيـة، ولم يخلقـه صـدفة. و"الـكونه " من قبـل الإنسان تعـني إرادته وقصـده الاتصـال بخـالقـه . وهذا لا يتم إلا عن طريق التـأمل الصـوفي وسلوك العـارفين.وبه يبلـغ الإنسان مـقـام "اليحود" أو الحلول، بمعناه الصوفي الذي نعرفه.(المترجم)

3 - ينبني مفهوم "التقون" أو التقويم هنا، على اعتقاد مؤداه أن قوى الشر أحدثت بالخلق ضررا، وأن "التقون" أو إعادة البناء التي تأتي عن فـعل المتصوف أو فعل الخالق نفسه، هي الكفـيلة بتحقيق التوافق والتناغم بين الموجودات، وبالتالي إصلاح حال اليهود وإعادة قوام تاريخهم. (المترجم)

العلوي، و" اليحُّود " أو الحلول (1). ونظرُنا العميق في هذه المفاهيم، يمكننا من الفهم الأفضل لما كان يشغل قطب التصوف اليهودي الذي خص نفسه بخطاب وجدلية لا يعرف فحواهما العميق إلا قلة ضئيلة من الضالعين.

وتحتل" الكونة " أو القصد والتأمل الفكري المنقطع، [وهو هنا من قبل الإنسان]، مكانا مفضلا في الصلاة الصوفية، وهي إحدى مكوناتها السيكولوجية المهيمنة. وقد ربط "حَسدِيُو" (اتقياء) البلدان الاشكنازية (2) "الكونة" ربطا مطلقا ومدققا بالنصوص الوضعية، التي كانوا يحصون كلماتها بل حروفها، مستعينين في كل ذلك بأساليب رموزية، حتى يصلوا بواسطة فعلهم ذاك، إلى أسرار إشراقية. ولا يزال هذا المظهر للصلاة في مذهب لوريا الصوفي، هو قطب الرحى، مع إضافة بعض العناصر الأخرى المتفاوتة الأهمية. وتضفي " الكونة"، أثناء الصلاة، على شخص المصلي وعلى نشاطه التأملي قوة عظمى. وتجيب "القبالة" على إحدى أسئلة التلمود : "كيف نعرف أن الله نفسه يصلي؟" بالعبارات الآتية: "بفضل صلاة التنسك ينجذب الإنسان نحو

1- يدل لفظ " يحود " في اللغة العبرية على معنيين هما: الوحدانية والحلول، وقد استعملت " القابلة " المدلولين معا وقصدتهما، فالتصوف اليهودي، حسب المذهب الملمع إليه هنا، يهدف الحلول في الذات العلية والتوحد معها والإيمان بوحدانية الخالق، وتعريف الـ"يحود"، اختصارا، هو كل الأفعال العملية والمقاصد الذهنية التأملية، التي توصل الإنسان إلى الحلول في الحضرة، أو اكتشاف أسرار الكون عن طريق سر الحرف وتقاليبه وقيمه العددية. (المترجم)

2 - يعني لفظ " حسد حسديون لغة،الأتقياء، ويعني اصطلاحا أصحاب مذهب صوفي ظهر في القرن الثامن عشر الميلادي في أوروبا الشرقية وألمانيا، والمذهب رد فعل لفشل المذاهب الصوفية السابقة التي خرجت عن النهج الربي التقليدي، واحتجاجا على من منّوا اليهود بمجيئ منقذ لم يأت، وركز أصحاب هذا المذهب على مضامين التلمود وعلم فقهائه، وخصوصا سعديا گؤون، مستفيدين ما وصلت إليه المعارف الألمانية في عصرهم، والتزم أصحاب المذهب النظر في التوراة والتلمود والتزموا الزهد والتضحية والأثرة. (المترجم)

السمو بقوة لا تقاوم. فيندمج في حياة الأسرار الفعالة للحضرة الإلهية. إلى حد أن الله نفسه يشارك في هذه الصلاة التي ينجزها العبد.... وتضيف القابلة". إن الصلاة مثل السهم الذي يصوبه المصلي نحو السماء. واسطته في ذلك قوس "الكونة". "ويعرف أبراهام أزولاي. وهو قبالي مغربي. "الكونة". بأنها انجذاب نحو أسفل النور الروحاني الإلهي. الذي هو بهذه الحال. يبعث النور في حروف وكلمات هذه الشعيرة. لتصعد بعد ذلك إلى أعلى الدرجات...".إن الصلاة تعني أكثر من مجرد تعبير عن عواطف دينية. وهي أكثر من مجرد اعتراف وشكر شرع ليمجد به المؤمنون في شعائرهم العادية. الرب بصفته خالقا وملكا. إنها أداة بها ترتقي الروح نحو الله. والقصد من "الكونة" هو التوصل إلى معرفة مختلف درجات هذا الارتقاء. (1)

ولـ " يحوديم " أو فعل الحلول. مكانة خاصة في الصلاة. كما يرى ذلك لوريا وأتباعه. وهو تأمل في طرق تقاليب حروف (يـ هـ و ه) أو أسماء الله الأخرى الفائقة الوصف . وفعل " اليحوديم" (الحلول) – مثله مثل الممارسات المشابهة لانساق التأمل الصوفية الأخرى – أداة يرجى من ورائها السمو بالروح. واستعمل أيضا في بعض الأحيان. وسيلة للتواصل مع أرواح أخرى. خصوصا أرواح " الصدقيم " أو الأتقياء والأولياء. ممن مات وغادر هذه الدنيا. ومن ذلك تجلى أن في أفعال التأمل الذهني العميق في أسماء الله الحسنى وأسماء الملائكة. اتجاها يمزج بين الصلاة وأفعال السحر وكثير من الممارسات الأخرى. قصد بلوغ الروح القدس. وكان العنصر " المسياني ". أو انتظار المنقذ. وهو عنصر يرتبط بمفهوم " التقون " أو تقويم نظام العالم. حاضرا أيضا كل الحضور في هذا النشاط التأملي. وليس غريبا أن تتولد عن " القبالة " اللورانية.

1- G. Scolem et G. Vagda

نسبة إلى مذهب لوريا. في أوج الفترات " المسيانية " التي تنهل أيضا من مناهل أخرى، حركةُ شبتاي (1) التي طبعت بعمق، وأحيانا بمأساوية، التاريخ والوعي اليهوديين في القرن السابع عشر والثامن عشر.

وهكذا فإن " الكونه " أو القصد والتأمل البعيد أثناء الصلاة وأثناء القيام بنواهي وأوامر الشريعة، عندما تجمع بين" اليحود " أو الحلول أو التوحد والوحدانية، و" التقون " أو التقويم أو إعادة البناء، فإنما ترمي من وراء ذلك إلى الاتحاد بـ " الاسم " وتوحيده، وفي نفس الآن إلى إعادة تناغم الكون وتقويم بنيانه.

وبطبيعة الحال، فإنه ليس في مقدور عامة المؤمنين، الذين يرددون في غالب الأحيان، وهم يصلون أو يرتلون، النص حفظا ودون تأمل، فَهْمَ هذا الخطاب وهذه العمليات الذهنية المعقدة. وما الصلاة بالنسبة للمؤمن العادي، إلا تضرع يتوجه به الإنسان من نفسه خاصة، وفي نفس الوقت، مع الجماعة، نحو الله. فهو يصلي متشحا في وشاحه " طليت " متخشعا في وحدته، وفي نفس الآن، يشارك " العدَة " أو المشهد من المصلين الذين لا يجب أن يقل نصابهم عن الـ" منيَن". أو العشرة، ليكونوا جميعا " عدُوتُ " أو شهودا يشهدون على فعل ما قاموا به. فالصلاة عبادة وتواصل لا انفصام بعده وبَيِّنَة قائمة، وهي في نفس الآن، الوسيلة الفضلى للتقرب من المحبوب (2).

---

1 - نسبة إلى شبتاي تصفي (1625-1676) الذي ادعى أنه المسيح المنتظر، وقد أربكت دعوته هذه يهود الدولة العثمانية، حيث ادعى النبوة، وكذا يهود الشتات، بمن فيهم يهود المغرب، حيث قويت دعوته في سلا على الخصوص، وبقي مذهبه قويا في المغرب إلى أن قضى المولى إسماعيل على أتباع هذا المذهب اليهود في زاوية الدلاء. (المترجم)

1 - قارن بكافكا.

Préparatif de noce à la campagne, Gallimard, Folio,1957,p .64-65et 135

اللحظات الشعائرية والاحتفالات العظمى:

حياة الناس رحلة تملأها معالم من اللحظات العزيزة والاحتفالات التذكارية، مما جاء به التشريع اليهودي العام أو " الهلخه". أو مما استقاه الناس من الأعراف والعادات التي خلدتها الممارسات الطويلة والعريقة. فنحن هنا إذن أمام تقويم احتفالي ديني وشعائري أساسا. نلحظ فيه صدى التاريخي والوطني، والمتخيل والأسطوري. كما نلحظ فيه أسرار البعد الصوفي و الحدث المعاصر...

وهكذا يتخلل اليومَ من صباحه إلى مسائه، ثلاثُ صلوات كبرى: صلاة الصبح " شَحْريتْ " و صلاة الظهر " منْحَه " - ومعناها الحرف الهدية - وصلاة المغرب " عرْفيتْ ". ولا يخلو وقت من أوقات الطعام من التوجه لله بالشكر والحمد. كما يُحيى الليلُ نفسه بشعائر خاصة، تسمى " تقون حصوت " أو ابتهال منتصف الليل. ويمجد الرب بـ "السليحوت" أو التوسلات " في شهر أيلول و الفترة الفاصلة بين " روش هشنة" أو رأس السنة و" كبور" أو يوم الغفران.

وأفضل أيام الأسبوع يوم السبت " شبت"، وفضله كفضل المقدس على الدنيوي الدوني. وللشهر احتفاؤه الخاص به " روش حودش " أو أول الشهر. ويحتفى أيضا باليوم السابع منه . فيباركون فيه الهلال الجديد. وتتخلل السنة ثلاث مناسبات للزيارة:"شلوش رِكَليم". "بصح" و" شفعوت " و" سكوت ". وهي على التوالي : الفصح، عيد الحصاد، عيد الخيام. ومن المناسبات التاريخية " حَنوكَة " و" بوريم " وتعقب هاتين المناسبتين السعيدتين " مناسبات مكروهة ". كما يسميها الشاعر يعقوب أبنصور، وهي مناسبات تذكر بماض مؤلم فيه تحطم هيكل القدس ووقع النفي والشتات. وتذكر أيضا بمناسبات البكاء والصوم

والنواح. وأيام الشؤم:اليوم 9 من شهر آب و17 من تموز و3 من تشري و10 طبت و13 أدار.

ولن نصف وصفا مدققا كل هذه اللحظات الشعائرية وهذه الاحفتاءات والتذكارات. ولن نخصص لها من البحث المفصل ما تستحق. لأننا مضطرين إلى اختصار هذا الفصل اختصارا. تقيدا بما لدينا من حيز حددته الوقت ووسائل الطبع. وإنما سنتعرض لها. بعيدا عما يجمعها من تناسق وشمول. بسبب ما نعتقد أنه يميز الطوائف المغربية عن غيرها من أخواتها في الشتات. وبسبب ما يجعلها تكون هويتها الفريدة وترسم شخصيتها الخاصة. وسنتعرض من حين لآخر. لبعض الطقوس ولبعض الأعمال التي تستحق الذكر. ملمحين إلى أعراف وعادات ضاعت الآن أو اختفت. ولا يستطيع أن يستحضرها إلا من عاش دواخل حياة هذه الطوائف التي ظلت مهملة طويلا. ذاك الذي عرف عن تجربة داخلية شخصية. المسار الثقافي و الروحي لهذه النخبة العالمة. وهذا الحيز الثقافي الأكثر اعتدالا. داخل مجتمع يهودي كبير. أكثر تحررا وأكثر تفتحا على المحيط العربي الأمازيغي و الإسلامي.(1)

---

1 - ينظر. لمعرفة ما هو ضروري عن" الحياة الدينية و الشعائر اليهودية في المغرب " أعمالنا المخصصة لليهودية في الغرب الإسلامي :

"Les Juifs du Maroc,, vie sociale, économique et religieuse, p.236-242; Poésie Juive

في أماكن مختلفة من الكتاب. Mille ans de vis juive au Maroc, p 221-287; Kabbale

في أماكن مختلفة من الكتاب. ونذكر هنا على سبيل المثال بعض الطقوس والأعراف الدالة المتعلقة باحتفال يوم السبت الصوفي واختتام الفصح والرمز الصوفي لعيد شبعوت وعيد العنصرة اليهودي وكذلك تأملات حول الأصول الصوفية للموسيقى والغناء في الأدبيات القبالية وكتابات التصوف الإسلامي.

السبـــت

تعرضت الشريعة المكتوبة أو العهد القديم، والشريعية الشفوية أو المشنا والتلمود، والتشريع والفقه في مدوناته المختلفة من " هلخه " أو تشـــــريع تلمودي، و" رسبونسا وتقنوت " أو فتاوى فردية وجماعية، و" مدراش وهگدة " أو الكتابات الوعظية و الأخبار اليهودية، و" القبالة " أو التصوف اليهودي، بكثير من التفاصيل، لـ " شبح شبت " أو تمجيد السبت، " وقودش، شبت " أو قداسة السبت، و" عونگ شبت" أو بهجة السبت. كما تعرضت لطقوسه ومحرماته التي جعلت منه يوما شديد الخصوصية يختلف عن غيره من أيام الأسبوع. وتميز يوم السبت أيضا بما أضفته عليه الأعراف و العادات المحلية. ولن نتعرض هنا إلا إلى ثلاث أُوَيْقَات مفضلة من هذه المناسبة التي لا نظير لها، وهي: أمسية "بقشوتٍ" أو التوسلات، ولحظة دخول السبت، ولحظة خروجه. فنصفها على الطريقة التي كانت تحييها بها الغالبية العظمى من العائلات التقليدية المغربية، وكما عرفنها نحن نفسنا وعشناها، مضيفين إلى ذلك بعض شهادات، هي عبارة عن وثائق نقلتها إلينا الآداب اليهودية المغربية نفسها، أوهي من مرجعيات بعض نصوص الزهر، تواتر استعمالها هنا بالمغرب، وكلها مرتكزات لتعاليم السبت الخاصة.

الاحتفال الصوفي ليوم السبت:

المائدة الملكية

إذا كانت وصايا التوراة العشر ترتبط بالأوامر العشر التي أمر بها الله لخلق العالم، فإنها أيضا الأوامر العشر التي ينبغي القيام بها احتفاء بيوم السبت، كما جاء في فقرة من فقرات الزهر(1) تلك التي

1- الزهر III 272 ب/ 274أ

تتناول بالخصوص وجبات السبت. التي تعرف هنا بـ" المائدة الملكية":
وتبدأ باغتسال اليدين وإعداد خبزتين لكل وجبة. فتناول الوجبات الثلاث.
كما حددتها الطقوس الخاصة بها. فإشعال المصابيح لإنارة المائدة.
فمباركة كأس الخمر التي تفتتح بها الوجبة. فمدارسة التوراة أثناء
الجلوس حول المائدة وإطالة وقت الوجبة. فاغتسال اليدين الأخير. وأخيرا
الشكر والحمد. فمباركة وشرب كأس الخمر الأخيرة.

وفي التفسير نلحظ الدلالة العميقة الباطنية لهذه الأعمال
العشرة التي لها وظيفتها ودورها في إعادة بناء [أو تقون] (1) السر
المقدس " للسفروت" العشرة (2). وتُدرج فيها "الشخينة" أو السكينة
أو الحضرة التي هي "مائدة" القدوس تبارك و تعالى...

وسبب الأمر باغتسال اليدين يأتي من كونهما هما اللتان تكونان
بالأساس. نجستين. أي أنهما غير ملائمتين " للمباركة" التي بها تنفذ قوة
الاسم الأعظم الذي تساوي القيم العددية للحروف التي يكتب بها عدد 28.
وهي نفس عدد عظام أصابع اليدين. ولا تحل هذه المباركة إلا باليدين الطاهرتين.

وتمثل الخبزتان الخاصتان بكل وجبة يوم سبت. مائدتي الشريعة
اللتين أنزلتا يوم سبت. أزواجا. وهما الشريعة المكتوبة أو التوراة

---

1 – انظر ما قلناه عن " التقون " أعلاه.(المترجم)

2 – يعني لفظ " سفروت ". في التصوف اليهودي. من بين ما يعني. أسماء الله الصفات.
ويعني أيضا الوسائط.ولا تكون عن فيض كما هو الأمر في الأفلاطونية. إنما هي في الله ذاته.
وتعني الأفلاك التي ترتبط باللامنتهي. وهي أيضا صفة للإنسان " القدمون " أو الذي هو ظل
الله الشبيه به. ويختلف عن إنسان الأرض.ومن للمتصوفين اليهود من جعل لهذه
"السفروت" أسماء. فهي في الشجرة " القبلية ": التاج(الهالة) والحكمة والفهم والرأفة
والجبروت والبهاء والعزة والجلال والمبدأ والمُلك. وعلى كل حال فقد تعدد مفهوم "السفروت"
بتعدد مذاهب "القابلة" وتعقدت محدداته. (المترجم)

والشريعة الشفوية أو التلمود. ويكون لكل إنسان يوم السبت روحان. روحه الملازمة له أصلا وأخرى إضافية" نشمة يثره "(روح زائدة). ولا تكون له إلا يوم السبت. و تطير الأرواح والنفوس و تنزل في ذلك اليوم أزواجا أزواجا. دون أن يمسها مس من شيطان أو جن. ودون أن يكون لهؤلاء فعل على العالم . وفي يوم السبت جهنم نفسها تغفو ولا يكون للنار فعل إحراق.

سبق أن جاء في رواية التلمود. في قسمه الخاص بـ " الهگدة " أو الأخبار والتواريخ. أن عذاب الأشرار يتوقف يوم السبت. وأضاف واضع " "الزوهار" كثيرا من الخيال حول هذه الرواية فقال: إن كل قوى الشر في ذلك اليوم تصبح عاجزة عن الفعل. ويتوقف التقاضي في المحاكم الإلهية السماوية. ويكف العنف مجراه في العالم أعلاه وأسفله. وتعم الرحمة كل مكان.

وتُكوِّن الوجبات الثلاثُ الشعائرية ومباركاتُ الصلوات السبع وشجرةُ الـ " سفروت " أو الصفات العشر الإلهية. سرّ "اللذة أو "العونگ". التي تصبح بدون هذه الوجبات الثلاث " نوگع " أي جرحا خبيثا. (لاحظ تغيير وضع العين) (1) وجاء في سفر أشعياء. إ58 آ14 : " فحينئذ تتنعم بالرب " (2)

1- تشير " القابلة " هنا إلى القوة الخفية في حروف الكلمة. وكما تُحْدث تقاليب الحروف في الكلمة ما يحول السعود إلى نحوس. كذلك تستطيع هذه الأسماء وهذه الكلمات فعل ذلك في عالم الطبيعة. إذا استطاع الإنسان أن ينفذ سر الحرف..(المترجم)

2- اكتفى المؤلف بجزء من الآية. اعتمادا على معرفة القارئ اليهودي بالتوراة. ولا بد من الإتيان بما قبل لفهم الغرض: " 13 إن كففت قدمك عن نقض يوم السبت وعن السعي وراء مرامك في يومي المقدس. ودعوت يوم السبت يوم مسرة للرب.... 14 فحينئذ تتنعم بالرب وأجعلك تمتطي مشارف الأرض. وأطعمك ميراث يعقوب أبيك. لأن فم الرب تكلم " (المترجم)

أن تنير المائدة بنور المصابيح. تلك هي الوصية الرابعة. وتتطلب هذه الشعيرة أن تهيأ المائدة بأفضل غطاء وتنضد بأجمل الصحون وتحتوي أشهى الطعام وأعذب الشراب .مائدة محاطة بمقاعد موشاة رفيعة الزخرف. والحقيقة أن السبت يستوجب أن يكون ميزا عن الأيام الأخرى العادية. بمزيد من الفخامة وبترديد الجميل من الألحان و الأغاني التي تمجده. بحيث يستقبله عاشقه في جو من البهجة التي يستقبل بها الخطيب خطيبته. ذاك أن " شبت" هو حقا أميرة و خطيبة...

ولنترك بقية الوصايا الأخرى جانبا. ولنقف لحظة عند الوصية السابعة. تلك التي تنص على وجوب إطالة وقت الوجبة. وليس المقصود من ذلك إطالة النظر في التوراة حول المائدة. بل المقصود ترك الزمن الكافي للفقراء حتى يتمكنوا من المجيء ليشاركوا هم أيضا في تناول الوجبة. وأضاف واضع " الزهار ". في تفسيره للآية المشهورة في سفر الأمثال إ 10 آ 2 : " البِرُّ ينقذ من الموت ". على المعنى المتعارف عليه عند المفسرين. فكرة يظهر أنها تناقض نصوص أخرى توراتية وربية. إذ نقرأ في النص المذكور: " لم يجد القدوس تبارك و تعالى. صفة يصف بها إسرائيل [بني إسرائيل] أفضل من صفة المَسْكَنَة. إن الشعوب والأمم إذا عانت العوز والجوع . ثارت على ملوكها وأربابها ولعنت السماء. كما جاء في أشعياء إ 10. آ21. أما إسرائيل [بنو إسرائيل] فإنهم يلتحمون بربهم بصفة المسكنة بالذات. ولن يكفروا به أبدا. وبهذه الصفة سيتخلّص إسرائيل [بنو إسرائيل] في المقبل من الأزمان..."

السبت أميرة وخطيبة

يقال بأن حكماء " المشنا" (القرون الأواخر من عهد الهيكل الثاني بالقدس) كانوا يخرجون من المدن. احتفاء باستقبال "شبت". بعد الظهر

من كل جمعة. وهم يرددون:" بوئي كله".(اقبلي أيتها الخطيبة). وفي القرن السادس عشر. أعادت الحركة " القبالية" التي ظهرت بفلسطين على يد إسحاق لوريا وأتباعه. معالم حفل الاستقبال هذا. بصفد وطبرية. بعد أن دعمته دعما لتصير له معانيه الصوفية التي عرفت نجاحا باهرا في كل أرجاء حوض البحر الأبيض. وعلى الأخص في مجتمعاتنا المغربية. بفضل ازدهار نوع من الشعر المُبْتَكر. تمثل أساسا في الأناشيد والتراتيل الخاصة بالسبت. وهي بالذات من نظم إسحاق لوريا نفسه وأتباعه. وكانت هذه تعبر عن المعتقدات الغنوصية الجديدة. في تراتيل طقوسها. وتحتل القصيدة المشهورة التي نظمها سلمون هلفي القبص. المكانة الأول. وعرفت هذه الترتيلة الممجدة للسبت التي تجمع بين الرمز الصوفي والأمل الماسيحاني [في مجيء المخلص]. نجاحا عظيما لدى كل الطوائف اليهودية في العالم وإلى اليوم. ويرتلها المصلون في كل البيع. على اختلاف مذاهبهم واختلاف اتجاهاتهم. مساء يوم الجمعة. ليستقبلوا بها حلول " شبت".

وهذه لازمتها :

" لِخَ دودي لِقْرَتْ كَلَّه...

لنذهب حبيبي لاستقبال الخطيبة .

نعانق محيا " شبت "

ويبدأ المقطع الثاني هكذا:

" علينا أن نذهب لاستقبال السبت.

إنها مصدر كل بركة..."

وتنتهي القصيدة بنداء الخطيبة:

" إإت بسلام. يا تاج عريسك

فـي جـو مـن الـفـرحـة والحبور
جـمـع المؤمـنين يحـنـو عـلينا مـن كـل صـوب
تـعـالـي، أبـتـهـا الـخـطيبة، تـعـالـي أبـتـهـا الـخـطيبة ".

وهـكـذا يـحـاط احـتـفـال يوم " شـبـت " بـاحـتـفـائية جـد خـاصـة، فيسبح فـي جـو يهيمن عليه الاعتقاد فـي الإنسان وفـي قـدرته عـلـى إصلاح الـكـون. ويغـتـني أيضـا هـذا الاحـتـفـال بـالرمـزية الـتـي يمثلهـا "زواج الملك بالملكـة" وهـو مـوضـوع الـنـشـيـد الـديـنـي الـذي نظمه سـلـمـون القـابـز، ويرتل هـنـا مـع نـشـيـد الأنـاشـيـد، والـفـصـل الـواحـد والـثـلاثين مـن سـفـر الأمـثـال. ومـدار هـذه الـنـصـوص هـو الـتأمـلات الخـاصـة بـ"الـشـخـيـنـة" أو الحضرة فـي صـورتـهـا الـتـي تمـثـل الـقَرين الـصـوفـي للإله. ولـنـذكـر هـنـا أن الـصـورة الـرائـعـة لــ"المرأة المِقْدَام" كـمـا جـاء فـي نـص الأمـثـال (1)، لا تمـثـل بـالـنـسـبـة لـلـصـوفـيين، تـلـك المرأة الـتـي جـاء وصـفـهـا أصـلا فـي الـنـص الـتـوراتـي لـيـمـدحـهـا بـاعـتـبـارهـا امـرأة حـقـيـقـيـة مـن لحـم ودم. بل يعـتـبـرون المـرأة هـنـاك رمـزا لــ"الـشـخـيـنـة" أو الحضرة. ومـن جـهـة أخـرى، فـإن وصـف المـرأة فـي سـفـر الأمـثـال هـذا جـاء فـي آيات تـبـدأ بـحـرف " أ " وتـنـتـهـي بـحـرف " الـتـاء " [مـن الآيـة 10 إلـى الآيـة 31]. أي بـعـدد مـا تحـتـويه الأبـجـديـة مـن الحـروف. و ترمـز هـذه الحـروف الاثـنـتـان والـعـشـرون إلـى اثـنـتين وعـشـرين وسـيـطـة مـن وسـائط الـبـركـة و الـوفـرة الـتـي تـفـيـض مـن الـسـمـاء... و تمـثـل المـرأة أيضـا الـتـوراة.

1- يشير المؤلف هنا إلى سفر الأمثال. إ 31 آ 10- 31 .ففي هذا النص يصف المرأة العاملة المتواضعة الخدوم الشديدة المراس الرؤوف الحكيمة التي تصنع ما يقيم أود الروح والبدن. وباختصار تحفظ البيت كما تريده الوصايا.وجاءت الآيات التي وصفت فيها هذه المرأة مرتبة ترتيبا هجائيا، أي في اثنين وعشرين آية بعدد حروف اللغة العبرية. (المترجم)

اختتام أعياد الفصح : ميمونة أو علائم اليُمْن

إننا هنا، كما هو الحال في كل ما يتصل بالتظاهرات الكبرى للمتخيل الاجتماعي اليهودي المغربي، كالمناسبات الأخرى المختلفة، من ولادة وزواج وموت، نجدنا أيضا أمام احتفال مزدوج ذي قطبين. وهي ازدواجية زادته تعقيدا. فأصوله مبهمة وتاريخه غامض. وبذل الأحبار التقليديون جهدا لموالمته للمعتقد بشكل من الأشكال، جاعلين منه احتفالا دينيا خاصا، ومضفين عليه، صفة شرعية بحثوا عن مبررات لها في الآداب اليهودية التقليدية، نصوصا توراتية وأخبارا تلمودية ومكتوبات وعظية. ونعتقد أن أصول هذا الاحتفال هي أكثر التصاقا بالمحيط الاجتماعي الثقافي المغربي والبيئة المحلية المغربية كما هي عليه. تؤيدنا في ما ذهبنا إليه، كل التظاهرات الشعبية والطقوس والأعراف والعادات التي تطبع هذا الاحتفال، والذي يظهر أنها كلها اتخذت من الفلكلور المحلي القديم، هذا الحيز التكافلي، حيث يلتقي اليهود والمسلمون طواعية، فيعبرون بشكل من الأشكال وفي المناسبات الفضلى، بنفس اللغة عن المصير المشترك الذي يجمعهم على أرض عمروها جميعا منذ أقدم العهود ويرتبطون بها كل الارتباط.

وقد فُسرت اللفظة " ميمونة " - وهو الاسم الذي يطلق على هذا الاحتفال - تفاسير عدة، وأكثرها لا ينبني على أساس، لأن المقصود منها كان هو إضفاء الصبغة الإيديولوجية التي أرادوا أن يجعلوها لهذا العيد. وربط اللفظ العربي " ميمونة " بالعبري " إمونه " أي إيمان واعتقاد، هو هنا مجرد وهم، وهو مثال على عدم صحة تلك التفاسير.(1) وإذا كان الفصح يحيي ذكرى الخلاص التاريخي من النير المصري، فإنه

1- يريد المؤلف أن يقول إن الذين قربوا بين اللفظين فعلوا ذلك للتقارب الصوتي، وإلا فإن لفظ " اليمن" أي الرخاء، لا علاقة له بلفظ " الإيمان "لغة. (المترجم)

كان كذلك مناسبة " للإيمان والاعتقاد " بالخلاص القريب في نهاية النفي، والرجوع المبشر به إلى الموطن الأصل، كما يعتقدون. وهي نفس المعاني التي يجدها التقليد الربي في طقوس اليومين الأخيرين من الفصح، حيث يتلون النشيد الذي غناه موسى وبنو إسرائيل بعد اجتياز البحر الأحمر، الوارد في سفر الخروج، الإصحاح الخامس عشر، ويرتلون والنص التنبئي الوارد في رؤى أشعياء، الأصاحيح من العاشر إلى الثالث عشر.

وإرجاع أصل اللفظة إلى ابن ميمون هو وهم أيضا. وقد ترك موسى بن ميمون، الذي أقام في المغرب بعد خروجه من قرطبة، أيام اضطهاد الموحدين في منتصف القرن الثاني عشر، آثارا عميقة في الذاكرة اليهودية المغربية. وقد كان لهذه الإقامة أن أفسحت المجال لتخيل حكايات وأساطير عجيبة، تردد صداها فيما بعد، لدى كل اليهود.

ويتجلى المظهر الديني " لميمونة" أساسا، في الطقس الخاص بالأمسية التي يختتم بها عيد الفصح، حيث تتلى نصوص من سفر الأمثال ونصوص من فصل الآباء من المشنا، وأشعار تعليمية خاصة "بشبعوت" (أزهروت) وغيرها. وفي الطقس الذي يأتي بعد صلاة الغداة المسمى "بركت هإلنوت" أو الدعاء ليبارك الرب الأشجار، يتوجه الناس إلى بستان من البساتين خارج المدينة، و غالبا ما تجرى مراسيم هذا الطقس تحت شجرة كرم لم تنضج فاكهتها بعد، كما كان يجري الأمر في الصويرة، أو تحت زيتونة كما كان ذلك يحدث في مراكش. وذلك تبعا لتقليد تلمودي(برخت ب 43) يقضي بالذهاب إلى الحقول في شهر نيسان، لتلاوة الدعوات وترديد الحمد لله شكرا على عطاء الشجر وخيره.

ويتجلى المتخيل الاجتماعي اليهودي – المغربي، والبعد الفلكلوري المحلي لميمونة بوضوح، في التظاهرات الشعبية المختلفة المتعددة، وفي

الطقوس التي نكتفي هنا بالإشارة إليها دون تفصيل. وهي التي تذكر أساسا. بالعودة إلى الطبيعة وإعادة الخلق والتجديد. وبالعلاقات المتينة التي كانت تجمع بين المجموعات العرقية والدينية الأخرى. وبالثقة في كل ما هو قوى فوق الطبيعة وغير هذا.

ويتجلى المعنى الشعبي للفظ " ميمونة " في معناها اللغوي. أي ذات الحظ. ويتجلى أيضا مدلول هذه الليلة " الميمونة " المسماة بالضبط " للاميمونة " (سيدة الحظ) في عبارة المتمنيات التي يتبادلها الناس فيما بينهم. والمعنيان معا. بالإضافة إلى ذلك. يترددان على لسان المجموعتين الدينيتين المتجاورتين. اليهود والمسلمين. أثناء اللقاءات والزيارات والتجوال. طيلة ليلة " ميمونة " واليوم الذي يليها. في عبارة : "تربحو وتسعدو" (تربحون وتسعدون). وهذه بالذات معاني اليمن التي تدل عليها هذه المناسبة ويدل عليها لفظها اللغوي.

وإذا كان " ميمون " هو ملك الجن والقوة الخارقة التي تبث حتما في المصير. والذي يلتمس فيه الخير. فان" للاميمونة " هي الولية التي ترجى. بل المعبود الذي يوزع الخصب و النجاح و السعادة والرخاء.

ولقد ارتبطت السعادة والرخاء في هذا الفصل بإعادة خلق العالم والتجديد. ويمكن أن نلحظ رمزهما ومادتهما في البيوت المزينة بالاخضرار وعلى " الطاولة المقامة " التي أعدتها سيدة البيت. بمناسبة هذه الليلة العظيمة. وعليها السمك وسنابل الشعير والقمح وعروش الفول والخس والفواكه والحلوى والحليب واللبن والسمن والعسل وإناء مملوء بدقيق القمح. وأكواب مليئة بزيت صاف تلمع فيها الحلي وقطع الذهب والفضة. وقد جرت العادة. في أغلب الأحوال. أن يقدم الجيران المسلمون

كل هذه الأمور، لتكون عربونا على الصداقة. ويتبادلون الهدايا كما جرت العادة بذلك في مختلف المناسبات.

ويقوم الأب، أو الجد إذ كان لا يزال على قيد الحياة، بعد رجوعه من البيعة، حيث صلى صلاة المغرب " عرفيت" بأول طقس، وهو مباركة أفراد العائلة فردا فردا. وذلك بوضع يده اليسرى على الرأس، في حين يقدم لهم باليد اليمنى ورقة من الخس مغموسة في العسل فجرعة من الحليب. ثم يأتي دور الشعيرة الثانية، وهي شعيرة تمثل إعادة الخلق والبدء، ذلك الذي يعيد قصة العودة الأبدية، والتي تتمثل في تهيئ خميرة جديدة، وهي عجين يترك عدة أيام ليختمر تخمرا طبيعيا دون أن يضاف إليه أي نوع من أنواع الخميرة. ويحتمل أن تؤكل أثناء هذه الأيام في شكل خبز لم يختمر عجينه أو لم يتمم اختماره. ويخلط الدقيق بالماء في قصعة من طين أو نحاس أحمر، حيث يضع كل فرد يده في العجين، ويرمي بقطعة حلي أو ذهب أو فضة، بينما يردد الرجال في جو من الجلبة، نشيدا بالعبرية أو العربية أو القشتالية أو الأمازيغية، وتزغرد النساء، وترفع أصوات بهجتهن الصاخبة. وجرت العادة بأن يغطى الكل بخرقة من صوف أو منديل من حرير... ويكون العشاء من فطائر "مفليطا" مدهونة بالسمن و العسل، وتقدم للضيوف و القادمين كمية من حلوى مصنوعة من اللوز والزبيب، (نسمى في الصويرة مسابانس والحلوى، وفي مكناس لمروزية...) و ترتدي النساء داخل البيت ملابس العرس التقليدية الفاخرة المعروفة بـ " الكسوة لكبيرة ". كما تتزين الفتيات بأجمل حليهن. وفي الواقع، ففي هذا المساء، مساء " ميمونة "، مساء المصير، وألـ " مَزَّلْ طوف " أو الحظ السعيد، يفضل أن يختار العريس عروسه. وتجدر الإشارة إلى أن العادة توصي بأن يسكب الحليب

في هذه المناسبة على أعتاب كل غرف البيت. وفي هذه المناسبة أيضا يسمح للأطفال بجلد آبائهم بفروع من أغصان الشجر أو بالسيوف.

وفي الخارج، إنه المهرجان. الاحتفال الكبير: جماعات جماعات من الشباب تقطع دروب الملاح، وفساتين الفتيات المرقشة تنافس لباس الشباب التنكري، يافعين وكهولا. جميعا يتنكرون في هذه المناسبة، في ثياب النساء، أو يتبخترون في لباس عربي، يضعون الطربوش أو الشاشية الحمراء، ويرتدون الجلباب الملون، أو الـ" فرجية " من نسيج طبيعي بعقد من حرير، وأحذية (بلغة) بيضاء أو صفراء.

وهكذا يبدي اليهود، بشكل من الأشكال، الرغبة العميقة في التحرر الاجتماعي والسياسي، بهذه العملية التنكرية التي يحاولون بها التشبه، عن طريق اللباس، بالجار البرجوازي المسلم. وهي رغبة لا تختلف والحالة هذه، مع الخلاص الديني والمنتظر. ويظهر مع ذلك، أن لهذا العيد الكرنفال، علاقة بعيد " سلطان الطلبة " الذي يستغرب أن يحتفي بجرياته الطلبة، في نفس الفترة بفاس، إحياء لذكرى انتصار السلطان المؤسس للدولة العلوية، في القرن السابع عشر، على ابن مشعل، رأس قبيلة اليهود الذي روع المسلمين في نواحي تازة (1).

وتتتابع الاحتفالات إلى آخر الليل. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، يستعدون لزيارات الحدائق والرحلات إلى البوادي، على عجل، حيث يتخذ المحتفلون أماكن قرب المياه، تبعا لما أمرت به الشريعة (قرب عين الماء أو الآبار أو الجداول). ويتناولون الوجبات فوق العشب. أما في المدن

1- انظر:

P .de Cénival," Légende du Juif Ibn Mesh 'al et la fête du Sultan des Tolbas, à Fès", Hésperis V,1925,p.137/218.

الساحلية، فإنهم يفضلون النزول إلى البحر حيث يغطسون الأقدام في الماء، ويتناولون الطعام فوق الصخور أو على الرمال، في جو يملؤه الغناء والرقص. إنها أيضا طريقة يحيون بها التجدد، فيقتحمون الخضرة والطبيعة النضرة التي لا وجود لها بتاتا بين جدران الملاح المغلقة. إنها محاولة مؤقتة لتحطيم الأسوار العالية التي يعيشون داخلها. وإنها أيضا لمظهر يظهرون به، بالرغم من ظروف عيشهم المعتادة، ليدلوا على أنهم لا يختلفون عن الآخرين، وأنهم يرتبطون بالأرض وبكل ما خلق الله. ويشهد هذا الفعل أيضا، على التوافق القائم مع المحيط الفكري وهو ما يلاحظ، زيادة على ذلك، في الأعراف والتظاهرات الشعبية المتشابهة، مما هو قائم في المجتمع العربي الأمازيغي المسلم. إنه تشابه طقوسي مدهش يكون الماء رمزه، كما تكون له النار أيضا رمزا في مناسبات أخرى لا تخلوا منها السنة على امتدادها. وكما سنرى، فإن طقوس الماء هذه (الاستحمام و النضح الإجباري) تتكرر عند اليهود، في عيد "شبعوت" (الأسابيع) الذي يصادف إذ ذاك عيد "العنصرة" الذي يعرف هو كذلك طقوسا خاصة بالنار و الماء.

ولا يرى المسلمون في دخول اليهود حقولهم، والتجمع حول ما يوجد بها من سواق وعيون ماء ما يقلق، لأنهم يعتبرون هذه الزيارات في هذه الحالة، علامة على البركة، وضمانا لسنة ممطرة تحمل عطاء وافرا، بل تُعد أحيانا هذه النزهات إعدادا مقدما، فيدعى اليهود لزيارة ضيع أصدقائهم وجيرانهم المسلمين، لأحياء عيدهم الريفي " ميمونة " فيمرحون ويشربون، كما يشهد على ذلك ما عاشوه في مراكش ووزان وصفرو وتافلالت وأماكن أخرى. وتتردد في هذا الصدد، أساطير وحكايات لطيفة، تتحدث عن الظروف التي ينقب فيها المسلمون عن عيون ماء.

لتكون مكانا يلهو فيه اليهود يوم" ميمونة". ونكتفي من أمثلة ذلك بهذه الحكاية :

" كان لأحد المتعجرفين المسلمين، يسمى لجودي، بنت فاتنة، واشتدت به الرغبة ذات مساء، فاغتصب بكرتها. وفي الغداة تمثلت أمام عينيه فداحة جرمه، فاستفتى شيوخ القبيلة وشيوخ القبائل الأخرى القريبة، في الطريقة التي يمكنه بها أن يتوب ويكفر عن ذنبه، فكان جوابهم: " عليك أن تشق بأظافر يديك ساقية طولها مسيرة أربعة أيام، فهذا هو العمل الكفيل بمحو خطيئتك " وبدأ الجودي شق الساقية إلى أن أتنهى العمل . وهذه الساقية هي التي تجر الماء من العين التي تسقي مدينة الصويرة، التي يسكنها كما هو معروف، كثير من اليهود. ولهذه العين بالذات يتجه اليهود للتنزه في عيد " ميمونة " عندما لا يذهبون إلى البحر".

وعلينا أن نختم بالحديث عن ازدواجية احتفال نهاية الفصح اليهودي هذا، وعن ثنائية هذا العيد المدعو " ميمونة "، حيث نلحظ من جهة، التأكيد على البعد التاريخي وانتظار المبشر المخلص، وهذا ما جعل من المناسبة احتفاء دينيا يهوديا، ومن جهة أخرى، إرادة التمثل بالمحيط الاجتماعي الثقافي، والارتباط بما هو محلي، وبالأرض وبالآفاق وبالمحيط الطبيعي الذي يعرفه هؤلاء السكان.

ونجد المسلم في غالب الأحيان، مشاركا ومساهما بأوفر نصيب في إحياء هذه الطقوس التي تطبع هذا الاحتفال، وفي الإعداد لهذا العيد، وما يجري فيه من أعمال، بل يوجد هو نفسه أحيانا في قلب هذا الطقس الذي يلعب فيه دور البطل بل النموذج المثالي.

وتعد " ميمونة "، كباقي التظاهرات الفلكلورية التي تعرفها اليهودية المغربية، مثلها مثل كل الأعمال الأدبية الشعبية والشفوية

التي أبدعها هؤلاء اليهود. عاملا من عوامل الاندماج والمساهمة الاجتماعية داخل المجموعة اليهودية نفسها. من جهة. وداخل الإطار العام لباقي السكان. دون تمييز عرقي أو ديني. من جهة أخرى.

وبالرغم من رغبة اليهود التقليديين في جعل هذه المناسبة عيدا يهوديا محضا. فإن " ميمونة " تبقى سببا من أسباب تمتين الروابط العميقة التي تربط الأقلية اليهودية بالأكثرية المسلمة. ودليلا على وجود أرضية للوفاق. حيث تتواجد المجموعتان وتلتقي هنا. كما في الاحتفالات الأخرى المشابهة التي لا تختلف طقوس بعضها عن بعض. فتتبادل التأثر والتأثير مما له وزن في الاعتبار. إن ميمونة تكون أحد عناصر التناغم الرائعة والتعايش المنسجم. وهي خلاصة سلم دام قرابة ألفي سنة على أرض المغرب المعطاء هذه.

وفي الختام. علينا أن نشير أن " ميمونة " هي العيد اليهودي المغربي المحلي الوحيد. الذي احتفظت به الطائفة المغربية المتمزقة. وحملته معها إلى أماكن استقرارها الجديدة. في فرنسا وكندا وفي أمريكا الجنوبية. فقد حمل منه المهاجرون معهم ذكراه. وأحيوه في كل مكان بأبهة وعظمة. بل أصبح في إسرائيل عيدا وطنيا. اعتبره اليهودي الاشكنازي نفسه عيدا له. بل الأكثر من ذلك. أنه لم تداخله في أمره أي خلفية سياسية مسبقة.

الرمز الصوفي لـ" شَبُعُوتْ "." تِقُّونْ " و" كِتُوبَهْ "

التقون "العمل من أجل إقامة تناسق شامل".

من الزمان ما هو أنسب للقيام بالطقوس الصوفية. من ذلك إحياء السهرات الليلية. وهي جلسات ليلية تخصص لـ" قراءات " صوفية.

مثل سهرة "تقون حصوت" أو قراءة منتصف الليل، التي تذكر بنفي"الشخينة" أو الحضرة الربانية. وسهرات"هُشْعَنَه رَبَهُ" أو الاتكال الكامل، التي تجرى الليلة السابعة من الفصح والليلة الأولى من "شبعوت". وفيها أيضا يتلى ما به يكون ألـ "تقون" أو التقويم. و"التقون" طقس خاص واحتفال بـ" التقويم " أو بـ"إعادة" التناسق العلوي. ويعد هذا الطقس مظهرا من مظاهر تأثير مذهب مدرسة إسحاق لوريا القبالية [كما سبق أن رأينا]. ومظهرا من مظاهر انتشار التعليم و العادات والأعراف التي نشأت في الحلقات الفلسطينية بصفد. ثم انتقلت لتصبح لدى الطوائف المغربية جزءا من عاداتها الدينية الصوفية. وتسمى هذه الليلة في لغة أهل البلد " ليلة لقرايا". فيقرأون من مسائها حتى مطلع الفجر، نصوصا مختارة من العهد القديم ومن "المشنا" و"الزهار". وفي هذه الليلة أيضا يرتلون الأناشيد في البيعة أو في البيوت الخاصة. ويعد هذا الاحتفال أيضا احتفالا شعبيا للغاية، لأنه مناسبة يتفقه فيها الأطفال، بشكل من الأشكال، ويشاركون في المآدب البسيطة التي تقام هذه الليلة، فيتناولون الشاي والقهوة والفواكه المجففة والحلويات طوال الليل.

وليس بين فكرة العهد الإلهي مع جماعة بني إسرائيل، وفكرة اتحاد الزواج، بالنسبة للقباليين، إلا خطوة واحدة. وجاء في " الزهار " أن الربي شمعون بريوحاي وصحبه كانوا قد أضفوا على الليلة الأولى من هذا العيد بعدا صوفيا ومدلولا باطنيا عظيمي الأهمية. إنه في تلك الليلة بالذات تستعد الخطيبة للزواج الذي يكون الغداة. وهذا مختصر لما جاء في الزهار في هذا الباب (الزهار I ، 8 أ) :

"كـان الربي شمـعـون جالسـا يدرس التـوراة في تلك الليلة. حـيث كانت الخطيبة تستعد للاتصال ببعلها. فقد روي أن على كل حاشية أبناء قصر الخطيبة أن يبقوا بجانب هذه الأخيرة. طيلة تلك الليلة التي تستعد فيها لتلتحق الغـداة ببعلها. فيجتمعون تحت قـبة بيت الزوجية. وعليهم أن يبـتهـجـوا هم وهي بزينتـهـا التي تعـدها. يعني أن ينكبـوا على درس التـوراة. بدءا من أسـفار الأخـمـاس إلى أسـفار الأنبـياء. ومـن الأنبيـاء إلى المكتوبات (1) يفسرون الآيات. ويتعمقون أسرار الحكمة. فتلك حقيقة. هي استعداداتها وأفراحها وحليها. وعندها تدخل الخطيبة. تتبعها وصيفاتها. فتـتباهى وتمرح كل تلك الليلة. ولا يدخل أحـد الغداة قبة الزوجـية إلا في رفقتها. وأولئك الـرفقاء و الرفيقات هم الذين نسميـهم " فتيان العرس". وما أن تدخل الخطيبـة قبة الزوجية. حتى يناديهم القـدوس تبارك وتعالى. ويباركهم ويحليـهم بتيجان الخطيـبة. إن السعادة نصيـبهم. وكان الربي شمـعون وصـحبـه يمجدون تلك الـليلةَ التوراةَ. ترنيـما وترتيـلا. كل منهم يفسر التوراة تفسيرا لم يسبق إليه. ويكتشف فيها بعدا لم ينفذه غيره. لقد كان الربي شمعون وكل صحبه في غاية السعادة".

واسـتـخرج بعض المفسرين أنواع حـلية الخطيبة. مما جـاء ذكره في سفر أشيـاء. الإصحاح الثالث. فعدوها أربعـا و عشرين حلية.(2) جاء في كـتاب " الزهـر" أن هذه الحلي ليست إلا أسفـار العـهد الـقديم الأربعـة

1- يطلق عادة. في ثقـافتنا الإسلامية. اسم الـتوراة على كتاب العهـد القديم. من باب إطلاق الجزء على الكل. والواقع أن العـهـد القديم يـتألف من ثلاثـة أقسـام: التـوراة. وتسمى أيضـا الأخماس. والأنبيـاء. والمكتوبات. ويشير المؤلف إلى أن اليهود في هذه الليلة يقـرؤون منتخبات من الأقسام الثلاث.(المترجم).

2- ما جـاء في هذا السفر هو ذكر للـحلي التي كانت تستعـملها نساء بني إسـرائيل ذكرت عرضا. لما توعـد الرب بنات صهيون لصلفهن بحـرمانهن منها. ووجـد القبـاليون في هذه رمزا. أي أنها رمز للأربعة والعشرين سفرا التي يتكون منها العهد العتيق. (المترجم)

والعشرين. وكل من انكب في تلك الليلة على قراءة نصوص مختارة منتقاة من الأسفار الأربعة والعشرين المقدسة، ليفسرها تفسيرا، يجري في سياق أسرار عيد" شبعوت"،فإنه يساهم في كسوة الخطيبة، ويبرهن على أنه قيمن بمقاسمتها فرحتها.

" لكتوبه" : عقد الزواج.

ويجد مفهوم اتحاد الرب ببني إسرائيل بواسطة القِران، صداه في الروح اليهودية عامة، وعند القباليين على الخصوص. ويتضح هذا المفهوم في أسلوب جذاب وفي صورته الحقيقية، في طقس اليوم الثاني من ليلة الـ " تقون". وفي اليوم الأول من " شبعوت "، وذلك في قراءة "لكتوبه" أو عقد الزواج الرمزي، طبقا للأصول المذكورة في التشريع الربي.

ولقد تعرضنا من قبل لقصيدة شعرية صوفية، نموذجا للـ "كتوبة"، نظمها إسرائيل نجارا، احتفاء بهذا الزواج المجازي الرمزي: زواج "الختن " أو العريس الرب [تعالى الله] بـ" العذراء إسرائيل". وتعد هذه القصيدة التي ما زالت تغنى إلى اليوم في البيع السفردية، قبل قراءة الوصايا العشر، أمام تابوت التوراة المفتوح، " عقدا " نموذجيا، يحدد صيغ وشروط هذا القران.

ولم تكن البيعة المغربية تكتفي بقراءة هذا النص وحده، وإنما كانوا يتلون فيها في اليوم الثاني من هذا العيد،"كتوبوت" "عقود زواج" [رمزية] مشابهة، من نظم شعراء محليين، خصوصا قصيدة الربي رفائيل.م. الباز، وهي على وزن قصيدة إسرائيل نجارا.

وفي هذا " العقد " تذكر وتعدد وتحدد وتوثق واجبات الزوجين وما على كل منهما نحو الآخر بكل عناية. و خصت آداب الوعظ التي تعد

من مكونات ثقافة المتأدب اليهودي المغربي، كثيرا من القول في هذا الموضوع. وقال أحدهم (1) في ذلك ما يأتي :

" قام الرب منذ اللحظة التي اختار فيها بني إسرائيل مخطوبة، بواجب الأزواج، وذلك بأن أنزل عليهم التوراة تبعا لما ورد في " الهلخا " أو التشريع الربي. ويتمثل هذا الواجب في عشرة أشياء، جاء ذكر ثلاث منها في التوراة نفسها، وهي: أن يطعمهم ويكسوهم وأن يقترن بهم اقتران الزوجية. [تعالى الله عن ذلك] وتتمثل الواجبات الأخرى في شفائهم إذا مرضوا، وتحريرهم من يد مغتصبيهم إذا سبوا، ودفنهم إذا توفوا، وان يسكنهم السكن اللائق بهم، ويضمن عيشهم وعيش بناتهم إذا مات من زوجن له، وأن يوفر المهر للأبناء الذكور... ويتابع المؤلف، وفي واقع الحال، فإن التوراة سمت بني إسرائيل عشر مرات " كله " أو خطيبة، وسموا بنفس الاسم ست مرات في نشيد الأناشيد وأربع مرات في أسفار الأنبياء..."

ويدور هذا الطقس كله حول حدث ذي أهمية كبرى، وهو تجلي الإله على طور سيناء، الذي لا يدل عند القباليين، إلا على أمر واحد هو اتحاد الرب ببني إسرائيل (2).

1- انظر على الخصوص، كتاب أزرياح بن إفراييم بيكو، وهو حبر من إيطاليا (القرن 16-17)، المعنون بـ " بِنَهْ لَعِتيم" (إدراك أزمنة العبادة). وفيه مجموع من المواعظ، خاص " بشبعوت " عنوانه " عت دِديم " (زمان العشق) ولهذا العنوان معنى، ولا تخلو خزانة من خزائن المتأدبين بالمغرب من هذا الكتاب.

2- عبر عن بني إسرائيل في النص أعلاه بلفظ " إسرائيل " فقط وبصيغة المؤنث، وهو ما يناسب الخطيبة، وجاء النص أصلا هكذا: " قام الرب منذ اللحظة التي اختار فيها إسرائيل مخطوبة، بواجب الأزواج، وذلك بأن أنزل عليها التوراة .. ويتمثل هذا الواجب في عشرة أشياء، جاء ذكر ثلاث منها في التوراة نفسها، وهي: أن يطعمها ويكسوها ... وتتمثل الواجبات الأخرى في شفائها إذا مرضت وتحريرها من يد مغتصبيها إذا سبيت.... وفي واقع الحال، فإن التوراة سمت إسرائيل عشر مرات " كله " أو خطيبة...(المترجم)

ومع ذلك، فلم يخل طقس هذا الاحتفال من صبغة البداوة حتى تبقى ذكرى حنين " شبعوت " حية كما كانت عليه قديما، فكانوا يتلون في لفائف التوراة، نصوص تقديم البواكر، كما كانوا يتلون جماعيا سفر "روت"، وهو السفر الذي يعرض حياة قدماء العبريين أيام الحصاد، و الواقع أن الأنشودة الرعوية لــ " روت " المآبية، و" بوز " اللحمي، نسبة إلى بيت لحم، هي أيضا أنشودة غزلية تحكي تاريخ نسب الملك داود، الذي يعتقد التقليد أنه مات في ذلك اليوم وأن من نسله سيكون الملك المخلص في المقبل من الأزمان، وتذكر الخضرة في البيت وفي البيعة، كما تذكر الأعراف الخاصة بالأطعمة والتطهر وطقوس الماء أيضا، بالتاريخ البعيد والميتولوجية المحلية في نفس الآن.

الأصول الصوفية للغناء والموسيقى، بواعث باطنية في جلسات الذكر الليلية المسماة ليالي " باقاشوت " أو الابتهالات [الأمداح]

لقد اعتمدنا في بحثنا حول مساهمة يهود المغرب في الإشعاع والمحافظة على التقاليد الموسيقية الأندلسية، على تحليل الأنطولوجيات الشعرية المغربية نفسها بالدرجة الأولى، سواء المطبوع منها أو المخطوط، مما كانت تتغنى به على الخصوص، الجمعيات والمجموعات التي كانت تسمي نفسها " حراس الفجر"، طوال السهرات السبتية المسماة " البقشوت" أو الابتهالات [الأمداح]، كما اعتمدنا أيضا في هذا الباب مصادر أخرى لم تكن تعنى بالموضوع مباشرة.

وسنختم ما تبقى من هذا الفصل، بالحديث عن نوع من أنواع هذه السهرات أو " سمرا " (1)، التي هي عبارة عن حفل ليلي يتميز بطابعه

---

1 - الاسم من الفعل العربي " سمر ". وهو في الإسبانية Zambra وفي العبرية " شَمَرتْ "

الديني الذي تنشد فيه الابتهالات [الأمداح] والأغاني الصوفية المنتقاة من ديوان " شير يديدوت " أو أشعار العشق، مما كان متداولا عند طوائف المغرب في الصويرة ومراكش على الخصوص.

الموسيقى والغناء في الأدبيات " القبالية " أو الصوفية وفي مؤلفات التصوف الإسلامي

في مجال الموسيقى والغناء هذا بالذات، كما في غيره، وبواسطة تأويل التوراة تأويلا باطنيا، يجد المتصوف معنى لوجوده، والبواعث التي تحدد كل حركة من حركاته وسكنة من سكناته. كما يجد فيه السبيل المؤدية إلى معرفة الله والحلول فيه بل " ديبكوت ". أو الاتحاد مع المبدإ الأول. يقول إسحاق أراما، وهو من كتاب القرن السادس عشر الإسبان، "لقد أنزل الرب على بني إسرائيل أسرار فن الموسيقى في نفس الوقت الذي أنزل عليهم فيه التوراة". بينما يرى ابن سهولا، وهو الآخر من قباليي القرن الثالث عشر الإسبان، وكان معاصرا لموسى الليوني، أن معرفة أسرار الموسيقى والغناء تؤدي إلى معرفة أسرار التوراة (1). وتتضح لنا من هذه المقدمات، العلاقات الوطيدة التي بين الإبداع الموسيقي والمؤلفات العلمية الموسيقية الكبرى (2) وبين بعض مظاهر التصوف اليهودي الأساسية، والعديد من الإشارات إلى فن الموسيقى التي لا يمكن فصلها أبدا عن غيرها من الأفكار والرموز، في الأدبيات

---

1 - لقد اعتمدنا فيما يخص هذه المعلومات على :

Ammon Shiloah" The Symbolism of Music in the kabbalistic tradition " dans The World of Music, 1978) fasc 3 (p .56-65.

2 - انظر الفصل السباق " الحضور الأندلسي - المورسيكي في الذاكرة و الوعي من خلال التقاليد الشعرية و الموسيقية عند اليهود المغاربة" وكذلك كتابنا

Kabbale p .343-348

القبالية. ويصعب علينا أن نعرف إلى أي حد وبأي طريقة يؤثر سماع الموسيقى وممارستها، في المتصوف اليهودي، وهو يعاني الوُجد والشطحات، وفي المسالك التي تؤدي به إلى الاتحاد بالحضرة الإلهية. وعلى عكس الصوفي المسلم الذي يصف عادة وبكل دقة، كيف يبلغ عن طريق الموسيقى والرقص منتهى الوجد، فإن القابلي لا يبدي أي شيء في هذا الموضوع، ويحجم عن ذكر أي شيء مهما ندر عن تجربته الذاتية في هذا الباب. فتجربة الوُجْد عند القبالي لا تعني الذوبان في الذات الإلهية أو "فناء" الكائن، الذي هو عند الصوفي المسلم، حالة من الإمحاء بها يسلك المدارج نحو الغاية العظمى التي هي الاتحاد مع الكائن الموجود (1). الوجد عند القابلي تأمل عميق به تنكشف أسرار الاسم الأعظم للمتعبد من تلقائها، ويصل إليها عن طريق الـ " كونه " أو القصد أو التأمل العميق، متوسلا لذلك بالإنشاد والتسبيح وبالتروض بالعلوم الصوفية المتمثلة في معرفة سر الحرف، وهو العلم المعروف باسمه العبري بـ " صروف ها أوتيوت " (تركيب الحروف) وبغير ذلك. ومعلوم أن النص الملفوظ، سواء في الصلاة أو ذاك الذي يصحب الألحان الموسيقية والإنشاد، هو اللغة المثلى وهو الذي يكون باللغة العبرية على وجه الخصوص.

---

1 - يسعى الصوفي إلى تحقيق وجوده في الله بالبقاء، والطقس الذي يؤدي إلى هذا المقام كثير التعقيد جدا، فهو يتكون من كثير من أعمال التروض الروحي والفعلي التي على المريدين أن يلتزموا بها ليبلغوا مقام الوجد. وعلى الموسيقى والرقص تدور الدائرة في هذا الفعل، ولتلاوة القرآن حظها في هذا الحلقات التي يتخللها الذكر والأوراد. ويتضمن الجزء الثاني من هذا الحفل، الغناء والموسيقى المصحوبة بالآلات، وهو ما يسمى " بالسماع ". وإن كان" السماع " عادة يقتصر على الإنشاد في المساجد و الزوايا دون استعمال آلة موسيقية، تميزا له عن الغناء المرتبط بالموسيقى،بما لا علاقة له بالطقوس الدينية. فعلى هذا المستوى، مع كثير من التواضع، ينعقد حفل وطقوس سهرات " البقشوت " أو الأمداح.

نموذج لما يتلى في ليلة السماع أو حلقة" البقشوت "

أكثر المنتخبات الشعرية شعبية في ألحان " اصْنَـــايْع ". هـي منتخبات " البيوطيم " أو الأشعار الدينية التي انتقى قصائدها مغنيان كبيران صويريان [من مدينة الصويرة]. هما داود إفلاح وداود القايم، بمشاركة ابن بلدهما حاييم أفرياط . ويتعلق الأمر بالأنطولوجية المسماة "شير يديدوت" أو أشعار العشق أو المحبة (1).

تجري أحداث الحلقات الليلية. كما هو مسطر في ديوان " شير يديدوت " أو أشعار العشق (2). تبعا لطقوس ثابتة ولمراسيم مضبوطة بما فيه الكفاية. ويستهل برنامج الليلة بطقس خاص ذي صبغة صوفية

1- أغلب الظن أن العنوان اقتبس من سفر المزامير الإصحاح الخامس والأربعين. آية 1. التي ورد بها " [لرأس المنشدين على السوسن. لبني قورح] لفاهم أشعار العشق (مسكيل شير يديدوت) ". غير أننا نفضل كلمة "محبة" بدل "عشق" إذ يظهر أن المحبة هي التي كانت تجمع بين جامعي هذه الأشعار. خصوصا اثنين منهما المسميين "داود" انظر ...Poésie juive) p. 300-305) . [تجدر الإشارة إلى أن صيغة " داود " هي من نفس الجذر الذي اشتق منه لفظ العشق والمحبة " يديدوت " (المترجم)]

و" القصائد الشعرية الواردة هنا " كما جاء في إجازة نشر هذا المجموع. سبق أن نشرت بعنوان: " روني وسمحي " (رنِّي وابتهجي). المقتبس من الآية 14 في الإصحاح 2 من سفر زكرياء. وهي أول نشرة نشرت بفيينا (النمسا) سنة 1890 بمساهمة يهودي صويري. ومن المجموعات الشعرية الأخرى التي كانت تنشدها الطوائف المغربية المختلفة نجد:" هتيبو نكن " (لنتهيأ للغناء) و" يسمح يسرائيل " (ليبتهج بنو إسرائيل). وتنشد في مكناس. و" يشير موشه " (ليترنم موسى) و" يشير يسرائيل " (ليترنم بنو إسرائيل) وكانت تنشد في فاس. و"سفت رننوت" (لسان الحمد) وكانت تنشد في صفرو. وظلت هذه المجاميع مخطوطة إلى وقت قريب. إذ لم تنشر إلا بعد سنة 1920. حيث عرفت انتشارا واسعا بفضل ظهور المطبعة في المغرب.

2 - من ص 1 إلى 21 ونحيل هنا على طبعة القدس(1961-1962) ونعتمد الطبعات الأخرى في دراستنا النقدية للنص.

هو "نيـقون ليـه". ويرتكـز مـوضـوعه بالخـصـوص على وعـد الخـلاص (1). ويتضـمـن تلاوة المزاميـر الآتية عـلى الـتوالي : المزمـور الثـانـي والأربعين إلـى الرابع والأربعين، الواحـد والعـشرين، السـابع والسـتين، الحـادي عـشـر والمائة، الواحـد والخمسين، السـادس والعـشـرين ومائة. ثم تتلـى قـصـيدة ترتل عـادة فـي طقـس ألــ " مــوصــاف ". أو الخـتـم الذي تخـتـتـم بـه أعـيـاد الزيارة الثـلاثة(2). فنص من المشنا (تميـد I، 1 من إلـى 4) و" كـاديش رينان". أو تمجيد لأحـبارنا. بعـد ذلك ترتل قـصيدة طويلة بعـــــنوان " حـبـيبي ذهب إلى خميلتـه ". وتتألف هذا القـصيـدة من سبعـة وعشــرين مقطعا، كل مقطع من أربــعة أبيات، مـرتبة ترتيـبا أبجديا .ويبـدأ المقطعـان الأخـيـران بحروف هــي مكـونات اسـم الشـاعـر، وهـو حاييم كـوهـن، من أصل حلبـي، وكـان تلـميذا لحـاييم فيـتال، الوريث الروحــي لإسحـاق لوريـا رأس المدرسـة القبالية فـي صفـد (3). والقـصيـدة علـى شـكـل حوار بين الرب وطائفـة بنـي إسـرائيل مـن المتصـوفة. وتمثلهـا فـي هـذا الحـوار ال" شـخينة " وتشـكـو هـذه من النفـي فيـعـدهـا مـخـاطبهـا بالخلاص. وعـن كـل مـقطـع مـلـيء بالـدموع والشـكـوى يجـيبـه الـذي يليه ببـشـرى مجيء المخـلص، وقرب عـودة الـنصر والعـهـد الجديـد الـذي يطـفـح بالسـعـادة والأنوار .

---

1 - انظر كتابنا Poésie juive, p. 27-28 et n° 55
وانظر كـذلك
G .Scholem, On the Kabbalh and its Symbolism, Shocken Books, New-York, 1974, p,139 et suiv 150

2 - "إلهنا وإلــه آبائنا، ملك الرحـمة، ارحـمنا" [أعياد الزيـارات الثلاثة، كـمـا تقدم، هـي عـيـد الفـصح وعيـد الأسابيع وعيد الخيام] (المترجم)

3 - انظر كتاب Davidson الآنف الذكر ج II، ص 104 (145). ونملك تسـجيلا صـوتيا رائعا لهـذه القصيـدة من أداء داود بوزاكلو وتلميذين له على ميزان رمل المايـة.

وبعد ترديد نشيد " يديد نفش " أو حبيب الروح [سبحانه]. وهي قصيدة لإلي عزر أزكُري، تلميذ آخر لإسحاق لوريا. وبعد تلاوة نص طقوسي آخر (1) ينتقل الساهرون إلى "البقشاه الطريق" أو الابتهال النمـــوذج الذي تجري على منواله تراتيل الليلة كلها (2). وهي قطعة شعرية عنوانها " حتى الفجر أتوسل إليك... ". من نظم سلمون بن جبرول (3). وتتلوها مباشرة بعض المنظومات مثل قصيدة " كي لو نَئِّه ولو ينِّه " (إليه نسجد وهو أولى) (4) وقصيدة " أدِّير لو ينوم بروخ لو يشن " (قوي لا ينام، مبارك لا يغفو) (5). وبعد ذلك ترتل تأليفة من نصوص الزهر ونشيد الأناشيد (6).تتخللها ابتهالات صوفية بها يفتتح ويختتم النص عادة (7).

وبعد إنشاد كل ما تقدم، يبدأ البرنامج الموسيقي الحقيقي بسلسلة من تراتيل " الباقاشوت " تستغرق ليلة السبوت إلى أن يلوح الفجر. ويغنى فيها، عديد من القصائد المجدة للفجر(8) . تغنى عل نغمة " الصبوحي."

1- " اغفر لنا يا ربنا فأنت المأمول " انظر son David المذكور آنفا I ص 40 (822).

2 - وهي الترتيلة النموذج " الطريق " التي يجب أن تكون ألحان " صنايع " حلقة الليلة على منوالها

3- J .Schirmann, Anthologie I, p .738

4- Davidson op.cit., II, p .472) 215(

5- Ibid., I, p .53) 1110(

6- إنها النصوص التي تكون ما يسمى بـ " افتتاحيات إليهو النبي " ولا يخلو منها طقس من الطقوس السفردية.

7 -Zafrani, Poésie ... p 18 et n.9,p.198

8 - أنظر Poésie... p.283, n. 6. وتكون عادة مرتولات حلقة "شبت هگدول" أو السبت العظيمة التي تسبق عيد الفصح اليهودي، وهي التي تنهي الدورة الموسيقية، على الخصوص، غنية ومتنوعة. وينتهي برنامج الليلة بدعاء الترحم على أرواح المنشدين الذين توفوا في تلك السنة، وهذا نوع من الاعتراف بجميل فعلهم. قارن "لسان الحمد" ص46 47.

خاتمة

طائفة ممزقة

الذاكرة الجماعية لليهودية الأندلسية المغربية

استهلال

حافظت المجتمعات اليهودية الإسلامية، إلى غاية القرن التاسع عشر بالنسبة للجزائر وتونس، وإلى حدود القرن العشرين بالنسبة للمغرب، على استمرارية حضارية وأسلوب في العيش والثقافة، مما عرفه أجدادهم، منذ نهاية القرن الخامس عشر بعد أفول شمس العصر الذهبي الأندلسي وانطواء البلد على نفسه. و مرت أربعة قرون دون أن تحمل أي تغيير يذكر بالنسبة للسكان أو بالنسبة للمشهد الثقافي أو إلى المحيط الاجتماعي والاقتصادي، وكذا إلى الحياة اليومية. إنها مشاهد ثابتة ووجوه متشابهة على الدوام. وظل الشعور بالركود المطلق سائدا، إلى عقود متأخرة في المغرب، أكثر من أي بلد إسلامي آخر. وربما كان السبب في ذلك يعود إلى الاتجاه التقليدي الإسلامي الذي ترسخ بميل طبيعي نحو المحافظة تميز به الأمازيغ. ويمكننا في غالب الأحيان، أن نكتفي بالنظر إلى ما هو حولنا، لنعرف ما كانت عليه حالة البلد طيلة قرون سابقة. وقد تكون جولة ساعة على أرض الواقع، أفضل ألف مرة من قضاء يوم كامل للتنقيب في بطون الكتب. وإذا قصرنا النظر على المجتمع اليهودي، فإننا نلحظ أيضا أنه عرف تقريبا نفس المصير. فقد أعقب ازدهار ورخاء العصر الذهبي الأندلسي المغربي، ضعف عهود ما بعد ذلك، خصوصا تلك القريبة منا، والتي والاها نفوذ الغرب واكتساح حضارته وثقافته.

إن الاكتساح الغربي، وظهور الحركات الوطنية، ومحاربة الاستعمار والمطالبة بالاستقلال، وكذلك إعلان الدولة اليهودية في فلسطين، وما تلا ذلك من حروب عربية - إسرائيلية، والتوترات المستمرة في هذه المنطقة المضطربة من الشرق الأوسط. كل هذا أدى إلى تمزق الطوائف اليهودية في العالم العربي، وهي طوائف عمر البعض منها أكثر من ألفي سنة، في مواطنها هذه. وكان أكثر من ثمان مائة ألف يهودي يعيشون في العالم العربي إلى حدود 1940-1950. فما الباقي اليوم من تلك الطوائف اليهودية المزدهرة، في العراق ومصر وسوريا ولبنان و المغرب على كليته ؟ لقد طرأ توزع جغرافي جديد على الساكنة اليهودية منذ أن أصبح مركز الثقل اليهودي يجد له مكانه في مناطق جذب أخرى، هي العالم الجديد وأوربا من جهة، وإسرائيل من جهة ثانية.

هذه الظاهرة التي نلاحظها هنا هي عامة في نظرنا، ولكنا نفضل أن نركز حديثنا عن الغرب الإسلامي، والمغرب الذي نعرفه حق المعرفة.

لاشك أن كلا من المجتمعين اليهودي والإسلامي، كان يعيش عيشة تختلف عن الآخر فيما يخص الخصوصيات، فكل منهما غيور على هويته، ومتشبث بإيمانه ومعتقداته. غير أنا نلحظ خلال المسار التاريخي الذي رسم الحياة اليهودية في هذا البلد، فضاءات من التقارب حيث يلتقي المجتمعان و يتعايشان، في ظل من الطمأنينة والسلام . وقد تمثل بين المجموعتين تناغم حقيقي في كل مواطن التلاقي المفضلة، وفي ظل الحميمية اللغوية وتشابه البنى الذهنية. ويمكن ملاحظة ذلك كله طي صفحات هذا الكتاب. وتمثل هذا التناغم وبرز إلى الوجود على مستوى الحياة اليومية، والانشغالات الاقتصادية، وفي أفضل لحظات الوجود، وفي المتخيل الاجتماعي والثقافة الشعبية، إذ هذه لا تعرف الحدود الدينية، ولا

المواجهات الإيديولوجية " الوطنية "، ولا الشعور الديني. ويبدو أن أوقات العبادة نفسها كانت مطبوعة بقدر لا يستهان به من التوافقية. كما تشهد على ذلك بعض العادات وبعض التقاليد والممارسات التي يقوم بها الجميع، يهودا ومسلمين، في الاحتفالات الدينية الكبرى و الأعياد العائلية.

إننا هنا، كما هو الشأن في مجالات أخرى، أمام مجتمع يهودي ذي قطبين، هوية اجتماعية ثقافية أصيلة، وشخصية يهودية - مغربية متعددة الجوانب عند من يلحظ ازدواجية وفائها: وفاء لليهودية في شموليتها، حيث تحتفظ بعلاقات متينة وخلاقة، وبالأخص، في مجال الفكر وتياراته الكبرى، وفي " الإنسانيات " اليهودية عموما. ووفاء للمحيط المحلي وللتاريخ والجغرافيا، التي هي جزء لا يتجزأ من المشهد الاجتماعي والثقافي واللغوي لهذا الغرب الإسلامي، وللعالم الأندلسي - المغربي القديم. إنه وفاء للديني والدنيوي . وفاء تجاه الدول المالكة التي تعاقبت على حكم المغرب، وخصوصا الدولة العلوية.

و نتعرض باختصار شديد إلى ما اصطلح على تسميته بـ"مرحلة التحولات" والتي تصادف هنا، مجيء الحماية الفرنسية (1912-1956) وتوغل الغرب و حضارته في مجتمع لا تزال تسوده علائم القرون الوسطى. والدارس الذي يتحدث عن التحرر والاستئصال، في هذه الفترة، يضرب أخماس في أسداس، فيتحدث عن علاقة اليهودي المغربي بالمجتمع الأوربي، وعن نمط عيشه و اقتصاده وثقافته. فيستنتج عن غير روية وبإطلاق الحديث على عواهنه، أن هذا ليس إلا نتيجة تطلع يريد منه اليهودي تقليد "الأوروبي في نمط عيشه"، وتبني المظاهر الخارجية التي تميز " المعمر ". كما يستنتج أن هذا الفعل ليس إلا تغريبا سطحيا ومبتسرا وانفصاما عن الماضي وتمزقا وضياعا للهوية. وقد تكون الطائفةُ المغربية، في وضع لا يحسد عليه، فهي مدعوة بما هي عليه، إلى السير

وراء تيارات متباينة الطبيعة ومختلفة الاتجاهات. وهي موزعة بين وفائين لا يمكن الجمع بينهما.

وكل هذا في حقيقة الأمر لم يكن يمس إلا شريحة صغيرة جدا في المجتمع اليهودي المغربي. تلك التي تخص بعض العائلات التي كانت تتمتع دوما بالامتيازات في المدن الكبرى. والتي استطاع أبناؤها أن ينالوا تعليما عاليا. وأن يعيشوا أوضاعا مريحة في المجال الاقتصادي والمهن الحرة. أما الجمهور العريض فلم تفعل فيه هذه القضايا التي حملها معه التغريب ونشر الثقافة. فعلَها لدى الأقلية من المثقفين وأصحاب المال. ولقد ظل هذا الجمهور متجاهلا للجدل الذي كان يملأ أعمدة الصحافة اليهودية المغربية. أو لما كان ينشر في منشورات أخرى لم تكن دائما سليمة الطوية. وبقي في معظمه بعيدا عن إغراءات الغرب. متشبثا بقيمه اليهودية التقليدية. وفيا لطموحاته. ليجد نفسه. عندما يحين الحين. على استعداد ليهاجر في أعداد غفيرة. إلى إسرائيل. مستجيبا في ذلك لدفين روحي وديني. يحركه فيه عهد الخلاص الذي بُشِّر به مدى الأزمان.

ولم تستطع العديد من المظاهر الكاذبة التي يعتبرها المشاهد غير المجرب الحقيقةَ نفسَها. أن تبعد اليهودي المغربي عن حياته الخاصة التي لا تعوزها لا البهجة المطمئنة ولا التفاؤل. بل لا ينقصها الإيمان الروحي الذي يواسيه في مرارة الوجود والذي يجعله يردد مع صاحب المزامير : "إذ هو تعزيتي في بؤسي [الوعد بالخلاص]"(1). أما فيما يخص استعداد اليهودي المغربي للرحلة إلى موطن [مظان] أجداده. فإن هناك وثائق حقيقية وكتابات محلية زاخرة. كلها تؤكد أن اليهودية المغربية في مجملها. كانت. وهي تنتظر عهد المخلص المنتظر. أكثر استعدادا

1- الآية 50 من المزمور المائة والتاسع عشر

للتأثر بالإيديولوجية الصهيونية، من يهودية أوربا الغربية أو يهودية أوربا الوسطى أو الشرقية.

وبعد قيام دولة إسرائيل سنة 1948 واستقلال المغرب سنة 1956، بدأ تشتت شمل الطائفة، وهاجرت الأغلبية الساحقة من أفرادها أرض المغرب. ومنذ ذاك حكم بالاختفاء نهائيا، على مجتمع ظل مستقرا في البلد منذ ما يقرب من ألفي سنة، عمر فيها المدن الكبرى الشهيرة والمناطق الفلاحية والسهول الساحلية و تخوم الصحراء. ولم يبق من بين 250000 نسمة من السكان اليهود الذين كانوا يسكنون الملاح ويساكنون أيضا المسلمين في أحياء بعض المدن، والأوربيين في الأحياء الجديدة بالمدن الكبيرة،بين سنوات 1950 و1960 ، إلا أقل من 10000 نسمة، تمركزت غالبيتهم في العاصمة الاقتصادية، الدار البيضاء.

واختارت بعض المجموعات فرنسا وكندا وأمريكا اللاتينية، موطنا هاجرت إليه. واتجهت الأغلبية الساحقة عن طيب خاطر إلى "أرض الميعاد "(1). فكونت مع جماعات أخرى من اليهود الشرقيين، مجتمعا منفصلا متميزا عن المجموعة الأشكنازية التي جاءت من أوربا الوسطى أو الشرقية. إنه مجتمع " لبلوريتارين " و" سود " "إسرائيل الدرجة الثانية" مشكلين بذلك، بشكل من الأشكال، الطرف الثاني لـ" بيض " المؤسسة المسيطرة التي ظلت منها تُستقطب الطبقةُ القائدة والساسة و نخب الثروة والفكر منذ الانتداب البريطاني .

كيف تم هذا الاندثار لليهودية المغربية ؟ وما هي البواعث الرئيسية لرحيل هؤلاء فرديا أو جماعيا ؟ وما الذي تسبب في موجات التهجير الكبرى هذه ؟.

1- طيب خاطر هنا نسبية، وإلا فالمهجرون في الستينات لم يكونوا يعرفون إطلاقا أين يتجهون، وقد أشار المؤلف نفسه إلى هذا في الفقرة الآتية. (المترجم)

تزودنا كتابات الأحبار المغاربة، وكذا الأحداث القريبة منا، بكثير من التفاصيل الهامة عن " الحركية الهائلة " التي عرفها يهود المغرب، وعن بواعثها الداعية إليها. وهكذا نعلم أن اليهود المغاربة كانوا دوما في الماضي، يرحلون عن البلد، أفرادا وجماعات، وجهتهم في ذلك المشرق على الخصوص. والهجرات الداخلية نفسها، لم تكن بسبب الدواعي الاجتماعية والاقتصادية التي تحكم عادة قوانينها في تنقلات السكان في المجتمعات المتطورة، أو في المجتمعات التي هي في طريق النمو.

ولم ينقطع أبدا، خلال كل القرون، تيار الهجرة في اتجاه فلسطين، تُرَفِّدُه في ذلك وفود الطلاب الوافدين على" اليشفوت " أو المدارس الدينية العليا، أو وفود الحجاج الذين كانوا يذهبون لقضاء بقية عمرهم في الأرض المقدسة. وفي القرن التاسع عشر، كان البحث عن الثروة والأمن والتحرر الاجتماعي والمساواة في الحقوق، يقود المئات من اليهود المغاربة، إلى أن يهاجروا وأن يدرجوا على خرائط ترحالهم، التي كانت وجهتها التقليدية هي القدس وصفد وطبريا، أماكنَ أكثر بعدا مثل الولايات المتحدة الأمريكية والأرجنتين والبرازيل أو البيرو. ولم يعد أغلب هؤلاء المهاجرين بحاجة ليذهبوا بعيدا، إذ أصبحوا يستقرون في أغلب الأحيان، في البلد المجاور كالجزائر التي أصبحت مستعمرة فرنسية سنة 1830، أو جبل طارق، المركز الرئيسي للتبادل التجاري بين إنجلترا و المغرب. ولقد سبق أن تتبعنا أعلاه، الرحلتين الإفريقية والأوروبية اللتين قام بهما حبران من الجنوب المغربي، وحدثنا عن مغامراتهما وتجوالهما.

وأصبحت الهجرة شطر الأرض المقدسة، خلال العقود الخمسة الأولى من القرن العشرين، وهي المرحلة التي فُرضت فيها الحماية الفرنسية على المغرب والانتداب البريطاني على فلسطين، في حكم النادر. ومع ذلك، منذ بداية القرن، ظهرت بعض مجموعات صهيونية في

طنجة وتطوان والصويرة وفاس ومراكش. ثم ظهرت بعد ذلك بزمن في الدار البيضاء. وبعد قيام دولة إسرائيل سنة 1948. أصبح لمختلف الحركات "الكيبوتزية" (1) والأحزاب السياسية الإسرائيلية من يمثلها في المغرب. وكان هؤلاء يحملون معهم تنافسهم وصراعهم من أجل النفوذ. وكانت الدار البيضاء مقر"القَديم" أو مكتب التهجير. وهو المكتب الذي كان ينظم الهجرة رسميا. وكان معظم المُعَدِّين للهجرة من جماهير المدن الفقيرة. ويلاحظ أن المسؤولين عن التهجير كانوا يفضلون الشباب "عَلَيَتْ هَنُّعَرْ" (2) وسكان الجنوب المغربي وجبال الأطلس. لأنهم كانوا يرون في هؤلاء القدرة على بناء المستعمرات الزراعية. وهو ما لم يكن يقدر عليه سكان المدن.

وكان توقيت هجرة طوائف الأطلس والجنوب المغربي. ما بين 1952 و1956 وفي السنوات التالية. يستجيب لأهداف محددة. ويتم حسب طرق ممنهجة. ولم يكن سكان هذه المناطق البعيدة عن المراكز العمرانية الكبرى. يعدون أنفسهم للسفر. ولم يتهافتوا لتسجيل أنفسهم ضمن قاوئم الراغبين في الهجرة. في مكاتب الوكالة اليهودية. كما يُعْتقد وكما يَزْعمون. بل كانوا ينتظرون في ملاحهم المنعزل. إلى أن تأتي الوكالة إليهم لأخذهم ونقلهم جماعات جماعات. إلى ما وراء الحدود المغربية. بعد مرور قصير بالدار البيضاء أو مراكش. ولم تكن تستغرق

1- " الكيبوتز " يعني المستعمرة الفلاحية التعاونية. وكان نظامها إذ ذاك شبه عسكري. وهو نظام استوردوه من أوربا الشيوعية. وكان فيه العمل والإنتاج وأماكن النوم والعيش أمورا مشتركة. وكان منظرو الصهيونية في حاجة إلى يد عاملة وعسكرية في نفس الوقت. لذلك تهافتوا على شباب المغرب اليهودي تهافتا.(المترجم)

2- " عليت هنعر " تعني حرفيا " هجرة الشباب " وكانت هناك مؤسسات يهودية دولية تشرف على برنامج تهجير هؤلاء. بل تعد له بمختلف الوسائل التربوية وغير التربوية. تحقيقا للحلم الصهيوني.(المترجم)

العمـلية التي كـانت متـقنة التدبيـر، أكثـر من ليلة أو ليلتين فـي بعض الحـالات المعـينة. " وكنـت صـدفـة شـاهدا على ذهاب مـبـاغث لسكان أمـزميـز فـي جـبـال الأطلس الكبيـر ". ونقل هؤلاء السكان الذين تنمـاز يهـوديتـهم المغـربيـة بطابع خـاص، والذيـن ظلوا علـى هامش الحـضـارة الغربيـة، علـى الرغم من كل الجهـودات التعليمـية التي بذلتـها الرابطة الإسـرائـيلية العـالمية فـي هذه المناطق، نقـلا دون تمهيـد إلـى أرض الميـعاد. وربما كـان من المفـيد أن نتابعـهم عن كثب، فـي بلد اسـتقبـالهم، لنعرف ردود فـعـلهم تجاه أوضـاع حـياتهم الجـديدة، لو سـمح لنا الوقت والمكـان، لنتحدث عن مغامرتهم المثيرة هذه.

فيشـي Vichy واليهـود، الوضع القـانوني لليهـود.

هنا كما فـي الدولة المستعـمـرة، كان القـانون الخاص باليهـود، سـواء فـي صـيغـتـه الأولـى المؤرخـة بـ 3 أكتـوبر 1940 أو فـي صـيغتـه الثانـية المؤرخـة بــ 2 يونيـو 1941، يشـكـل حـجـر الزاوية فـي القـوانين المعـادية لليـهود. وكـان المفـروض فيـه أن يطبق علـى اليـهود الفـرنسيين واليـهود الأجـانب المقيـمين وكـذا عـلى اليهـود المغاربة الـبلديين، عن طريق بعض الإجـراءات التـي تتـوسل بالمعتقـد الـديني وحـده دون اعتمـاد درجة النسب اليـهودي. فـاليهـودي المغـربي الذي أسلـم (وهـذا الأمر ينطبق أيضـا علـى اليهود التونسيين) لا يعتبـر يهـوديا فـي نظر القـانون، وإن كـان نسبه يرجع إلـى أربعـة أجـداد مـن " عرق " يهـودي. فـي حين يسـري القـانون علـى اليهـودي ولو لم يكن لـه إلا جـد واحـد من عـرق اليـهـود (1). إن قـانون الحـمـاية

1- نشـرت الظهـائر الشـريفـة المتعلـقة بالإطار الـقانوني لـليهـود في المغـرب، فـي الجـريدة الرسمية المغـربية بتاريخ 9 .11 .1940 وكذلك 8 .8 .1941. ونسجل بهذا الخصوص ملاحظتين مهمتين، الأولى تتـعلق بإجراءات نشر هذه الظهائر: إذ كان المقيم العام هو صاحب السلطة الفعلية و أو لحقيقية، ومصالحه الإدارية هي التي كانت تحرر نصوص هذه الظهائر بالفرنسية.

الفرنسية، كان يسعى للنيل من اليهود بواسطة مكامن الضعف الموجودة في القانون العام والخاص. كما كان يسعى إلى خدمة الآرية سواء عن طريق التعليم أو غيره.

إضافة إلى القانون وآلياته التنفيذية العادية، كان في خدمة النظام الجديد وخدمة دعايته ونشاطه غير الشرعي، فيلق المحاربين الأجنبي الفرنسي، المكلف بنشر مبادئ النظام الجديد. كما كان في خدمته مصلحة النظام الفيلقي (S.O.L) الذي يختار أفرادها من الفيلق، وهي كتيبة النخبة التي يطلق عليها " الثوار "، وتماثل S.S النازية. والقسم الذي كانت تؤديه هذه عند بداية مهامها هو : "أقسم بأن أحارب الديموقراطية، وأحارب الانفصال الدوكولي، وكذا الشر اليهودي". وكان هذا الفيلق يكلف بإنجاز عمليات خاصة غاية في الدناءة والشر...غير أن الأسوأ لم يكن له الوقت الكافي ليحدث. ففي الدار البيضاء كانت مصلحة النظام الفيلقي(S.O.L) وكذلك الحزب الشعبي الفرنسي يهيئان بشكل مفضوح، اعتداء على " الملاحات " أو الأحياء اليهودية، لتجري وقائعه يوم 15 نونبر 1942. فعلقت الملصقات المعادية لليهود على جميع جدران المدن الكبرى. وفي الثامن من نونبر، نشرت أهم الصحف الفرنسية المغربية، وهي جريدة "La vigie Marocaine"، أول مقال من سلسلة مقالات كانت تعتزم الجريدة نشرها، وكله عداء للسامية، تريد به تهيئ الرأي العام للحدث الكارثة. وحدثت المعجزة، إذ نزل الحلفاء في الشمال الإفريقي، في الثامن من نفس الشهر، فدخل

فتكتسب هذه قوة القانون بتوقيع المقيم العام. بعد ذلك تترجم النصوص إلى العربية وترسل للقصر الملكي ليوقعها الملك ويضع عليها أختامه. أما الملاحظة الثانية، فتتعلق بانحسار تعميم تطبيق هذه القوانين. فاليهود الذين مستهم إجراءاتها كانوا هم الذين تبنوا نمط العيش و التفكير الفرنسيين، أي قلة قليلة..

الأمريكيون إلى المدينة في يوم 11 نونبر. بعد مواجهات عنيفة مع الجيش الذي كان يقوده الجنرال Noguès . دامت ثلاثة أيام. فأجهض الاعتداء على اليهود في المهد. اللهم إلا بعض المناوشات الصغيرة ذات الطابع المحلي المحدود. التي كان ضحيتها اليهود بالدرجة الأولى. ولم يكن وراءها إلا بعض المصالح الإدارية الفرنسية التي لم ترضخ بعد للأمر الواقع. أما العمليات العنيفة التي تضرب اليهود في الصميم ، فقد توقفت منذ ئذ. مما خيب آمال الذين خططوا لهذا المصير المهول. وخيب آمال مُسَخِّريهم خيبة ما بعدها من خيبة.

وإلى حدود 1945 عانى اليهود المغاربة من حيف نظام التوزيع الذي اتُّخذ بناء على معايير عرقية. وهو مصير شاركهم فيه المسلمون. وتمثل في نظام تقنين توزيع المواد الغذائية وبعض المواد الضرورية الأخرى كالنسيج مثلا. ولم يسر هذا الإجراء على الساكنة من أصول أوروبية. يهودية وغير يهودية.

اللاجئون اليهود في المغرب

بعد هدنة يوليوز 1940 لجأت إلى المغرب مجموعة كبيرة من اللاجئين اليهود الذين كانوا يعيشون في بلجيكا وفرنسا. وكذا أولئك الذين ينحدرون من أصول ألمانية أو من أروبا الوسطى وأوروبا الشرقية. وجاءوا إلى المغرب إبحارا من مرسليا أو عن طريق إسبانيا. وفي الدار البيضاء وطنجة. تكفلت بعض اللجن المحلية ومنظمات الإغاثة الدولية مثل HIAS, AJDC, HICEM . بالذين يعبرون المغرب ممن كانوا يتوفرون على وثائق قانونية. في انتظار مغادرتهم المغرب نحو أمريكا أو غيرها من مناطق أخرى بعيدة. كأستراليا ومستعمرات المحيط الهندي الإنجليزية. وحُرر الآخرون من الحجز بفضل التضامن الفعال. فخصت لهم دور في

طنجة. وتكفلت طوائف فاس ومراكش وآسفي والجديدة بمجموعات أخرى غير تلك. كما ساهم في هذه العملية خواص كان لمساعدتهم الأثر الكبير. وتجاوز عدد اللاجئين المحتجزين الألف. فوضعوا في مخيمات بالمغرب الشرقي وتخوم الصحراء. حيث كانت ظروف الحياة قاسية جدا. وتلقى هؤلاء أيضا المساعدة والغوث إلى أن أزيلت مخيمات الحجز هاته التي كانت تشبه الجحيم.

سلطان المغرب محمد بن يوسف، المسلمون المغاربة واليهود.

لم تستطع الأوساط المتطرفة من المسلمين الوطنيين الذين استهوتهم سياسة هتلر حول العرب. والذين كانوا ضحية تناقضاتهم. أن تؤثر تأثيرا كبيرا في السواد الأعظم من إخوانهم المسلمين الذي بان أن عطفهم نحو ألمانيا لم يكن يعدو مجرد العطف. ولم يعرف المغرب (وكذلك الجزائر أو تونس) زعيما كأمين الحسيني. الذي جعلته الظروف السياسية الخاصة بفلسطين. يتخذ من نفس تلك العواطف. وسيلة بها يناهض اليهود والوجود الاستعماري في نفس الآن.(1) ولم تحدث أبدا. طوال هذه الفترة السوداء من تطبيق قانون فيشي. أي من شهر يوليوز 1940 إلى 8 نونبر 1942. وهو التاريخ الذي نزل فيه الحلفاء إلى الشمال

1- يجب أن ينظر إلى موقف الأحزاب الوطنية أو موقف مفتي القدس. أمين الحسيني. في تلك الفترة. في إطار التطلعات الوطنية التي تسعى إلى التحرر من ربقة الاستعمار. سواء في المغرب [إذا فسر كما يرى المؤلف] أو في فلسطين أو في غيرهما من البلدان المحتلة. وقد ارتبطت قضية التحرير الوطني والقضية الفلسطينية في أذهان كل تلك الشعوب العربية والإسلامية ارتباطا لا يمكن فصله. ولم تكن السياسة الألمانية تحوز أي عطف لدى هؤلاء جميعا. إنما كانت تمثل عندهم صراعا أو حربا. اكتوى بها المحتل المباشر. وهم يكرهونه. وكفى.ألم يشارك المغاربة. وهم أبناء الوطنيين والوطنيين أنفسهم. في حرب ضد الألمان أظهروا فيها بطولات خارقة لم يكتب عنها حتى الان. أبرزت كرههم للنازية في كل مكوناتها. (المترجم).

الإفريقي، أي انتفاضة معلنة ضد السلطات الفرنسية من جهة، أو أي عمليات عنيفة أو ابتزازية قام بها المسلمون ضد مواطنيهم اليهود، من جهة أخرى. وذلك رغم التحريض المفتوح والمعلن الذي كان من ورائه الحزب الشعبي الفرنسي وبعض الحركات السياسية الفاشية أو المجموعات المحلية المعادية لليهود، سواء الرسمية منها أو شبه الرسمية.

أما الموقف الشخصي لسلطان المغرب آنذاك، محمد بن يوسف، فيستحق منا وقفة متأنية.

لقد أتيحت لنا الفرصة في نونبر/ دجنبر من سنة 1985، فعرضنا أمام أكاديمية المملكة المغربية، وثيقة من وثائق أرشيف وزارة الشؤون الخارجية بـ Quai d'Orsay بباريز. وقد أكدت لنا هذه الوثيقة ما كنا نعرفه من مصادر أخرى، وما عاشه كثير من يهود المغرب وشهدوا عليه. يتعلق الأمر ببرقية مؤرخ في 24 ماي 1941 وجهها René Touraine إلى حكومة فيشي بعنوان " الانشقاق " في موضوع موقف سلطان المغرب من رعاياه اليهود المغاربة.(1)

وهناك وثيقة أخرى من وثائق الأرشيف الوطني بباريز، وتوجد ضمن الـ "Papiers Maurice Vanikoff" (72 AJ 524 Maroc")، وتتعرض لإحصاء الممتلكات اليهودية في المغرب سنة 1941-1942، وكذا للتصريحات التي صرح بها جلالة الملك، لممثلي الطوائف اليهودية، في شأن هذه القضية المؤلمة (ملحق II).

1 -Archives des Relations Extérieures, Paris, Quai d'Orsay, Série Guerre1939/45,Vichy-Maroc. Dossier 18, Juifs (Généralités), liasse 665, Série corps diplomatique (Annexe I)

الملحق الأول - انشقاق
24 ماي 1941 برقية A.F.I

تغير موقف السلطان المغربي من السلطات الفرنسية كتبه

René Touraine

" بلغنا من مصادر موثوقة، أن العلاقات بين سلطان المغرب والسلطات الفرنسية قد تغيرت بعض التغير. منذ اليوم الذي قررت فيه الإقامة العامة تطبيق المرسوم المتعلق "بالإجراءات المتخذة في حق اليهود ". برغم معارضة السلطان لذلك معارضة كاملة. ورفض السلطان أن يميز بين رعاياه، إذ كلهم بالنسبة إليه " أوفياء ". واغتياظا مما لحق سلطته من إهانة على يد السلطات الفرنسية، فإن السلطان قرر أن يظهر أمام الملأ، أنه يناهض هذه الإجراءات التي اتخذت في حق اليهود. وانتظر مناسبة عيد العرش ليفعل ذلك. ومن عادة السلطان في هذه المناسبة أن يقيم مأدبة كبيرة يحضرها كبار الضباط الفرنسيين والشخصيات المغربية البارزة. غير أنه في هذه المرة، دعا أيضا ممثلي الطائفة اليهودية، وأقعدهم في الصفوف الأولى إلى جانب الضباط الفرنسيين، وأصر على تقديم الشخصيات اليهودية الحاضرة بنفسه. ولما أبدى الضباط الفرنسيون اندهاشهم من حضور اليهود في هذا الحفل، خاطبهم السلطان قائلا: " إني أرفض كليا القوانين الجديدة المعادية للسامية، كما أني لا يمكنني أن أقبل أمرا أشجبه. وأحيطكم علما أن اليهود، سيبقون كما كانوا في الماضي، تحت حمايتنا، وأرفض أن يكون بين رعاياي أي نوع من أنواع التفرقة والتمييز."

لقد كان لهذا التصريح المؤثر وقع كبير على العامة، فرنسيين ومن الأهالي".

الملحق الثاني
تصريح صاحب الجلالة السلطان لممثلي الطوائف اليهودية في المغرب.

عرف المغرب تقليدا قديما كان يسمى " ادْبيحَ " (1). ذاك أن رعايا السلطان عندما كانوا يجدون أنفسهم مهددين في ممتلكاتهم أو حياتهم، فإنهم كانوا يستنجدون به لحمايتهم، فينحرون أمام الأعتاب الشريفة، وهم يدعون ويبتهلون، رؤوسا من الماشية. ونحر يهود المغرب في هذه الحالة أربعة ثيران، فاستقبل السلطان على اثر النحر،وفدا من الأعيان اليهود، هم: إلي دنان والعلوف وإسحاق كوهن، وثلاثتهم من فاس، ومردخاي الدهان من الدار البيضاء. وبعد أن ذكّر السلطانُ الوفدَ بالظهائر الصادرة لصالح الطائفة، خاطبهم بقوله: " تأكدوا أني لن أوقع أي وثيقة تلحق الضرر باليهود المغاربة، وأنكم عندي مثل بقية المغاربة، وعلى قدم المساواة مع المسلمين لا فرق، وأن ممتلكاتكم في الحفظ والصون. وفي حال ما إذا بلغكم خبر أمر يسيئ لليهود، فأتوني لإخباري به سراعا ". وعندها أوضح هؤلاء أن الإحصاء الذي خضع له اليهود، تضمن التصريح الدقيق بجميع ممتلكاتهم: الأموال والحسابات البنكية والحلي والعقارات والدور الخاصة. أستغرب السلطان الأمر وقال: "ليس ذاك ما أردت التوقيع عليه، ولا يخضع للتصريح إلا الممتلكات العقارية". ففهم ممثلو اليهود من السلطان، أنه لما سمح بنشر الظهير

1- الكلمة في النص (la Dolha) وهو بلا شك خطأ مطبعي، والمقصود هو [la Dbiha] "دبيح" أي الذبائح التي تقدم للسلطان أو لأي شخص له وزن يطلب منه التدخل في أمر له جلاله، أو للاستيجار به.(المترجم).

الذي بموجبه يتم تعداد اليهود، فإنه لم يرد منه أولا إلا تعدادا للأشخاص، وثانيا لم يكن المقصود بالمتلكات في التصريح يعني إلا ما يعنيه تعبير: متعامل في العقار، أي أن الأمر لا ينحصر إلا في العقار، ولا يعني أبدا الإحصاء الكلي، كما فهمت الإدارة.

و أكد السلطان ثانية، في لقاء آخر جرى بينه وبين اليهود الثلاثة الفاسيين المشار إليهم سابقا، يوم 26 يونيو 1942، تصريحاته التي سبق أن أدلى لهم بها في محادثه السابقة معهم.

وجرى حفل كبير، يوم 13 يوليوز من نفس السنة، برحاب القصر الملكي بالرباط، بمناسبة اختتان الأمراء، فدعي وفد من يهود فاس دعوة رسمية عن طريق باشا المدينة. وضم الوفد أربعة من كبار شخصيات الطائفة، وأربعة من الأعيان وربِّيين. وكان من بين هؤلاء العشرة، السيدُ إلي دنان والعلوف وإسحاق كوهين، الذين حضرا في أول لقاء. وبعد أن عبر الوفد عن متمنياته وقدم تهانيه وهم بالانصراف، أمرهم السلطان الذي تعرف على الأعيان الثلاثة المذكورين، بالمكوث، واستقبلهم في قاعة الاستقبال الخاصة، وأعاد عليهم ما وعد به في المرتين السابقتين، ثم تفضل وأضاف: " إن قصري مفتوح في وجوهكم في كل وقت، إذا ما سمعتم شيئا يحاك ضدكم ". كما تفضل وأمر بنفسه، حاجبه الخاص، ليقدم إليهم الشاي والحلويات التقليدية.

وزار السلطان، في نفس مناسبة اختتان أبنائه، الدار البيضاء، يوم الخميس 6 غشت، ليتلقى تهاني أعيان هذه المدينة، فقدم إليه هنا أيضا، باشا مدينة الدار البيضاء، الوفد اليهودي المتكون من الرِّبِّيِّين السيد إسحاق بنتو ومردخاي كوهن وموسى نهون، في قاعة من قاعات القصر، وبعد أن قدموا تهانيهم وعبروا عن متمنياتهم، تلا الربي أبيحصيرا

دعواته للعائلة باللغة العبرية، وبعدها قُدم نص هذه الدعوات باللغة العبرية وبترجمته العربية، إلى السلطان الذي قال عندها: " كونوا كأجدادكم، واحتفظوا بأنفتكم، ولن يقلقكم أحد أبدا. وسأظل أوصي بكم الباشا خيرا. ومع أنكم تنتحلون نحلة تختلف عن نحلتنا، فأنتم بالنسبة لي سواسية لا فرق بينكم وبين باقي المغاربة ".

المغرب المستقل

لقد منح المغرب المستقل، على يد ملكه محمد الخامس، الذي سبق له أن عارض سنة 1940، تطبيق قانون فيشي المعادي لليهود، على أرض مملكته الشريفة، لليهودي المغربي وضعا قانونيا مساويا للوضع القانوني الخول للمغربي المسلم، وأنعم عليه بحق المواطنة وبنفس الحقوق والواجبات. وكان بإمكان هذه الوضعية أن ترضي رغبات اليهودي وتحقق طموحاته البعيدة، غير أن التطبيق الكامل لهذا القانون بدا منذ البداية غير قابل للتنفيذ، على الأقل في بعض الجالات.

خلق تضامنُ المغرب مع البلدان العربية الأخرى، وما نتج عن ذلك من عداء صُرَاح تجاه إسرائيل من جهة، وتعاطفُ اليهودي الطبيعي مع إسرائيل هذه نفسها، التي يجعل " قانون العودة " الذي صدر عنها، من هذا اليهودي، مواطنا بالقوة من جهة أخرى، جوا من التشكك والريبة، مما لم يساعد على إنشاء علاقات عادية بين عنصري السكان، يهودا و مسلمين.

وفضلا عن ذلك، بدأ المغرب ينهج شيئا فشيئا، نهج الاقتصاد المفروض على البلدان المتخلفة أو التي هي في طريق النمو، وهو نظام اقتصادي لا يستطيع اليهودي التكيف معه، حيث بدأ يتخلى شيئا فشيئا عن دوره التقليدي المتمثل في الوسيط التجاري، فدفعته ديناميته إلى أماكن أخرى، لا سيما وأن أخطار تغير السياسيات الدولية

والخوف من احتمال تغير يطرأ على موقف النظام نحوه. لم تعد تساعده على التجذر والاستقرار اللذين كان يطمح إليهما بكل قواه. فهو إذن محكوم عليه بأن يبحث عن مواطن أخرى أكثر موالمة.

لقد بدأت حركة الهجرة التي مست في السنوات الأولى من الاستقلال، الشرائح الفقيرة من السكان. تتسع عن طريق العدوى، فزادت في أوساط الطبقات الميسورة. وانتهت في آخر المطاف بهجرة العائلات الأكثر غنى.

كانت عملية تحجيم الطائفة اليهودية بالمغرب أكثر بطأ إذا ما قورنت بالطوائف الأخرى بالمغرب العربي أو بالمشرق. ولكن ألم تكن النهاية هي النهاية ؟

ولنعد إلى بعض سمات تطورات التحلل هذه بدءا من العقد الأول الذي تلا الإعلان عن الاستقلال.

كانت الهجرة تجاه إسرائيل تبدو أول الأمر. ظاهرة طبيعية. فتقاطر عليها اليهود المغاربة. شأنهم في ذلك شأن إخوانهم في بلدان الشتات الأخرى. منذ قيام الدولة. وتتابعت الحركة خلال السنوات الأخيرة من الحماية. بوثيرة لا يتحكم فيها إلا المنظمات التي كانت تمثل الوكالة اليهودية في عين المكان. وبالأخص مكتب " القاديما " أو التهجير. وعندما حصل المغرب على استقلاله. تزايدت حركة الهجرة خلل الستة الأشهر الأولى. ثم توقفت نتيجة استتباب أمر النظام الجديد. وكذلك نتيجة للضغوطات التي مارستها الجامعة العربية على السلطات المغربية. وكان على المغرب أن ينضم إليها ويبرهن على تضامنه معها فيما بعد. ومع ذلك. لم تنقطع أبدا حركة التنقل بين المغرب وإسرائيل والعكس. وكان القصد منها في معظمه للسياحة وزيارة الأقارب. ولم تكن للاستقرار إلا نادرا. وكانت تتم هذه العملية بطرق مختلفة. ذلك أن

الضرورة كانت تدعو أفرادا من نفس العائلة، وجيرانا من نفس المنزل، أو من نفس الزقاق، إلى اللقاء مهما كانت العراقيل.

ويتداخل المظهر السياسي للظاهرة مع مظهرها البسيكولوجي، ولا يتميز عنه إلا بصعوبة. وهكذا فإن اندماج الطائفة اليهودية في العائلة المغربية الكبيرة، الذي كان يعتقد أنه ممكن بل ومرغوب فيه، في جو تسوده الثقة والغبطة، مما ساد في الأيام الأولى بعد الاستقلال، نتيجة للتصريحات المتعددة الواعدة بالمساواة والحرية، مما أعلن عنه جلالة الملك محمد الخامس أو زعماء الأحزاب السياسية، لم يكن إلا سرابا، وأصبح أسطورة على الرغم من المجهودات التي بذلها ذوو النوايا الحسنة والإرادات الطيبة الذين حاولوا التقريب بين مكونَيْ السكان المغاربة داخل جمعية أسموها " الوفاق ". غير أن هذه لم تلبث أن حلت. ولم يستطع العيش المشترك على نفس الأرض طوال أزمان، ولا القرابة اللغوية، ولا العادات، أن تقف في وجه انعدام الثقة و التنافرات المختلفة والمصالح الخاصة. وفوق ذا وذاك، لم تستطع التغلب على المشاكل الناجمة عن وجود الدولة اليهودية والعداء المشترك الذي أجمعت عليه الدول العربية المتضامنة تجاه إسرائيل، وهو عداء ظلت تغذيه دعاية سفارات الشرق العربي المقيمة بالمغرب، والإذاعة الوطنية نفسها.(1)

1- لقد ساهم بطبيعة الحال، الصراع اليهودي العربي في الأحداث التي عرفها تاريخ المغرب المستقل. ولم تساعد حروب 1947 و1948 و1956 و1967 في استمرار تعايش فئة اليهود القليلة مع فئة المسلمين الكبيرة . وانفجرت الأحداث الأكثر خطورة - وربما كانت من تدبير جهات أجنبية - في معادن جرادة، على بعد كيلو مترات من مدينة وجدة التي تقع في المغرب الشرقي، حتى قبل الاستقلال. ففي ليلة 8-7 من شهر يونيو 1948،حاصرت جماعة من الأهالي الهائجة الطائفة اليهودية المحلية القليلة العدد. فلم يسلم من الهجوم لا الكبير ولا الصغير، فتوفي 39 وجرح 30 جروحا بليغة. ولم يتدخل الجيش ولا الشرطة المكلفون باستتباب الأمن لوقف الهجوم إلا بعد فوات الأوان .

أما مـا يتعلق بمشكل الـتنقل، وهو أمر كـانت الطائفة الـيـهودية شديدة الحسـاسية بالنسبة إليـه، فينبغي أن نعترف أن مـوقف القصر، وكذا أيضـا السلطات المحلية المكلفة بتسليم جوازات السفـر، لم يكن مـوقفـا مـوحـدا دائما، إذ كـانت هناك فـترات تتميـز بالتـشدد وأخـرى بالتسامـح. وكانت هذه الحركة المتأرجـحة، التي ظلت تخضع لاعـتبارات سياسية عامة، تنعكس على الحالة النفسية للسكان اليهود، فهم بين الأمل واليأس، واليـأس و الأمل. وانتهى هذا الوضع بخلق حالة من الحيرة والخيبة حتى لدى الأفـراد الذين لم يكن لديهم أدنى ريب، فأخذوا يفكرون في تخطيط مشروع الرحيل.

وفي الفـترات الصـعبة، خـصوصـا تلك المتميـزة بالوقف المفـاجئ للهجـرة العادية، تصبح حركـات الهجرة السرية بديلا لا يسـتغنى عنه، وعندها يعد للهجرة في ظروف جد سيـئة قد تنتج عنها أحـيانا حوادث مأساوية. وكمثال على ذلك، غرق سفينة Pisces في يناير 1961. وقد أثار اختفاء 43 من ركابها شعورا من الألـم والحسرة، سـواء فـي المغرب أو لدى اليهـود عامة. وعلى إثر هذه الحـادثة المؤلمة، وبعد الصفـقة التي تمت تحت ضـغط اليهـودية الأمـريكيـة، سـمـحت الحكومـة المغـربيـة باسـتئناف الهجرة الرسمية (1).

وأظهر اليـهود بعض التخوف بعـد تولي مولاي الحسن الثانـي، غير أنها حـالة سرعان ما اختـفت، وعاشت اليـهودية المغربيـة فـي حالة من الطمأنينة، بل وفي غـبطة لم تكن لتحلم بها قـبل سنوات قلائل، على

---

1 - دفن عديد مـن ضحايا غـرق هذه السفـينة في مكان قريب من طنجـة، وقد قـرر صاحب الجلالة الحسن الثانـي في شـهر دجـنبر 1992، السمـاح بنقل الجثث إلى إسـرائيل، استـجابة لرغبة عائلاتهم ورغبة الطائفة. وقد تحملت الحكومة المغربية مصاريف النقل والدفن.

الرغم من عطف ورعاية صاحب الجلالة محمد الخامس الكبيرين اللذين لم تخفت من جذوتهما إطلاقا زيارة الرئيس عبد الناصر المشهورة للمغرب.

وفي الواقع، فإن شخصية الحسن الثاني، في نظر رعاياه اليهود، هي الضمان الوحيد للحريات التي يضمنها الدستور الذي صوتوا عليه هم بالإجماع، وبالأخص، حرية التنقل التي يعيرها اليهود أهمية قصوى. وأصبح اليهودي المغربي، في عهد الحسن الثاني، يغادر البلد ويعود إليه كما يحلو له. وأزيلت العرقلة الكبرى المتمثلة في الحصول على جواز السفر تماما. وأصبح لليهود " ممثلوهم المنتخبون " في الهيئات التمثيلية، فلهم نائب في البرلمان وأعضاء في المجالس البلدية ونواب للرئيس وأعضاء في مكاتب الغرف التجارية. واستفادت الدواوين الوزارية من كفاءات العديد من الموظفين السامين اليهود (1). ويبدو أن يهودي الشارع نفسه، المواطن العادي، لم يعد يعيش أي عُقَد كيف ما كانت، بل أصبح يتمتع بحياة مطمئنة مزدهرة.

وما يناقض فترات القلق التي عرفها اليهود سابقا، والتي ما زالت عالقة بالأذهان، أن تسمع أن المغرب هو البلد الذي يعيش فيه اليهودي ملكا، وأنه أرض موعودة حقا.

وإذا كانت حرب 1967 الإسرائيلية العربية، أو حرب الستة أيام، قد عجلت برحيل البعض، فإن الحياة ما لبثت أن أخذت مجراها الطبيعي،

1- نشير هما إلى أن السيد سيرج بيرديكو، رئيس مجلس الطائفة اليهودية المغربية، صار وزير للسياحة. (حكومة 1994). ونذكر أيضا بهذه المناسبة، أن صاحب الجلالة محمد الخامس، كان قد عين هو أيضا سنة 1956، غداة استقلال المغرب، على رأس وزارة البريد والمواصلات السلكية واللاسلكية، الفقيد الدكتور ليون بن زكين. رحم الله الجميع.

وإن كان يتخللها من وقت لآخر، أحداث داخلية أو خارجية، وتتوالى عليها فترات من القلق و الطمأنينة. ثم استقرت الوضعية على ما هي عليه في الخمس عشرة سنة الأخيرة.

عالم الفكر لدى يهود المغرب والشرق

ليس من مهمتنا أن نخوض في أمر الملف الكبير المتعلق بـ"إسرائيل الثانية " (1)، وعواقبها المعقدة التي كان لها الأثر الكبير، إن على المستوى الاجتماعي أو الاقتصادي أو الثقافي. وكلها رُكام من المشاكل أزعج وأقلق الرأي العام في الشتات وفي إسرائيل. بعد أن زاغت عن أهدافها الحقيقية، وصارت موضوعا للتوتر و المواجهات الداخلية، بين مختلف الطوائف. وسوف ينحصر همنا في القضايا التي تعترض اليهودي السفردي أو الشرقي واليهودي المغاربي خاصة. وهي قضايا الفكر والتعليم والتربية. ومن الأكيد أن علينا أن نجعل لهذه مكانها الرئيسي ضمن المتطلبات الحيوية التي لا يمكن أن يستغني عنها الفرد. ويبدو لنا في نهاية الأمر، أن الكل يقود إلى ما يقتضيه التكوين والتربية والفكر. وبهجة العقل والروح عند الرجل الفقير، وكذا عند المحظوظين من الناس، هي الأعظم والأقدس. وغني عن البيان أن الإمكانيات الأكثر عطاء مما يوفره الحصول على العلم والمعرفة والتكوين، هي الأقدر بامتياز على التمكين من وسائل التأثير والقوة. وهي الأداة الحق لترقي السلم الاجتماعي.

ويمكن أن يعرف اليهودي المشرقي والسيفردي نفسه، بصفته يهوديا، بنفس التعريف الذي عرف به KAFKA ذاته، وهو يضع نفسه

1- يقصد المؤلف بـ " إسرائيل الثانية " ساكنة إسرائيل الذين هم من شمال إفريقية أو الشرق، والذين لا يتمتعون بكل ما يتمتع به يهود أوروبا أو الإشكناز. وقد خلق هذا الوضع كثيرا من المشاكل لهؤلاء ولإسرائيل نفسها.(المترجم)

مقابل يهود الغرب. يقول في إحدى رسائله إلى Milèna : "ينبغي أن أكتسب كل شيء، ليس الحاضر والمستقبل وحسب، بل الماضي أيضا. فهذا الشيء الذي يتلقى كل الناس منه نصيبهم بالمجان، ينبغي على أنا أن أقتنيه. ولعل هذه هي أصعب المهام. وإذا كانت الأرض تدور نحو اليمين، ولا أدري إذا كانت تفعل، فعلي أنا أن أدور نحو الشمال، لكي ألحق الماضي".

وفي السياق السياسي والاجتماعي والثقافي في إسرائيل اليوم، حيث استقرت الأغلبية العظمى من الشتات المعروف بالشتات الشرقي، يستحق فكر وتاريخ هذه اليهودية التي ظلت مهمشة زمنا طويلا، أن يصير عِلْماً يعرفه كل الناس.

ويجدر بنا في هذا الصدد، أن نجمل بعضا من تأملاتنا حول تاريخانية عالم الفكر اليهودي. فإذا سجلت أغلبية الشعوب تاريخها وحضارتها في وثائقها الوطنية والمحلية، وفي أخبارها وحولياتها الرسمية، فإن الطوائف اليهودية التي كانت تعيش بين الأمم، منشغلة بالحفاظ على هويتها الدينية بل بالحفاظ على بقائها، لم تستطع أن تخلف لنا ما يشبه هذه الآثار. ولكتابة التاريخ اليهودي العام وتاريخ يهود العالم السفردي والشرقي خاصة، لا بد من الاعتماد على البحث المنهجي في الوثيقة وفي مجمل الفكر اليهودي، قصد الاستفادة من كل أشكال التعبير التي هي نفسها تمثل بعضا من الوجود.

و لا ينبغي أن يعتبر أو يدرس الإبداع الأدبي، المكتوب والشفهي، في لغته العبرية أو في اللهجات المحلية، في حد ذاته، باعتبار قيمته الذاتية أو باعتباره ماهية منفردة أو كنها معزولا، ولكن يجب أن يؤخذ كجزء لا

يتجزأ من شمولية اجتماعية، ترتبط ارتباطا وثيقا بمجمل التاريخ. فكل إبداع أدبي وكل فكر، هو مصدر من مصادر التاريخ . فالنظر في كل صور التعبير وكل أنماطه وأنواعه، واستخدام مبضع البحث والتحليل والنقد، ما هو معروف اليوم، ثم تفسير نتائج كل ذلك تفسيرا صحيحا، ذاك هو " كتابة التاريخ ". ويشكل الفكر التشريعي وانعكاساته الاجتماعية والاقتصادية والدينية، وعلى الخصوص تلك التي نقلتها إلينا الفتاوى الفردية والفتاوى الجماعية والشعر الديني والدينوي وكتب التفسير والخطابة، بل والكتابات الصوفية والقبالية، والأدب الشعبي المتوارث شفويا، في اللهجات المحلية، في الاستعمال اليهودي العربي والأمازيغي والقشتالي. كل هذا يشكل الأسس الرئيسية لكل مقاربة شاملة لا تغفل شيئا في الوجود اليهودي وفي مختلف مستويات التحليل. إننا تحدثنا هنا، كما تحدثنا في أماكن أخرى، كلما تعلق الأمر، بحقيقة يهود الغرب الإسلامي، عن هذه اليهودية المغربية التي كانت تعتبر إلى عهد قريب، عاطلة من أي ماض، والتي شرعت توا تعيد بناء ذاكرتها الجماعية، وهويتها ووعيها بانتمائها إلى فئة عرقية خاصة، وبيئة فكرية تخصها وتميزها، داخل كوكبة لامعة من الثقافات و الأعراق والعقليات التي تكون العالم اليهودي.

وتتخذ حاليا، مبادرات في إسرائيل وفي غيرها، لتشجيع وتطوير الأبحاث والدراسات حول تاريخ هذه اليهودية الشرقية والسيفردية، الممتدة زمنا على مدى خمسة قرون الأخيرة. وعلينا أن نأمل تحقيق ذلك في العاجل القريب. والحقيقة أنه آن الأوان، لنفض الغبار عن هذه القرون التي ظلت عتمتها تخفي تاريخ وفكر الشتات الشرقي، وبالتالي تخفي قطاعا مهما من العالم اليهودي ومن ثقافته التي ظلت بعيدة عن مجال العلم والبحث، وغائبة عن مدرج الجامعة ومناهج التعليم.

ويستجيب الاهتمام الخاص، في المرحلة الحالية، باليهودية في العالم السيفرادي و الشرقي(1) لرغبات وحاجات عميقة، مع أن الموقف العادي منها كان إلى عهد قريب موقفا.سلبيا تماما، وتجاهلته الطوائف اليهودية الأوربية والأشكنازية، وكان اليهودي الشرقي والسيفردي نفسه، سواء على مستوى العامة أو الخاصة، يمارس بالنسبة لأصوله وثقافته، نوعا من الرقابة الذاتية، بل تتحول أحيانا هذه الرقابة إلى التخريب الذاتي، وكان هذا اليهودي يتنكر لماضيه، ويخفي قيمه التي ورثها عن آبائه وأجداده، معتقدا أنه من غير المفيد أن يكشف عنها، إما جهلا أو عن عدم إدراك أو استحياء مما هو عليه.

1- انعقدت أول ندوة عالمية تهتم بيهود إفريقيا الشمالية، تحت إشراف مركز البحث الخاص بيهود إفريقيا الشمالية، ما بين 5 و8 إبريل 1977 بمعهد بن صفي، بالقدس، وأقام عديد من المعاهد ومراكز الدراسات العليا، أياما دراسية خاصة بيهود البلدان الإسلامية وذوي الأصول الأندلسية، وخلقت جامعة حيفا، بعد فترة من ذلك، كرسيا لدراسة حضارة يهود البلدان الإسلامية، أسند إلي شخصيا شرف تدشينه بإلقاء سلسلة من المحاضرات في تاريخ وأدب يهود الغرب الإسلامي، خلال فترة ما بعد التهجير من إسبانيا سنة 1492، في الثلاثة أشهر الأولى من السنة الجامعية 1977-1978

ومن جهة أخرى، فإن وزارة التربية (إسرائيل) عينت "لجنة لإدخال مادة التراث السفردي والمشرقي في مقرراتها التعليمية ". كما خلقت مؤسسة جديدة دعتها " مسكب يروشلايم" (حصن القدس) فعقدت أول ندوة عالمية لدراسة التراث الثقافي ليهود الشرق ويهود الأندلس، ما بين 20 و30 يونيه 1978.وتعددت منذ سنة 1978 المؤتمرات والمحاضرات والندوات العالمية حول العالم السفردي وحوار الثقافات في دول البحر الأبيض المتوسط، وشاركت شخصيا في العشرات من هذه التظاهرات في المغرب وإسبانيا وفرنسا وبلجيكا وسويسرا وكندا وإسرائيل و غيرها، وأذكر هنا بعضا منها مع ذكر عنوان المساهمة العلمية :

من ذلك ما ساهمت به في ذكرى مرور 900 سنة على وفاة الغزالي و850 سنة على ميلاد ابن ميمون، في فرنسا ودول أخرى.

ففي دورة أكاديمية المملكة المغربية المنعقدة ما بين 27 و29 نونبر 1985 . ساهمت ب:

1) Les sources arabes de la pensée juive et tout Particulièrement de la réflexion de Maïmonide; 2) La pensée islamique,.son influence sur Maïmonide et sur le développement de la tradition juive.

ونقلت هتان المحاضرتان بالكامل عل أمواج الإذاعة المغربية والتلفزة المغربية في 22 دجنبر 1985.

- الإعداد والمساهمة في المائدة المستديرة التي عقدتها U.N.E.S.C.O حول ابن ميمون والغزالي في 9-12 دجنبر 1985 والمساهمة هي :

"Le monde maghrébin et ses différants visages .L'école espagnole, référence privilégiée de la création littéraire des auteurs juifs marocains : pensée juridique et espace poétique"

وهما محاضرتان ألقيتا في لقاء UIMP (Universidad International Menedez. Pelayo) Santander. في 5-9 غشت 1991 حول موضوع

la herencia espanola en et pensamiento sefardi.

- Dialogue socio-culturel judéo-musulman

كلمة قبول عضوية أكاديمية المملكة المغربية في دورة 14-17 أكتوبر 1991. ونشرت كاملة في le Matin du Sahara et Maroc- Soir du 15 Octobre 1991

وانظر أيضا مجلة الأكاديمية. عدد 9 1992. ص 61-66.

- Le dialogue socio-culturel judéo – musulman en Andalous et au Maghreb

وهي مداخلات ثلاث:

l'espace poétique et la pratique des traditions musicales; le modèle mystique; le modèle philosophique والقيت في Symposium de Cordoue. (International Peace Rescarch Association) UNESCO في 11-13 ماي 1991

دورة أكاديمية المملكة المغربية. غرنلطة 12-23 إبريل 1992. أنظر منشورات الأكاديمية. الرباط. 1993. ص 111-128

- le patrimoine hispano- mauresque dans la conscience historique et la création littéraire judéo-maghrébine

- ندوة دولية جرت وقائعها في المحمدية في إبريل 1992. نظمتها جامعة الحسن الثاني. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. البيضاء. في موضوع " حضارة الأندلس في الزمان والمكان ". عنوان المداخلة:

– Quelques espaces de rencontres privilégiés de la pensée et de la création littéraire judéo-arabe, l'exemple de l'Occident musulman: Andalous-Maghreb.

* ظهر البحث في أعمال الندوة. المحمدية. 1993. ص. 27-36.

– La centralité de la dominante religieuse et mystique dans la composition poétique et dans l'exercice de la musique et du chant .En Occident musulman, les modèles arabo-hispaniques .IV Congrès international de Misgav yerushalayim, Hispano-Jewish Civilisa-

وإننا نشاهد اليوم يقظة وعي سيفردي وشرقي، وعي بالانتماء إلى فئة عرقية وبيئة ثقافية مختلفتين. ونجد هذه الظاهرة في المعيش اليومي لدى الطوائف التي تعيش في إسرائيل وتلك التي في الشتات. وفضلا عن ذلك، فإن البحث عن الهوية السيفردية والشرقية الذي كان يعتبر فيما قبل عملا من أعمال التخريب ورغبة في الانشقاق، أصبح منذ ئذ، ينظر إليه على أنه نزعة إلى إضفاء المشروعية على مؤسسة من المؤسسات.

وإذا كنا نحن، على المستوى العلمي المحايد والمجرد، الذي هو فوق اعتبارات المجموعات الاجتماعية، نلح على ضرورة القيام بالبحث والدراسة في جوانب التراث الثقافي الذي هو ثمرة من ثمرات اليهودية السفردية والمشرقية، خلال الأربعة قرون الأخيرة، والإسراع بذلك قبل فوات الأوان، فإنما نفعل ذلك لأن هذا التراث هو جزء لا يتجزأ من الفكر اليهودي الشامل من جهة، ولأنه يمكن من الإطلاع الجيد على العالم العربي- الإسلامي، ومجتمع حوض البحر الأبيض المتوسط، من جهة أخرى. وبالإضافة إلى ذلك، فالمغرب العربي نفسه على وعي بالأمر، حيث تبدي مجموعات البحث العلمي الجامعي، والمجلات المتخصصة والصحافة اليومية، اهتماما ظاهرا، بالدراسات الخاصة بيهود المغرب، وبالوثائق

- Le patrimoine hispano-mauresque dans la conscience historique et la création littéraire judéo-maghrébine .The International Center for University Teaching of Jewish Civilisation, Jèrusalem, June 25-26,.1992 Session devoted to University Teaching on Hispano-Jewish Civilisation after 1492.

Congrès internationl America 92: Raizes e Trajectorias (Amèrique 92 : Racines et Trajectoires) Sao-Paulo.16-20 août et Raio de Janeiro.24-30 août 1992. Deux communications : "consciences mystique et littérature Kabbalistique en Occident musulman (Sao Paulo)" ; Poésie et musique juives en Occident musulman. (Rio de Janeir).

المتوفرة، التي أصبحت تعتبر لدى المغاربة المسلمين، مصدرا من مصادر تاريخهم لا يستهان به، بل جزءا من ذاكرتهم الخاصة بهم (1).

الذاكرة اليهودية- المغربية

يبدو أن مصير اليهود المغاربة في بلدان الاستقبال الأخرى يختلف اختلافا بينا. وسواء الذين اختاروا فرنسا أو أولئك الذين اختاروا كندا أو فينزويلا، فهم جميعا يكونون طوائف على قدر هائل من الحيوية، واندماجهم الاجتماعي والاقتصادي أفضل بكثير من اندماج إخوانهم الذين هاجروا إلى إسرائيل. وسواء في فرنسا أو غيرها، فإنهم مدعوون إلى التكيف مع ثقافة المجتمع المضيف، وقد تغلبت رغبة تمثل الحياة الفرنسية والكندية أو حياة أمريكا الجنوبية، في معظم الحالات، على الشعور بالأسف عن الماضي أو الإحساس بالاستئصال. ومع ذلك نسجل في هذه المسيرة نحو التماثل، بعض جوانب المقاومة المتمثلة في نفوذ الوسط العائلي الذي لم يفقد بعضا من تأثيره وسلطته، وفي الارتباط باليهودية التي هي عندهم حقيقة ثابتة. ومما لا شك فيه، فإن يهود المغارب في فرنسا، هم الذين يشكلون العنصر الأكثر تدينا و الأكثر حفاظا على تقاليد الطائفة. وتجذب إسرائيل مجموعات كبيرة من هؤلاء المهاجرين، إلا أن جزءا هاما من يهود شمال إفريقيا، اختار فرنسا أو كندا أو فينزويل أو إسبانيا لتكون موطن الاستقرار الدائم.

ويرتبط عنصر الأقلية اليهودية- المغاربية في فرنسا، بالثقافة والمجتمع الفرنسي، عن طريق استعمال اللغة على الخصوص، وبالممارسات اليومية العادية وبما تشكله " الحياة الخاصة " للناس والعلاقات التي

1- أنظر مجلة أكاديمية المملكة المغربية عدد 9، 1992 ص 61-66.

يكونها هذا العنصر مع جاره في السكن ورفيقه في المعمل أو المكتب، وشريكه أو منافسه الصناعي والتجاري، وزميله في الثانوية أو الجامعة وغير ذلك. ويبقى مع ذلك هذا اليهودي، متجذرا في وفائه للتراث العبراني والفكر اليهودي على شموله، والأكثر من ذلك، فإنه يظل موسوما بأصوله المغاربية ومفتخرا بمساهمة أجداده في الفكر الأندلسي والثقافة العربية الأمازيغية.

ومع ذلك، يبقى من تاريخ يعود إلى ألفي سنة على أرض المغرب المعطاء، ذاكرة يهودية مغربية، يتردد صداها في روح المهاجرين المجتثة، تُدَوِّي في موسيقاهم وغنائهم، في فلكلورهم وشعائرهم، في احتفالهم بـ" لالاميمونة " و" الهيلولا ". وفي مزاراتهم الجماعية لقبور أوليائهم المحليين، مثل الربي عمرام بن ديوان في وزان، وموالين داد بسطات وغير هذين. والأمر أكثر عند المهاجرين الذين أقاموا في إسرائيل، فذاكرتهم تنبئ عن نفسها في حنينهم إلى الوطن، وأسفهم الحزين وأزماتهم المريرة أو التي يثيرها الحنين الدفين، وفي كتاباتهم الغاضبة أو الهادئة. وتعبر هذه الذاكرة عن نفسها ببراعة في الخلق الأدبي العبري الناشئ، لدى بعض الأدباء من أصل مغربي، وبالأخص في رهافة الشعراء الشباب (1)، الذين عبروا في آثارهم الأدبية الجيدة، عن الروح المكلومة، والثقافة المهمشة أو المهانة، وقساوة العيش الذي يعانيها شتات " ثان"، هو الذي عرفنا منه، من قبل، على أرض المغرب المعطاء، الوجه الوضاء وحرارة العاطفة والأفراح والأحزان.

ونختم بالتأمل في بعض الدروس المستخلصة من حكم الماضي التي يمكن أن نستفيد منها في الحاضر.

1- أقصد Erez Bitton في كتابه : "هدية مغربية" و "كتاب النعناع" و Gabriel Bensimhon في كتابه : "طمأنينة للمخلص المنتظر ملك مغربي".

قد يبدو من سخرية القدر أن نتحدث عن الحوار الاجتماعي الفكري، وعن الحكمة والارتقاء الروحي، بعد زمن قليل عرف ظروفا مأساوية عاشتها العلاقات اليهودية العربية، وهي ظروف اكتنفها كثير من القلق والتوتر والمنازعات والحروب التي عرفها هذا الشرق القريب منا والعزيز علينا، ما يزيد عل نصف قرن من الزمان.

ومع ذلك فقد أصررنا على أن نظل نحن، أوفياء لمهمتنا، لقناعتنا منذ أكثر من ثلاثين عاما، بضرورة عدم التخلي عما علّمنا إياه التاريخ، وأنه لا بد من أن نحاول النظر إلى الأشياء من الداخل، وأن نتجاوز حواجز الغيرية، وأن نحتفظ دوما بالمسافة الكافية التي تسمح لنا بالنظر والفهم. إن الذي يحقق المستقبل الأفضل والأحسن، هو الذي يترك جذوره تمتد عميقا في الماضي.

إن الأحداث التاريخية التي تتوالى أمام أعيننا، وإن ما ينمو في رحمها من بذور السلام، أمور كلها تحيي فينا الأمل في إيجاد مواطن أخرى للقاء والحوار والتعايش الآمن والتشارك الحميمي والتعاون، وباختصار، تبعث الآمال فينا، من أجل إيجاد مواطن أخرى للتعقل. إن ما كان أملا ورغبة بالأمس، أصبح اليوم يبشر بجنين حقيقي. إن إصلاح ذات البين، بين أبناء إبراهيم وذريته، لاح في الآفاق، وبدأت مرحلة حاسمة لإنهاء الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني إلى الأبد.

ولن ينسى التاريخ الدور الرئيسي الذي لعبه ملك المغرب، الحسن الثاني [رحمه الله]،من أجل بلوغ المفاوضات نهايتها السعيدة. كما لن ينسى أيضا التحية والتقدير والاحترام والإكبار التي قدمها الوزير الأول الإسرائيلي، [إسحق رببن]، للشعب المغربي ولعاهله الذي كان من أوائل

العاملين من أجل أن يتحقق الاتفاق. عندما زار المغرب. بعد توقيعه لمعاهدة السلام في واشنطن. يوم 13 شتنبر 1993.

إن هذا الحاضر هو الذي يعطينا المصداقية. لنستنطق أفضل عهود التاريخ الوسيط. على أرض الإسلام. لنستوحي منها ما به نعيد بناء مواطن التعقل ومجالات تلاقي الأفكار والحضارات. وما كان لكل ذلك أن يتحقق لو لم تسند الحرية. ولولا تلك الدرجة العالية من الاستقلال الفكري والتشريعي والإداري. مما ضمنته أحكام الذمة لأهل الكتاب.

وعندما صدر كتابي "Littératures dialectales et populaires juives en Occident Musulman". كتب أديبان مغربيان. هما الطاهر بنجلون وأدمون عمران المليح. حوله مقالا في صفحة كاملة من جريدة "Le Monde" عدد 17 مارس 1980 . عنوناه بـ"عندما يغني اليهود والعرب معا " ومما جاء فيه: " طيلة قرون. أنشد اليهود والمسلمون في المغرب. نفس القصائد. وغنوا نفس الأغنيات...و جمع مؤلف الكتاب شهادات حول هذه الثقافة المشتركة ...حيث استبطن اليهود والعرب كل منهم الآخر. وأعطى كل مما عنده لصاحبه. وساهموا جميعا في صنع تاريخ مشترك. تاركين بذلك لأبنائهم ذاكرة وتراثا فكريا مشتركا..."

وأنا نفسي أدرجت في الصفحة الرابعة من غلاف هذا الكتاب. بيتا شعريا لـ Lous Aragon. استقيته من مجموعه Le Roman inachevé هو :

" ما كان يعود به الزمان. شريطة أن لا ترفضه الذاكرة."

وعن كتابي "Kabbale, vie mystique et Magie" الذي ظهر في أواخر سنة 1986 .كتب السيد علال سيناصر. عضو أكاديمية المملكة

المغربية، ومدير سابق لقسم الفلسفة، بمنظمة اليونسكو، مقالا، في جريدة Le Matin du Sahara [المغربية] بعنوان : "هذه اليهودية العربية اللسان والحضارة". مبينا أنه : "سيعود التاريخ عودته الصائبة إلى المصادر...وعندما ننبش في هذه المصادر فإنا لن نتوقف إلى أن نعثر على الحرية والمحبة. وبدون هذا العمل، فإننا لا نكتب إلا ظاهر التاريخ، أو تاريخا تعبث به نزوات الشياطين..."

وفي واقع الأمر، لقد وضع الماضي على عاتقنا رسالة، وكلفنا بالحفاظ على ذاكرة. وعلينا أن نستفتيهما دوما. وعلينا أن نتخذ من هذه العهود الممتازة علائم، ومن مواطن التعقل تلك، نماذج مثالية نضعها نصب أعيننا في مسار الطريق.

إن مواطن الحكمة هذه، على غرار مجالس الفسطاط وقرطبة وبغداد وغرناطة، مما تحدثنا عنه في الفصول الأولى من هذا الكتاب، وكل مجالات اللقاء والحوار مما وصفنا بعضا من نماذجها فيه، كانت مجالا لتعاون النبهاء الذين كرسوا جهدهم لخدمة العقل، مهيئين بذلك الأسباب لعقلية قادرة على خلق هذا المجتمع العاقل الذي تحدث عنه Paul Valéry ، قبل ستين عاما. إن ذاك هو الشرط الضروري لـ"مجتمع أممي حق" (1).

1- Courrier de L'UNESCO, septembre 1993, p.44 Textes choisis.

فهرس الأعلام

BIBLIOGRAPHIE

ABEN SUR Jacob, *Responsa*, Alexandrie, 1894.

ABITBOL Michel, *Tujjar al-sultan, une élite judéo-marocaine au XIX[e] siècle*, Institut Ben Zvi, Jérusalem, 1994.

ADLER ELKAN N., *Introduction to the Itinerary of Benjamin of Tudela*, Oxford, 1907.

ADLER ELKAN N., *Jewish Travelers*, Londres, 1930.

AL-BALADURI, *Futuh*, Le Caire, 1932.

AL-MALIḤ-BAR AYYUSH Yosef, *Reponsa*, Livourne, 1823.

ANQAWA Abraham, *Kerem Hemer*, Livourne, 1871.

ASHTOR E., *The Jews of Moslem Spain*, vol. II, J.P.S.A., Philadelphie, 1979.

ASSIS YOM TOV, *Le Ḥerem de Rabbenu Gershom et la bigamie en Espagne*, revue Zion, Jérusalem, 1981.

ASSIS YOM TOV, *Jewish Diplomats from the Crown of Aragon in Muslim lands* (1213-1327), dans *Sefunot*, vol. III, Jérusalem, 1985.

AZOULAY Abraham, *Or Ḥa-Hammah, Jérusalem 1876... Ḥesed le-Abraham*, Sulzbach, 1965.

AUBIN E., *Le Maroc d'aujourd'hui*, Paris, 1904.

BADILLOS Angel Sàenz, TARGARONA BORRAS Judit, *Diccionario de Autores Judios*, Cordoba, 1988.

BAER Y., *The History of The Jews in Christian Spain*, J.P.S.A., Philadelphie, 1966.

BARGEBURH F. P., *The Alhambra*, Berlin, 1968.

BARON S. W., *A social and religious History of the Jews*, 16 vol., New-York, Philadelphie, 1952-1976.

BECKER Dan, *The Risala of Judah ben Quraysh*, A critical edition, Tel-Aviv, 1984.

BEINART H., Fès, *Centre de prosélytisme et de retour de marranes au judaïsme au XVI[e] siècle*, Mémorial Isaac Ben Zvi, Jérusalem, 1964, (hébreu).

BEINART Haim, *Los judios en la Espana cristiana, Una vision historica en Encuentros en Sefarad*, Instituto de Estudios Manchegos, 1987

BELLOW Saül, *Le don de Humbold*, Flammarion, 1978.

BEN JELLOUN Abd-al Aziz, «*Les fondements des relations internationales en Islam : L'islam et les dhimmis*», Académie du Royaume du Maroc, 1989.

BENAÏM Yosef, *Malke Rabbanan*, Jérusalem, 1931.

BERQUE Jacques, «Al-Yousi», *Problèmes de la culture marocaine au XVIII*e *siècle*, Paris, 1958.

BETTAN Israël, *Studies in Jewish Preaching*, Cincinnati, 1939.

BRUNSCHVIG R., *La Berbérie Orientale sous les Ḥafṣides*, Paris, 1940-1947.

CORCOS David, «*Les juifs du Maroc dans la première moitié du XVI*e *siècle*», Jérusalem, 1966 (hébreu).

CORCOS David, *Studies in the History of the Jews of Morocco*, Jérusalem, 1976.

D'ERLANGER R., *La musique arabe*, Paris, 1949-59.

DANA Nissim, *Sefer ha maspiq le'ovdey hashem*, Tel-Aviv, 1989.

DERENBOURG J., DEREMBOURG Hartwig, LAMBERT Mayer, *Œuvres complètes de R. Saadia ben Josef al Fayyoumi*, Paris, de 1893 à 1902.

DIMITROVSKY H. Z., *New Documents regarding the semicha Controversy in Safed*, dans Sefunot, vol. X.

DOUTTÉ Ed., *Magie et religion en Afrique du Nord*, Alger, 1908, Paris, 1984.

EBEN EZRA Moïse, *Kitāb al-Muḥaḍara wa-l-Muḍakāra*, édition hebraïque par Ben Zion Halper, Leipzig, 1924, Jérusalem, 1967 ; A.S. ḤALKIN, édition bilingue-arabe-hébreu, Jérusalem, 1975 (*Sefer ha-'iyyunim we-ha-diyyunim*).

EDREHI M., *An Historical Account ot the ten Tribes, settled beyond the River Sambatyon in the East*, Londres, 1836.

EPSTEIN Isidore, *Responsa of R. Simon b. Zemah Duran*, Londres, 1930.

FISCHEL W. J., *Jews of Medieval Islam*, Londres, 1937.

FISHMANN Y. L., *Rabbenu Moshe ben Maimun*, Jérusalem, 1935.

GINZBERG Louis, *The Legends of the Jews*, Philadelphie, 1967, 7 volumes.

GOITEN S. D., *Mediterranean Society*, University of California Press, USA, 1967-1988.

GOITEN S. D., *Moses Maimonides... Man of Action* dans : *Hommage à Georges Vajda*, Louvain, 1980.

GOITEN S. D., *Juifs et Arabes*, Les Éditions de Minuit, Paris, 1957.

GOITEN S. D., *Letters of Medieval Jewish Traders*, Princeton, University Press, 1973.

GOLDZIHER I., *Le dogme et la loi de l'Islam*, Paris, 1920.

GUIRAUD Pierre, *Fonctions secondaires du langage : Le langage*, Encyclopédie de la Pléiade, Paris, 1968.

HECKER Joseph, «*La fonction de nagid en Afrique du Nord à la fin du XV*[e] *siècle*», Zion, n° 43, Jérusalem, 1980.

ḤEMDAH GENUZAH, publié par Z. H. Edelman, Königsberg, 1856.

HIRSCHBERG H. Z., «*Histoire des Juifs d'Afrique du Nord*», Jérusalem, en hébreu, 1965.

IBN ʿAQNIN Yosef, *La révélation des secrets et l'apparition des lumières*, Jérusalem, 1964, (Hébreu).

IBN GABIROL S., *Meqor Ḥayyim*, «Source de vie», *Mosad Ha-Rav-Kook*, Jérusalem, 1951 (version hébraïque).

IBN GABIROL, *Kitāb 'Iṣlāḥ al-Akhkāq* «*The Improvement of the Moral Qualities*», New-York, 1901, édit. de Stephen Wise.

IBN HAZM, *Kitab Al-Fiṣal*, Le Caire, 1903.

IBN HAZM, *Réfutation d'Ibn Negrila*, Le Caire, 1960.

IBN KHALDOUN, *Prolégomènes*, traduction de Slane, Paris, 1862-68.

IDELSOHN A. Z., *Jewish Music*, New-York, 1967.

JOUSSE Marcel, *Anthropologie du geste*, 1969 et 1974.

JOUTARD Philippe, *La légende des Camisards (Une sensibilité au passé)*, Paris, 1977.

KAFKA F., *Préparatifs de noce à la campagne*, Gallimard, 1957.

KATZ, Sarah, *Openwork Intaglios and Filigrees*, Studies and Research on Shlomo Ibn Gabirol's work, Jérusalem, 1992.

LAKHDAR Mohammed, *La vie littéraire au Maroc sous la dynastie 'Alawide (1664-1894)*, Rabat, 1971.

LAHLOU Abdel Wahab, «*Notes sur la banque et les moyens d'échange commerciaux à Fès avant le protectorat*», Hespéris, 1937.

LAOUST H., *La politique d'Al-Ghazali*, Paris, 1970.

LE TOURNEAU R., *Fès avant le protectorat*, Casablanca, 1949.

LEVI PROVENÇAL E., *Historiens des Chorfa*, Paris, 1922.

LEVIN Israël, *Mystical Trends in the Poetry of Salomon Ibn Gabirol*, Tel-Aviv University, 1986.

LEVTZION Nehemya et TOBI Yosef, «*The Jews of Sijilmassa and the Sahara Trade*» ; «*The Siddur of Rabbi Shelomo Ben Nathan of Sijilmassa, a preliminary Study*», Communautés juives des marges sahariennes du Mahgreb, Institut Ben Tzvi, Jérusalem, 1982.

LEWIS Bernard, *Maimonides, Lionheart and Saladin* in «Eretz Israël», 1963.

MAÏMONIDES Abraham, *Kifâyât al'-Abidin* ; *The High Ways to perfection*, trad. anglaise de S. Rosenblatt, New-York, 1927/T1, Baltimore, 1938/T2.

MAÏMONIDE Moïse, *Guide des Égarés*, trad. S. Munk, Paris, 1856, réédité par Maison-neuve et Larose en 1970.

MAÏMONIDE Moïse, *Le livre de la connaissance*, Traduction française par V. Nikiprowetzky et A. Zaoul, PUF, 1961.

MASSIGNON L., «*L'influence de l'Islam au Moyen-âge sur la fondation et l'essor des banques juives*», Bulletin d'Études orientales de l'Institut Français de Damas, 1932.

MASSIGNON Louis, *Enquête sur les corporations musulmanes d'artisans et de commerçants au Maroc*, Revue du Monde Musulman, 1924.

MEIR BENAYAHU, *Sefer toldot ha-Ari and Luria's «Manner of life» (Hanhagot)*, Institut Ben Zvi, Jérusalem, 1967.

MIRCEA ELIADE, Littérature orale : «Histoire des littératures», Encyclopédie de la Pléiade, Paris, 1955.

MUNK S., *Mélanges de Philosphie juive et arabe*, Paris, 1859.

MUNK S., *Notice sur Joseph ben Yehouda*, Journal asiatique, Paris, Juillet 1842.

NA'IMI' Mustafa, *Le Sahara à travers le pays Takna*, Rabat, 1988.

NICHOLSON R. A., *Studies in Islamic Mysticism*, Cambridge, 1967, *The Mystics of Islam*, Londres, 1966.

PÉRÈS Henri, *Poésie andalouse en arabe classique au XI^e siècle*, Paris, 1953.

PINES Salomon, *The collected works of Salomon Pines*, vol. I, Jérusalem, 1979.

PINES Salomon, *The Guide of the Perplexed*, Moses Maimonides..., University of Chicago Press, 1963.

QORIAT Abraham, *Berit Abot*, Livourne, 1862.

QORIAT Isaac, *Nahalot Abot «L'héritage des pères»*, Livourne, 1898.

RUNES D. Dagobert, *The Hebrew Impact on Western Civilisation*, New-York, 1965 (The Jewish Contribution to the exploration of the globe by Hugo Bieber).

SA'ADYA IBN DANAN, *Mleket ha-shir : «Art poétique»*, Francfort, 1965.

SA'ADYA GAON, *Hamesh Megilot* «Cinq rouleaux», publié par R. Yosef Qafeh, Jérusalem, 1962.

SASPORTAS Jacob, *Ṣiṣat Nobel ṣbi*, Jérusalem, 1954.

SCHIRMANN J., *Anthologie de la Poésie Hébraïque en Espagne et en Provence*, Jérusalem - Tel-Aviv, 1954-56, Tomes I et II.

SCHIRMANN J., *Hebrew liturgical Poetry and Christian Hymnology*, J.Q.R, vol. XLIV/1.

SCHIRMANN J., *The Function of the Hebrew Poet in the Medieval Spain : Jewish Social Studies*, 1954.

SCHOLEM G., *On the Kabbalah and its Symbolism*, Schocken Books, New-York, 1974.

SCHOLEM G., *Les origines de la Kabbale*, Paris, 1966.

SCHRIRE T., *Hebrew Amulets*, Londres, 1966.

SHILOAH Ammon, *La perfection des connaissances musicales*, Paris, 1972.

SHIR YEDIDOT, Marrakech, 1921, « *Chant d'amour* », réédité à Jérusalem, 1961, 1968.

SINGER Israël Joshua, *Les frères Ashkenazi*, éd. Stock, Paris, 1982.

STRACK Herman L., *Introduction to the Talmud and Midrash*, New-York, 1931 ; traduction française par M. R. Hayoun, Paris, 1986.

TEICHER J.L., *The Latin-Hebrew school of Translators in Spain in the twelfth century in Homenaje a Millas Vallicrosas*, II, Barcelone, 1956.

TEICHER J. L., *Laws of Reason and Laws of Religion... Essays and Studies presented to Stanley Arthur Cook*, Londres, 1950.

TISHBI Y., *Le méssianisme à l'époque de l'expulsion des juifs d'Espagne et du Portugal*, Jérusalem, 1985 (Hébreu).

VAJDA G., *L'amour de Dieu dans la théologie juive au Moyen-âge*, Paris, 1957.

VASSEL Eusebe, *La littérature populaire des Israélites tunisiens*, Paris, 1907.

WADDEL Helen, *The Wandering scholars*, 1932, Pelican Books.

WIET Gaston, *Introduction à la littérature arabe*, Paris, 1966.

ZAFRANI Haïm, *Artisanat des métaux précieux et problèmes monétaires dans les décisions des tribunaux rabbiniques de Fès au XVII^e/XVIII^e siècles.*

ZAFRANI Haïm, « *L'irruption du divin, du sacré et de l'ésotérique dans la vie quotidienne de la société judéo-maghrébine* » : Signes du Présent (revue scientifique et culturelle marocaine) n° 6, Fédala-Mohammadia, 1989.

ZAFRANI Haïm, *Éthique et mystique (Judaïsme en terre d'Islam)*. Le commentaire kabbalistique du traité des pères de J.BU-Ifergan, Paris 1991 (Texte français et hébreu).

ZAFRANI Haïm, *Grammaire de l'hébreu vivant, (histoire, morphologie et synthaxe)*, PUF, Paris, 1968-ouvrage réalisé en collaboration avec David Cohen.

ZAFRANI Haïm, *Kabbale, vie mystique et magie*, Paris 1986.

ZAFRANI Haïm, *La version arabe de la bible de Sa'adya Gaon*. L'ecclésiaste et son commentaire « Le livre de l'Ascèse », Paris 1989 en collaboration avec André Caquot.

ZAFRANI Haïm, *Le livre de la création ou la Kabale des Origines (Sefer Yesirah)*, Éditions Art et Valeur, Paris, 1978, (Ouvrage illustré par le peintre viennois Ernst Fuchs).

ZAFRANI Haïm, *Les juifs du Maroc, Vie sociale, économique et religieuse, Études de Taqqanot et Responsa*, Paris, 1972, librairie Paul Geuthner.

ZAFRANI Haïm, *Littératures dialectales et populaires juives en Occident musulman*, Paris, 1980.

ZAFRANI Haïm, *Los Judios del Occidente musulman Al-Andalus y El-Magreb*, Madrid, 1994.

ZAFRANI Haïm, *Maïmonide, pèlerin du monde Judéo-arabe*, «Les Africains», sous la direction de A. Julien et Magali Morsy, Paris, 1977.

ZAFRANI Haïm, *Mille ans de vie juive au Maroc (Histoire et culture, Religion et Magie)*, Paris, version hébraïque avec un sous-titre : *Le livre des sources*, Tel-Aviv, 1986.

ZAFRANI Haïm, *Pédagogie juive en Terre d'Islam, (L'enseignement traditionnel de l'hébreu et du judaïsme au Maroc)*, Paris, 1969.

ZAFRANI Haïm, *Poésie juive en Occident musulman*, Paris, 1977, librairie Paul Geuthner. Ouvrage traduit en hébreu, Institut Ben Zvi, Jérusalem, 1984.

ZAFRANI Haïm, *Une version berbère de la Haggadah de Pesah*, Texte de Tinrhir du Todrha (Maroc). Supplément aux comptes-rendus du G.L.E.C.S., Paris, 1970. Ouvrage réalisé en collaboration avec Madame Pernet-Galand.

ZAKI MUBARAK, *La prose arabe du IVᵉ de l'Hégire*, Paris, 1931.

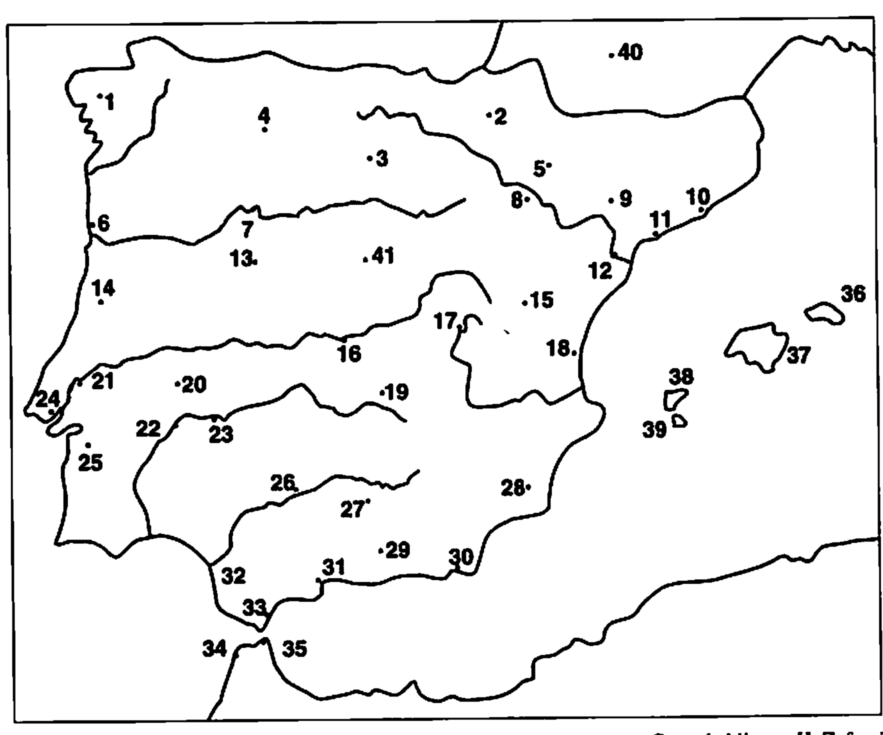
ZEEV FALK, *Halakkah and Reality in the State of Israël*, Jérusalem, 1927 (hébreu).

ENCYCLOPÉDIES

Encyclopédie de l'Islam, 1re et 2e éditions, Leyde-Paris, 1913-1942 ; 1954-...
Encyclopédie hébraïque, Tel-Aviv, Jérusalem (hébreu).
Encyclopaedia Judaica (E. J.), Jérusalem, 1971.
Jewish Encyclopedia (J.E.), New-York, 1901-1909.
Oṣar Yisr'el (Encyclopédie juive en hébreu). New York, 1951.
Universal Jewish Encyclopedia, New-York, 1939-1948.

REVUES

Al-Manahil (arabe), Rabat.
Bulletin de l'éducation Publique au Maroc (B.E.P.M.), Rabat.
Christus, Paris.
Hebrew Union College Annual (H.U.C.A.), Cincinnati.
Hesperis, Hesperis-Tamuda, Rabat.
Jewish Quaterly Review (J.Q.R.), Londres, New-York.
Journal of Jewish Studies (J.J.S.), Manchester.
Journal of Social Studies (J.S.S.), New-York.
Kiryat Sepher, Bibliographical Quaterly..., Jérusalem.
Leshonenu, Journal fot the Study of the Hebrew Language..., Jérusalem (hébreu).
Revue des Études islamiques (R.E.I.), Paris.
Revue des Études Juives (R.E.J.), Paris.
Sefarad, Revista... de Estudios Hebraicos y Oriente Proximo, Madrid.
Sefunot, Annual for Research in the Jewish Communities of the East, Jérusalem (hébreu).
Studia Islamica, Paris.
Tarbiz, Quaterly for Jewish Studies, Jérusalem (hébreu).
Yedi'ot..., Studies of the research Institute for Hebrew Poetry, Jérusalem (hébreu).
Zion, Quaterly for Research in Jewish History, Jérusalem (hébreu).

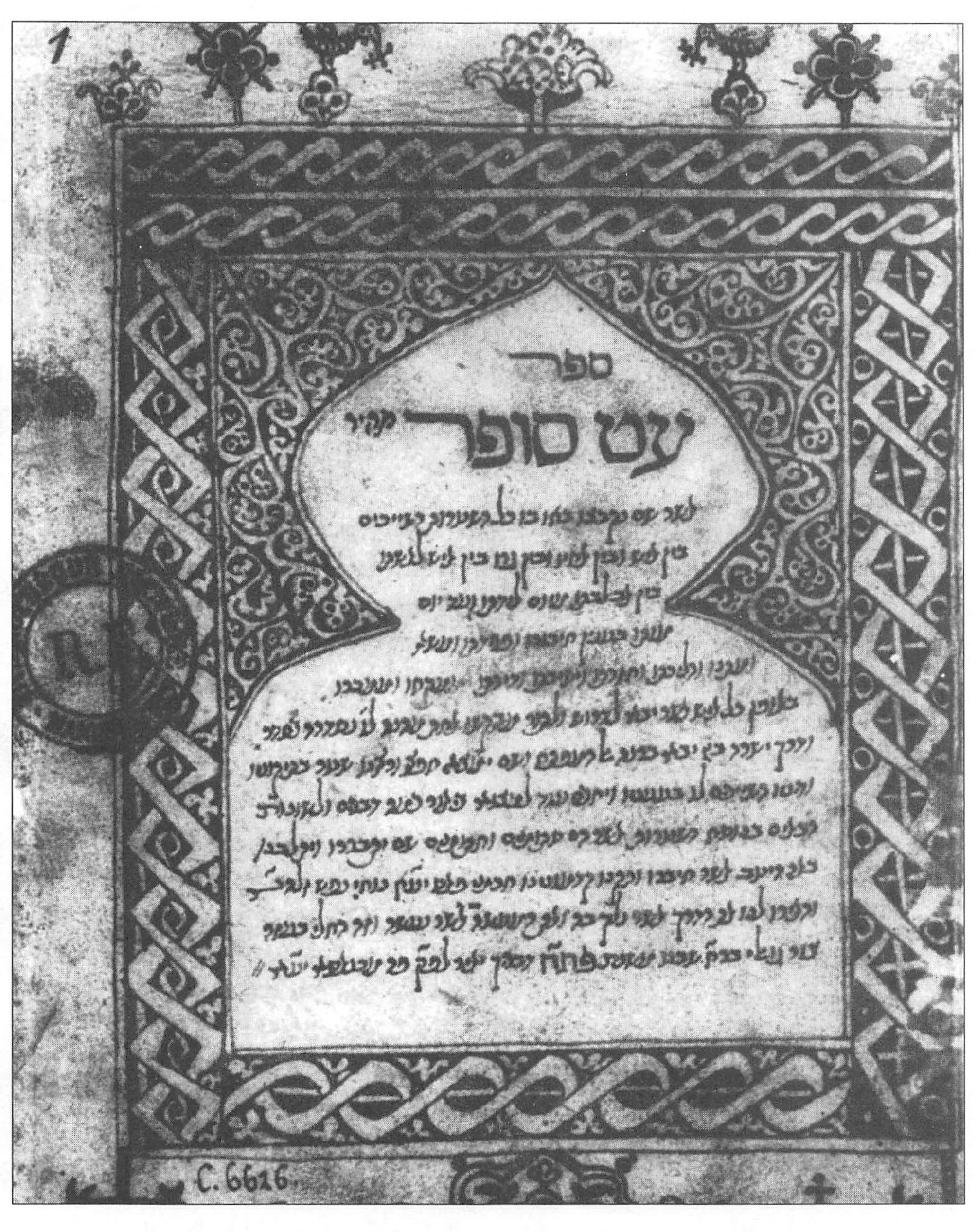


Carte établie par H. Zafrani

1. Saint-Jacques de Compostelle
2. Pampelune
3. Burgos
4. Léon
5. Huesca
6. Porto
7. Zamora
8. Saragosse
9. Lerida
10. Barcelone
11. Taragona
12. Tortosa
13. Salamanque
14. Coimbra
15. Teruel
16. Tolède
17. Cuenca
18. Valence
19. Alarcos
20. Zallaga
21. Santarem
22. Badajos
23. Mérida
24. Lisbonne
25. Alcacer do sal
26. Cordoue
27. Jaen
28. Murcie
29. Grenade
30. Almeria
31. Malaga
32. Cadix
33. Gibraltar
34. Tanger
35. Ceuta
36. Minorque
37. Majorque
38. Ibiza
39. Formanterra
40. Toulouse
41. Ségovie

ספר התקנות

كتاب "الفتاوى والنوازل" وضعه الأحبار القشتاليون بفاس سنة 1494. النص باللغة القشتالية والعبرية. مستخرجات من مخطوط يعود تاريخه إلى القرن الثامن عشر. (من مقتنيات V. Klagsbald) وكان المخطوط في ملك ابنصور في فاس.


ספר

עט סופר

C. 6626

من كتاب "ريشة الكاتب" ليعقوب أبنصور، فاس 1673-1752. يوجد المخطوط في المكتبة الوطنية بباريس، قسم المخطوطات العبرية رقم 1321.

ما يستعمل من فنون نوبة رمل الماية
وتسمى بالحسيني في مدح خير البرية البسيط
صنعة شغل

صلوا يا عباد على الهادي الورى   وارضوا على العشر الكرام البررا

[illegible]   نسيم من الاحباب سكان [illegible]

صنعة توشيح شغل

[illegible]

[illegible]

[illegible]

نص بالحرف العربي

[illegible]

نص بالحرف العبري

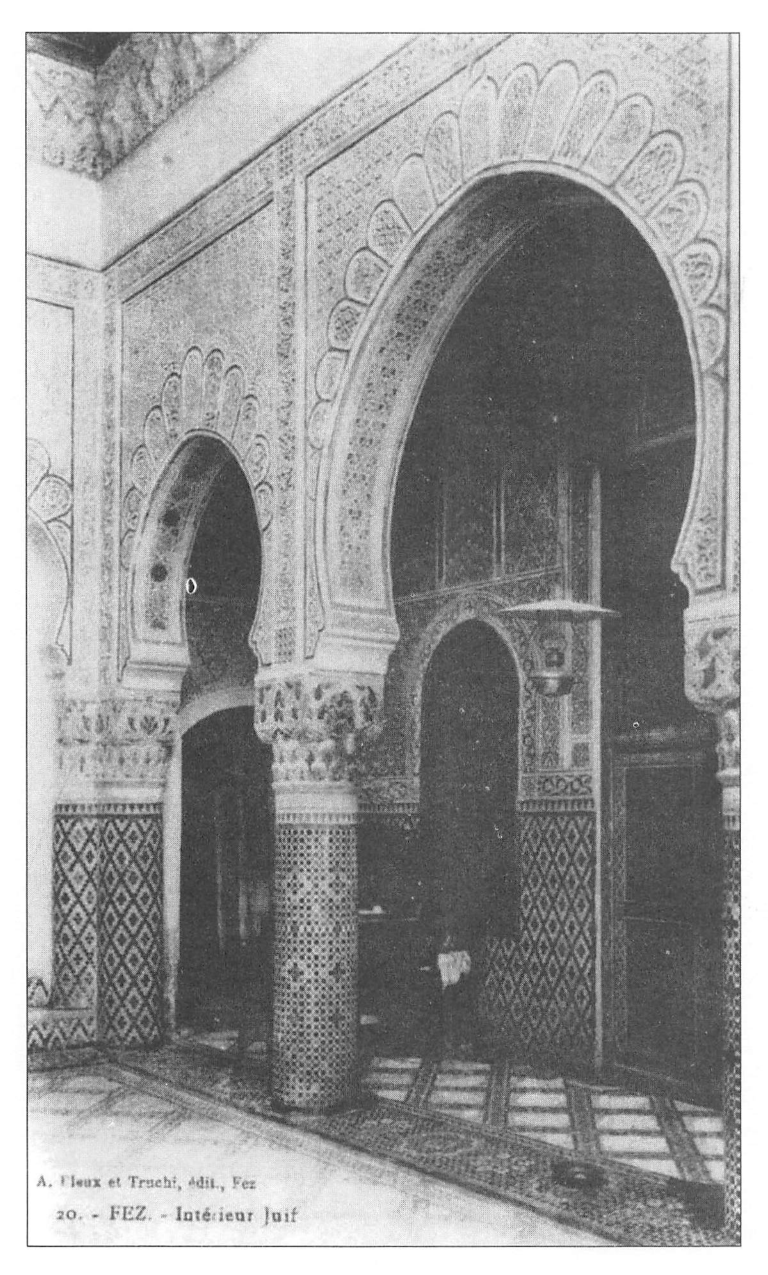
مقطوعة من "رمل الماية" مستخرجة عن كتاب الحايك في الموسيقى الأندلسية.
والنص بالحرف العربي والعبري، مخطوط من مقتنيات حاييم الزعفراني.



جوقة من موسيقيين يهود ومسلمين في الجزائر، بقيادة الموسيقي اليهودي إدمون نتان يفيل (1877-1928). وهو مؤلف مجموع موسيقى عربي موركسي، الجزائر 1904 من المقتنيات الخاصة بحاييم الزعفراني.



يهودية من دبدو، المغرب الشرقي في بداية القرن العشرين.



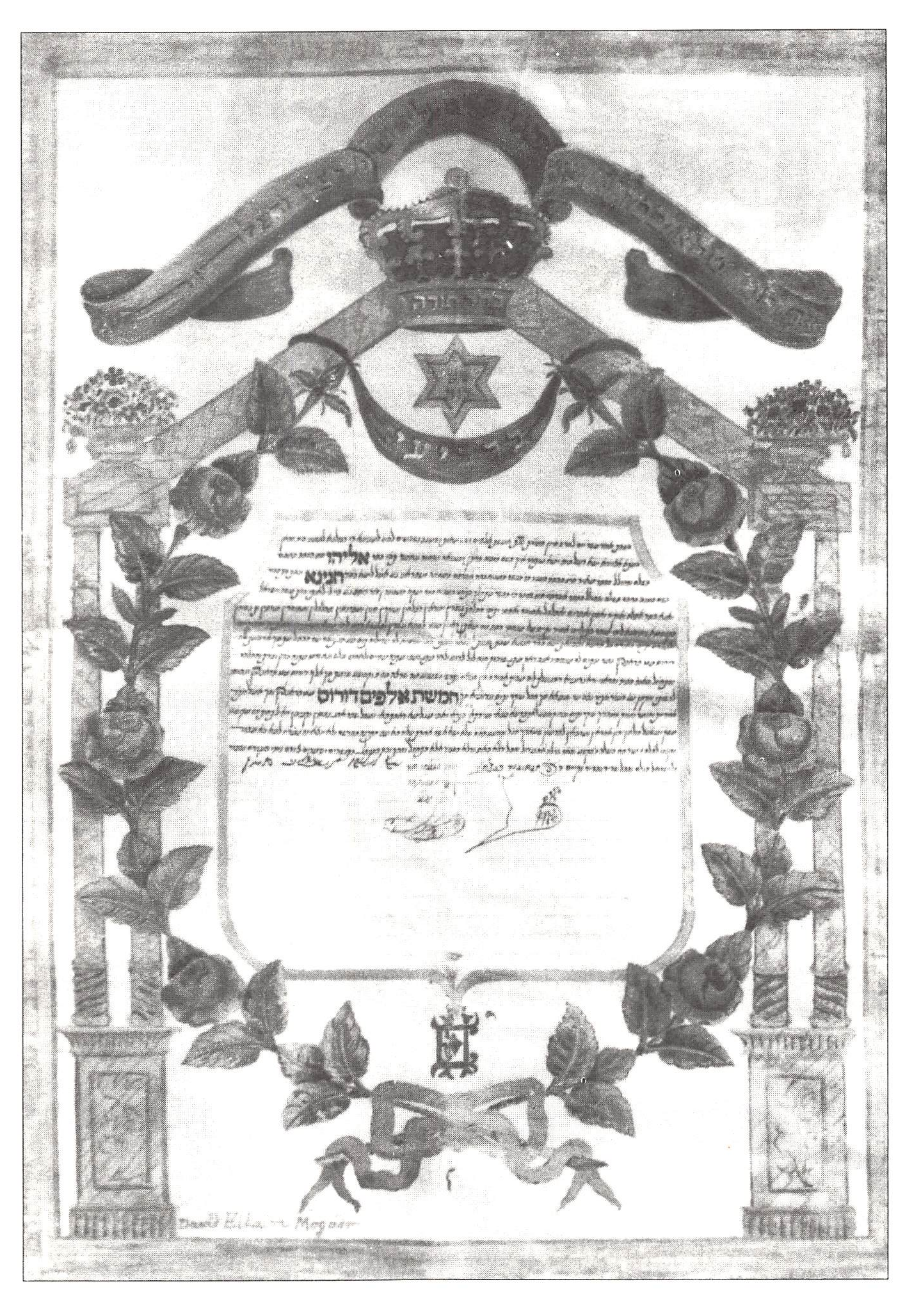
داخل بيت يهودي من الطبقة الغنية بفاس.



أحد الباعة اليهود ومشتر عربي في أمزميز بناحية مراكش. صورة .A.J.D.C



حرفي يهودي نحاس، في مراكش، صورة .A.J.D.C



عـقد زواج ضـرب فـي الـصـويرة. المـغـرب سـنة 1918/5678 من مـقـتـنـيـات حـاييم الزعفراني الخاصة.

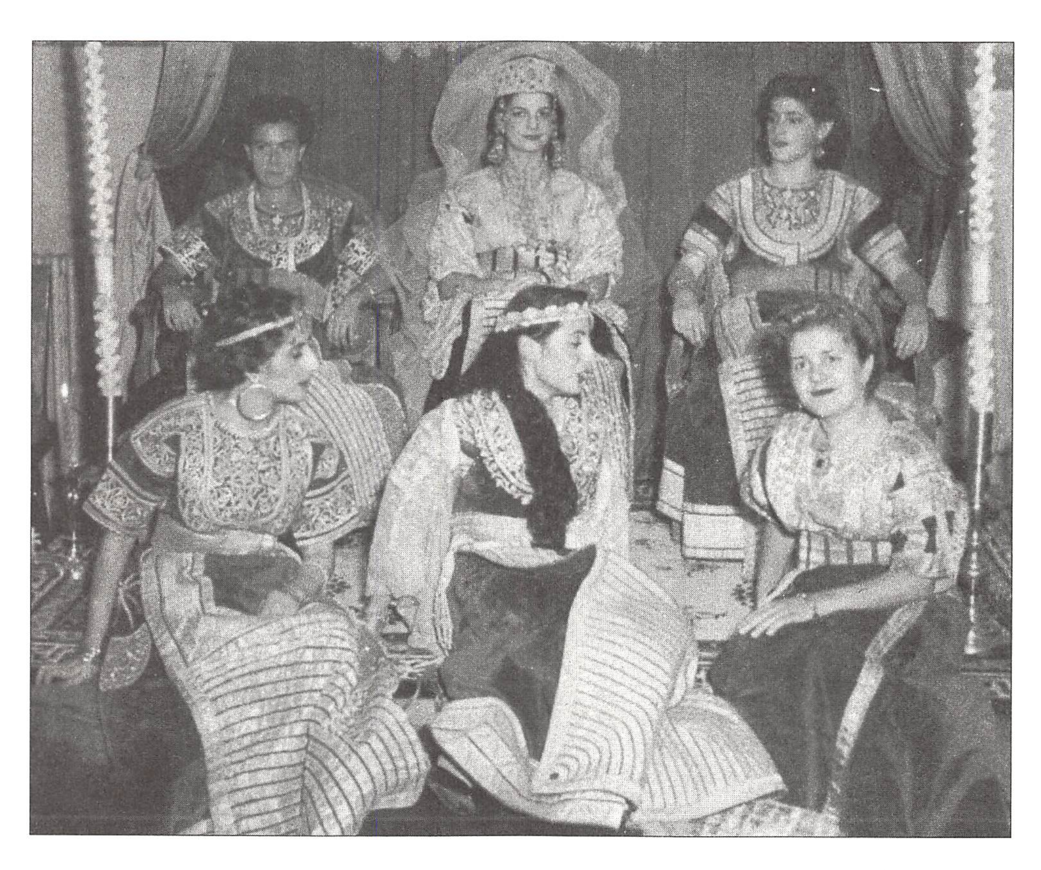

יתן ה' את האשה הבאה אל ביתך כרחל וכלאה אשר בנו

וישם לך שלום:

חמשת אלפים

כבית פרץ אשר ילדה תמר ליהודה מן הזרע אשר

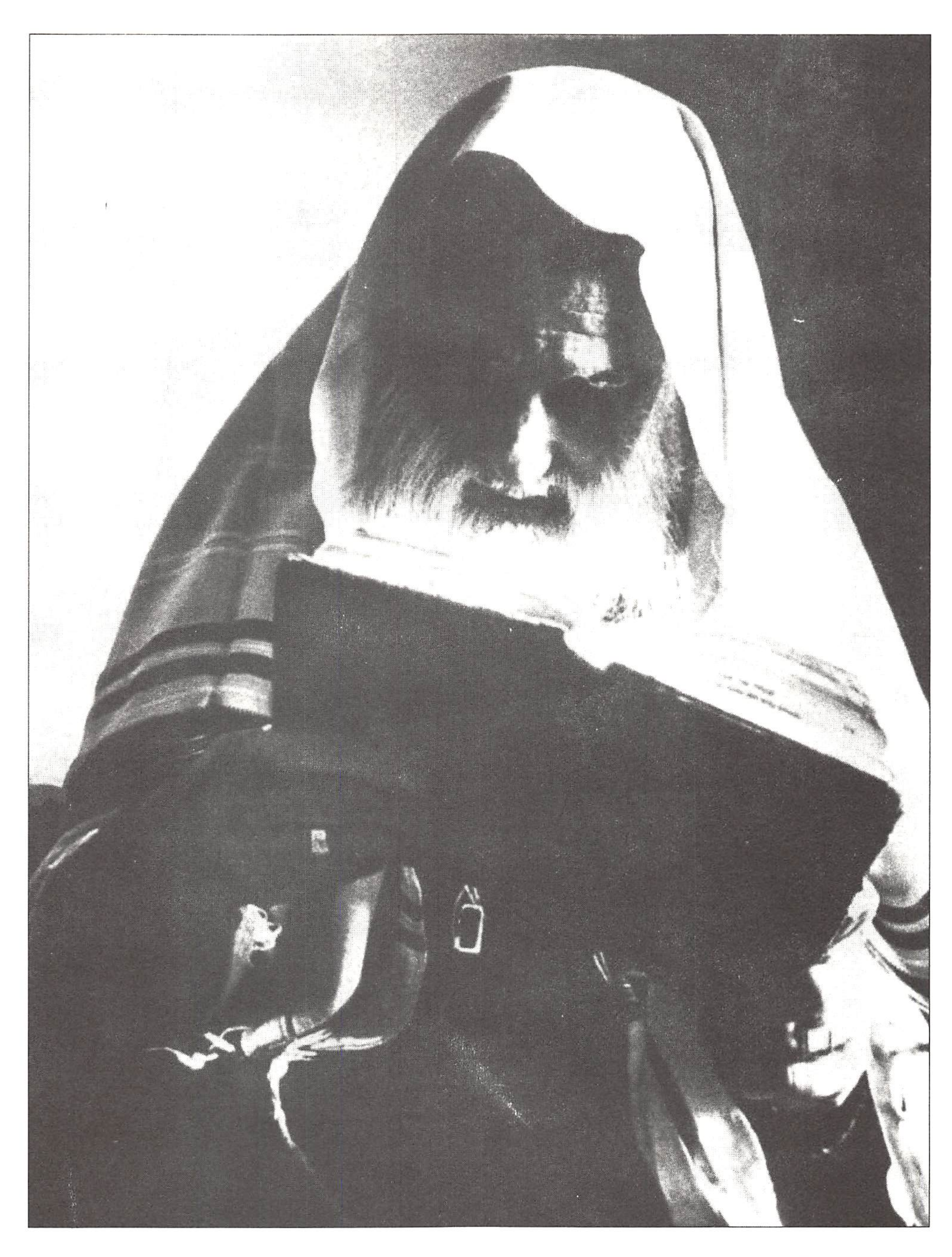
عـقـد زواج، ضـرب في الصـويرة، المغـرب سنة 1909/5669 من مقتنيات حاييم الزعفراني الخاصة.



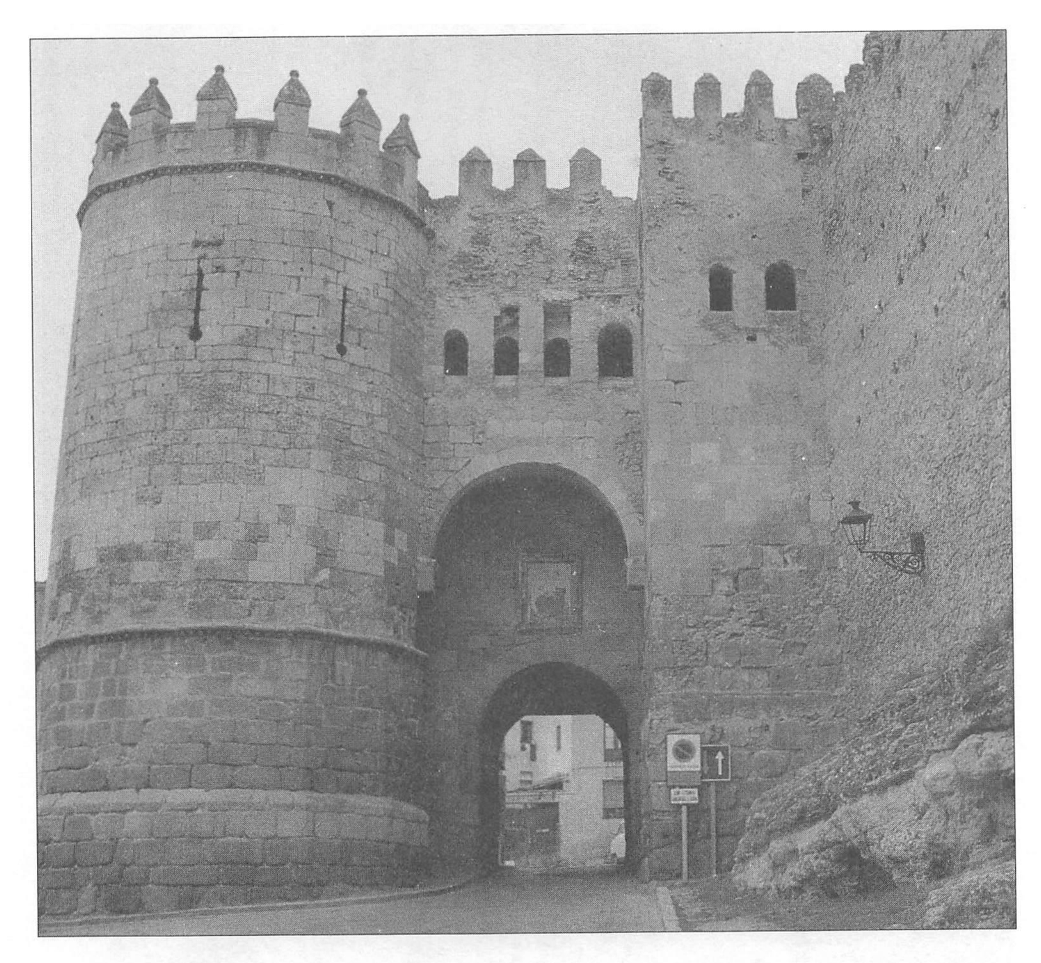
زواج يهودي أندلسي-مغربي، عائلة بنأزرف.



شرح لسفر "نشيد الأناشيد"، لسلمون الكاب في القرن السادس عشر، مكتبة الأسكريال.



فقيه يتلو الكتاب.



مدخل الملاح في Segovie.



بيعة "سنتامريا بلنكا" في طليطلة.

فهرس

الفصل السادس

الفصل السابع

خاتمة